

تيسير اللطيف المتنازل

في خلاصة تفسير القرآن

تأليف علامة القصيم

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

بارك الله في عامه النافع

تيسير اللطيف المتنازه

في خلاصة تفسير القرآن

تأليف علامة القصيم

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

بارك الله في عامه النافع

مصنفات المؤلف

(١) تفسير القرآن الكريم المسمى « تيسير الكريم المنان » في ثمانى مجلدات أكله في عام ١٣٤٤ ولم يطبع .

(٢) حاشية على الفقه استدراكا على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلى . ولم تطبع

(٣) ارشاد أولى البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب ، رتبته على السؤال والجواب ، طبع بمطبعة الترقى في دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً

(٤) الدرة المختصرة في محاسن الاسلام . طبع في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦

(٥) الخطب العصرية القيمة ، لما آل اليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس اليها ، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجاناً

(٦) القواعد الحسان لتفسير القرآن . طبعها في مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦

(٧) تنزيه الدين وحملته ورجاله ، مما افتراه القصيمى في أغلاله ، طبع في مطبعة دار احياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز « الشيخ محمد افندى نصيف » عام ١٣٦٦

(٨) الحق الواضح المبين ، في شرح توحيد الانبياء والمرسلين

(٩) توضيح الكافية الشافية . وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم

(١٠) وجوب التعاون بين المسلمين . وموضوع الجهاد الدينى ، وهذه الثلاثة الاخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجاناً

(١١) القول السديد في مقاصد التوحيد ، طبع في مصر « بمطبعة الامام » على نفقة عبد المحسن أبابطين عام ١٣٦٧ (١٢) مختصر في أصول الفقه ، لم يطبع

(١٣) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ، وهو هذا الكتاب وله فوائد منشورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد اليه من بلده وغيره ويحجب عليها ،

وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب . وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً ، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً ، ومما كتب نظم ابن عبد القوى المشهور وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلاً فراه شافقاً عليه ، فجمع بينه وبين الانصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له ، ولهذا لم نعهده من مصنفاته .

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق ، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته ، لا لينال منها عرضاً زائلاً ، أو يستفيد منها عرض الدنيا ، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها . فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً . ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فقد كنت كتبت كتاباً في تفسير القرآن ، مبسوطاً مطولاً يمنع القراءة من الاستمرار بقرائته ، ويفتر العزم عن نشره ، فأشار على بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطول يحتوى على خلاصة ذلك التفسير ، وتقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التى نختارها وننتقيها من جميع مواضع علوم القرآن ومقاصده ، فاستعنت الله على العمل على هذا الرأى الميمون لأمر كثيرة : منها أنه بذلك يكون متيسراً على المشتغلين ، معيناً للقارئ ، ومنها أن القرآن العظيم ليس كغيره من الكتب فى الترتيب والتبويب ، لأنه بلغ فى البلاغة نهايتها ، وفى الحسن غاية ، وفى الأسلوب البديع ، والتأثير العجيب ما هو أكبر الأدلة على أنه كلام الله وتنزيل من حكيم حميد . فتجده فى آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد ، وبين الدليل والمدلول ، وبين الترغيب والترهيب وبين العلوم الأصولية والفروعية ، وبين العلوم الدينية والدنيوية والآخرية ، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة ، ويعيد المعاني النافعة على العباد ، لينم علمهم ، وتكمل هدايتهم ، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم ، علماً وعملاً .

فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون على معرفة باقيه ، والله جعله مثابى تشي فيه العلوم النافعة ، والمعاني الجليلة الكاملة ، وهذا من تيسيره تعالى لكتابه ، قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟)

ومما يدعو إلى هذا ما تحتوى عليه هذه المقدمة المذكورة بقولنا .

مقدمة

« فى ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة »

قد وصف الله كتابه بأوصاف جليلة عظيمة تنطبق على جميعه ، وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة ، والفنون المرشدة لخير الدنيا والآخرة وصفه بالهدى والرشد ، والفرقان ، وأنه مبين وتبيان لكل شىء ، فهو فى نفسه هدى ، ويهdy الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم ، ويرشدهم إلى كل طريق نافع ، ويفرق لهم بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين ، وفيه

بيان الأصول والفروع بذكر أدلتها العقلية والعقلية ، فوصفه بهذه الأوصاف المطلقة العامة التي لا يشذ عنها شيء ، في آيات كثيرة .

وقيد هدايته في بعض الآيات بمدة قيود : قيد هدايته بأنه هدى للمؤمنين ، المتقين ، لقوم يعقلون ، ويتفكرون ، ولمن قصده الحق . وهذا بيان منه تعالى لشرط هدايته ، وهو أن المحل لا بد أن يكون قابلاً وعاملاً ، فلا بد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته ، فالمرض الذي لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به ، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له في الرشاد ، بل قصده فاسد وقد وطن نفسه على مقاومته ومعارضته ، ليس له من هدايته نصيب ، فالأول حرم هدايته لقصد الشرط والثاني لوجود المانع ، فأما من أقبل عليه وتفكر في معانيه وتدبرها بحسن فهم ، وحسن قصد ، وسلم من الهوى ، فإنه يهتدى به إلى كل مطلوب ، وينال به كل غاية جليلة ومرغوب

ووصفه بأنه رحمة ، وهي الخير الديني والدنيوي والأخروي المترتب على الاهتداء بالقرآن ، فكل من كان أعظم اهتداء به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك

ووصفه بأنه نور ، وذلك لبياناه وتوضيحه العلوم النافعة ، والمعاني الكاملة ، وأن به يخرج العبد من جميع الظلمات : ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والشقاء ، إلى نور العلم واليقين والايان والطاعة والرشاد المتنوع .

ووصفه بأنه شفاء لما في الصدور ، وذلك يشمل جميع أمراض القلوب ، فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها ، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفائها ، فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والخيرة وأسباب ذلك ، ويرشدهم إلى قلة ما بالعلوم النافعة واليقين الصادق ، وسلوك الطرق الصحيحة المزيلة لهذه العلل ، ويذكر لهم أمراض الشهوات والغنى ، ويبين لهم أسبابها وعلاماتها وآثارها الضارة ، ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتذكير والترغيب والترهيب ، والمقابلة بين الأمور وترجيح ما ترجحت مصاحته العاجلة والآجلة

ووصفه بأنه كله محكم ، وكله متشابه في الحسن ، وبعضه متشابه من وجه ، محكم من وجه آخر فأما وصفه في عدة آيات أنه كله محكم ، فلبلاغته وبياناه التام واشتماله على غاية الحكمة في تنزيل الأمور منازلها ، ووضعها ، ووضعها ، وأنه متفق غير مختلف ، ليس فيه اختلاف ولا تناقض بوجه من الوجوه ، وأما حسنه فلما فيه من البيان التام لجميع الحقائق ، ولأنه بين أحسن المعاني انمافة في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال ، فهي في غاية الحسن لفظاً ومعنى ، وآثارها أحسن الآثار ، وكل هذه المعاني المثناة في القرآن يشهد بعضها لبعض في الحسن والكمال ، ويصدق بعضها بعضاً . وأما وصفه بأن منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فالمتشابهات هي التي يقع الاشكال في دلالتها لسبب من الأسباب اللفظية والعبارات المركبة ، فأمر الله بردها إلى

المحكمات الواضحة بينة المعاني التي هي نص في المراد ، فاذا ردت التشابهات إلى المحكمات صارت كلها محكمات ، وزال الشك والاشكال ، وحصل البيان للهدى من الضلال .

ووصفه بأنه كله صلاح ويهdy إلى الاصلاح ، وإلى أقوم الأمور وأرشد لها وأنفعها في كل شيء من دون استثناء . وهذا الوصف المحيط لا يخرج عنه شيء ، فهو اصلاح للعقائد والقلوب ، وللأخلاق والأعمال ، ويهdy إلى كل صلاح ديني ودنيوي بحيث تقوم به الأمور ، وتعتدل به الأحوال ، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالارشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدي إلى المقاصد والغايات المطلوبة ، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح والاصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها القرآن ، وحث العباد عليها .

فمتى عرفت أن القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف التي هي أعلى الاوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد ، وأنه أعيدت فيه هذه المعاني الجليلة ومزجت فيه مزجاً عجيباً غريباً في كماله وحسنه ، فهت أن طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرب بها وتوسل بها إلى معرفة بقية الآيات .

لهذه الأسباب وغيرها رأينا أن المصلحة تدعو إلى الاختصار على خلاصة ذلك التفسير ؛ راجين من الرب أن يتم نعمته وأن يحصل به المقصود ؛ ورأينا أن الأحسن أن نذكر كل موضوع على حدته لما فيه من التقريب والسهولة وجمع المعاني التي من فن واحد في موضع واحد ، مع أنه كما تقدم لا بد أن يدخل في آيات الأصول كثير من الفروع ؛ وفي آيات الفروع كثير من الأصول ، ويدخل فيها من الترغيب والترهيب والقصص شيء كثير ، وهذا المزج العجيب من كمال القرآن وعظم تأثيره فانه كتاب تعليم يزيل الجهالات المتنوعة ، وكتاب تربية يقوم الاخلاق والأعمال ، فهو يعلم ويقوم ويهذب ويؤدب بأعلى ما يكون من الطرق التي لا يمكن الحكماء والعقلاء أن يقترحوا مثلها ولا ما يقاربها .

علوم التوحيد والعقائد والأصول

١- بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
أى أبتدىء بكل اسم لله تعالى ، لأن لفظ « اسم » مفرد مضاف فيعم جميع أسماء الله الحسنى فيكون العبد مستعيناً بربه وبكل اسم من أسمائه على ما يناسبه من المطالب ، وأجل ما يستعان به على عبادة الله ، وأجل ذلك الاستعانة على قراءة كلام الله ، وتفهم معانيه ، والاهتداء بهديه
« الله » هو المألوه المستحق لافراده بالمحبة والخوف والرجاء وأنواع العبادة كلها لما اتصف به

من صفات الكمال ، وهي التي تدعو الخلق إلى عبادته والتأله له (الرحمن الرحيم) اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء ، وعمت كل مخلوق ، وكتب الرحمة الكاملة للعتبين المتبعين لأنبيائه ورسله ؛ فهو لاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية ، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة ، لأنه الذي دفع هذه الرحمة وأبأها بتكذيبه للخبر ، وتوليه عن الأمر ، فلا يلومن إلا نفسه .

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة من الايمان بأسماء الله كلها ، وصفاته جميعها ، وبأحكام تلك الصفات ، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة العظيمة التي اتصف بها المتعلقة بالرحوم ؛ فالنعم كلها من آثار رحمته ، وهكذا يقال في سائر الأسماء الحسنى ؛ فيقال عليهم : ذو علم عظيم يعلم به كل شيء ، قدير ذو قدرة يتدر على كل شيء ، فان الله قد أثبت لنفسه الاسماء الحسنى ، والصفات العليا ، وأحكام تلك الصفات ، فمن أثبت شيئاً منها ونفى الآخر ؛ كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضاً مبطلاً .

« الحمد لله » الحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل المشتملة على الحكمة التامة ؛ ولا بد في تمام حمد الحامد من اقتران محبة الحامد لربه وخضوعه له ، فائثناء الجرد من محبة وخضوع ليس حمداً كاملاً .

« رب العالمين » الرب هو المربي جميع العالمين بكل أنواع التربية ، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأزعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، وهذه التربية العامة لجميع الخلق ، برهم وفاجرهم ، بل المكفون منهم وغيرهم ، وأما التربية الخاصة لأنبيائه وأوليائه ، فانه مع ذلك يربي إيمانهم فيكمله لهم ، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق التي تحول بينهم وبين صلاحهم وسعادتهم الأبدية ، وتيسيرهم ليسرى وحفظهم من جميع المكاره ، وكما دل ذلك على انفراد الرب بالخلق والتدبير والهداية وكل الغنى ، فانه يدل على تمام فقر العالمين اليه بكل وجه واعتبار ، فيسأله من في السموات والأرض بلسان المقال والحال جميع حاجاتهم ويفزعون اليه في مهماتهم

« مالك يوم الدين » المالك هو من اتصف بالصفات العظيمة الكاملة التي يتحقق بها الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، ويتصرف في العالم العلوى والسفلى التصرف التام المطلق بالأحكام القدريّة والأحكام الشرعية ، وأحكام الجزاء ، فلهذا أضاف ملكه ليوم الدين مع أنه المالك المطاق في الدنيا والآخرة ، فانه يوم القيامة الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرها وشرها ، ويرتب عليها جزاءها ، وتشاهد الخليقة من آثار ملكه وعظمته وسعته ، وخضوع الخلائق كلهم لعظمته وكبريائه ، واستواء الخلق في ذلك اليوم على اختلاف طبقاتهم في نفوذ أحكامه عليهم ما يعرفون به كمال ملكه وعظمة سلطانه

« إياك نعبد وإياك نستعين » أى نخضك ياربنا وحدك بالعبادة والاستعانة فلا نعبد غيرك ؛ ولا نستعين بسواك ، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، فهى القيام بقائد الايمان وأخلاقه وأعماله محبة لله وخضوعاً له ، والاستعانة هى الاعتماد على الله فى جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به فى حصول ذلك ، وهذا التزام من العبد بعبودية ربه ، وطلب من ربه أن يعينه على القيام بذلك ، وبذلك يتوسل إلى السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور ، فلا سبيل لذلك إلا بالقيام بعبادة الله والاستعانة به ، وعلم بذلك شدة افتقار العبد لعبادة الله والاستعانة به .

« اهدنا الصراط المستقيم » أى دلنا وارشدنا ووقفنا للعلم بالحق والعمل به ، الذى هو الصراط المستقيم المعتدل الموصل إلى الله وإلى جنته وكرامته ، وهذا يشمل الهداية إلى الصراط ، وهى التوفيق للزوم دين الاسلام ، وترك ما سواه من الأديان الباطلة ، ويشمل الهداية فى الصراط وقت سلوكه علماً وعملاً ؛ فهذا الدعاء من أجمع الادعية وأنفعها للعبد ، ولهذا أوجبه الله ويسره ، وهذا الصراط هو طريق و« صراط الذين أنعمت عليهم » بالنعمة التامة المتصلة بالسعادة الأبدية ، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون « غير المنضوب عليهم » وهم الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم « ولا الضالين » الذين ضلوا عن الحق كالنصارى ونحوهم .

فهذه السورة على إيجازها قد جمعت علوماً جمة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية يؤخذ من قوله ، رب العالمين ، وتوحيد الالهية من قوله ، إياك نعبد وإياك نستعين ، فهو المألوه بعبادته والاستعانة به .

وتوحيد الاسماء والصفات بأن يثبت لله صفات الكمال كلها التى أثبتتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ . وقد دل على ذلك إثبات الحمد لله ؛ فان الاسماء الحسنى والصفات العليا ، وأحكامها كلها محامد ومدائح لله تعالى ، وتضمنت اثبات الرسالة فى قوله : اهدنا الصراط المستقيم . لأنه الطريق الذى عليه النبي ﷺ . وذلك فرع عن الايمان بنبوته ورسالته ، وتضمنت اثبات الجزاء وأنه بالعدل ، وذلك مأخوذ من قوله : مالك يوم الدين .

وتضمنت اثبات مذهب أهل السنة والجماعة فى القدر ، وأن جميع الاشياء بقضاء الله وقدره وأن العبد فاعل حقيقة ليس مجبوراً على أفعاله . وهذا يفهم من قوله : إياك نعبد وإياك نستعين . فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى اعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة ، وتضمنت أصل الخير ومادته ، وهو الاخلاص الكامل لله فى قول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين .

ولما كانت هذه السورة بهذه العظمة والجلالة أوجبها الشارع على المكلفين فى كل ركعة من صلاتهم فرضاً ونفلاً ، وفيها تعليم من الله لعباده كيف يحمدهونه ويثنون عليه ويمجدونه بحماده

ثم يسألون ربهم جميع مطالبهم ، ففيها دليل على افتقارهم إلى ربهم في الأمرين ؛ مفتقرين إليه في أن يملأ قلوبهم من محبته ومعرفته ، ومفتقرين إليه في أن يقوم بمصالحهم ويوفقهم لخدمته ، والحمد لله رب العالمين . .

٢ - قولوا آمنا بالله وما أنزل اليينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

هذه الآية الكريمة لها شأن كبير ، كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها كثيراً في الركعة الأولى من سنة الصبح ، وقد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به ، فإن الإيمان الشرعى هو تصديق القلب التام واقاراره بهذه الأصول المتضمن لأعمال الجوارح ولأعمال القلوب ؛ وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الاسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها ، فهي إيمان ، وهى من آثار الإيمان . فإذا أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر ، وكذلك إذا أطلق الاسلام فإنه يدخل فيه الإيمان ، فإذا قرن بين الاسلام والإيمان ، فسر الإيمان بما فى القلب من العقائد الصحيحة والارادات الصالحة ، وفسر الاسلام بالأعمال الظاهرة .

وكذلك إذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح ، الإيمان لما فى الباطن ، والعمل الصالح هو الظاهر ومع اطلاق الإيمان يدخل فيه العمل الصالح ، كما فى كثير من الآيات ، فقوله تعالى (قولوا آمنا بالله) إلخ . أى قولوا ذلك بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم ، وهذا هو القول التام الذى يترتب عليه الثواب والجزاء ، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب ليس بإيمان ، بل هو نفاق ، فكذلك القول الخالى من عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة ، وفى قوله « قولوا » إشارة إلى الاعلان بالعميدة والصدع بها والدعوة لها ؛ إذ هى أصل الدين وأساسه ، وفى مثل قوله : آمنا . وما أشبهها من الآيات التى يضاف الفعل فيها إلى ضمير الجمع إشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف والنهى عن الافتراق ، وأن المؤمنين كالجسد الواحد عليهم السعى لمصالحهم كلها جميعاً والتناصح التام ، وفيه دلالة على جواز اضافة الانسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد بأن يقول أنا مؤمن بالله ؛ كما يقول آمنت بالله ، بل هذا الأخير من أوجب الواجبات ، كما أمر الله به أمراً حتماً بخلاف قول العبد : أنا مؤمن ونحوه ، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس لأن الإيمان المطلق يشمل القيام بالواجبات وترك المحرمات ، فهو كقوله أنا متقى أو ولى أو من أهل الجنة ، وهذا التفريق هو مذهب محقق أهل السنة والجماعة .

فقوله (آمنا بالله) أى بأنه واجب الوجود ، واحد أحد فرد صمد متصف بكل صفة كمال ، منزّه عن كل نقص مستحق لافراده بالعبودية كلها ، وهو يتضمن الاخلاص التام « وما أنزل اليينا »

يدخل فيه الايمان بألفاظ الكتاب والسنة ومعانيهما ، كما قال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) فيدخل في هذا الايمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله من أسماء الله وصفاته وأفعاله وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب كلها والايمان بما تضمنه الكتاب والسنة أيضاً من الأحكام الشرعية الأمر والنهي وأحكام الجزاء وغير ذلك ، (وما أنزل إلى ابراهيم) إلخ . فيه الايمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء والايمان بالأنبياء عموماً ، وخصوصاً ما نص عليهم منهم في الآية الكريمة وغيرها لشرفهم ولكونهم أتوا بالشرائع الكبار ، فمن براهين الاسلام ومحاسنه ، وأنه دين الله الحق : الأمر بالايمان بكل كتاب أنزله الله وكل رسول أرسله الله مجلاً ومفضلاً ، فكل من ادعى أنه على دين حق كاليهود والنصارى ونحوهم فانهم يتناقضون فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، فيبطل كفرهم وتكذيبهم تصديقهم ، ولهذا أخبر عنهم أنهم الكافرون حقاً ، وأنه لا سبيل يسلك إلى الله إلا سبيل الايمان بجميع الرسل وبجميع الكتب المنزلة على الرسل ، وفي قوله (وما أتى النبيون من ربهم) برهان على أن الأنبياء وسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ، وأنه ليس لهم من الأمر شيء ، وفي الإخبار بأنه من ربه ، بيان أن من كمال ربوبيته لعباده التربية التامة أنه أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعلمهم ويذكروهم ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ، وأنه لا يليق بربوبيته وحكمته أن يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يشابون ولا يعاقبون .

وفهم من الآية الكريمة الفرق بين الأنبياء الصادقين ، وبين من يدعى النبوة من الكاذبين فان الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً ، ويشهد بعضهم لبعض ، ويكون كل ما جاءوا به متفقاً لا يتناقض لأنه من عند الله محكم منتظم ، وأما الكذبة فانهم لابد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم ويعلم كذبهم بمخالفته لما يدعو اليه الأنبياء الصادقون .

فلما بين تعالى جميع ما يجب الايمان به ، عموماً وخصوصاً ، وكان القول لا يغنى عن العمل ، قال : ونحن له مسلمون . أى خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا ، مخلصون له بذلك فان تقديم المعمول على العامل يدل على الحصر ، فهذه الأصول المذكورة في هذه الآية قد أمر الله بها في كتابه في عدة آيات من القرآن اجمالاً وتفصيلاً ، وأثنى على القائمين بها ، وأخبر بما يترتب عليها من الخير والثواب ، وأنها تكمل العبد وترقيه في عقائده وأخلاقه وآدابه ، وتجعله عدلاً معتبراً في معاملاته ، وتوجب له خير الدنيا والآخرة ، ويحميها بها الحياة الطيبة في الدارين ، وتجلب له السعادات ، وتدفع عنه شرور الدنيا والآخرة . وقد أخبر في هذه السورة أن الرسول والمؤمنين قاموا بهذه الأصول علماً وتصديقاً وإقراراً وعملاً ودعوة وهداية وإرشاداً ، فكُتِبَ أهل العلم المصنفة في العقائد كلها تفصيل لما في هذه الآية الكريمة .

٣ - الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم .

قد أخبر النبي ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن على الإطلاق ، وأنها تحفظ قارئها من الشياطين والشرور كلها ، لما احتوت عليه من معانى التوحيد والعظمة وسعة صفات الكمال لله تعالى فأخبر أنه الله الذى له جميع معانى الألوهية ، وأنه لا يستحق الألوهية غيره ، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة ضارة فى الحال والمآل ، وعبادته وحده لا شريك له هى الحق الموصلة إلى كل كمال ؛ وأنه الحى كامل الحياة ، فمن كمال حياته أنه السميع البصير التقدير المحيط علمه بكل شئ ، الكامل من كل وجه ؛ فالذى يتضمن جميع الصفات الذاتية ، والقيوم الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع المخلوقات وقام بها فأوجدها وأبقاها وأمدّها بكل ما تحتاج إليه فى بقائها ، فالقيوم يتضمن جميع صفات الأفعال ، ولهذا ورد أن اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) فان هذين الاسمين الكريمين يدخل فيهما جميع الكمالات الذاتية والفعلية ، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لا تأخذه سنة أى نهاس ، ولا نوم ، لأنهما إنما يعرضان للمخلوق الذى يعترية الضعف والعجز والانحلال ، وينزه عنهما ذو العظمة والكبرياء ، والجلال .

وأخبر أنه مالك لجميع ما فى السموات وما فى الأرض ، فكأنهم عبيد ومماليك لا يخرج أحد منهم عن هذا الوصف اللازم ؛ فهو المالك لجميع الممالك ، وهو الذى اتصف بصفات الملك الكامل والتصرف التام النافذ ، والسلطان والكبرياء .

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بأذنه ؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له ، ممالك لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم (قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض) ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله ، ولا يرضى إلا عن قام بتوحيده واتباع رسله ، فمن لم يتصف بهذا فليس له فى الشفاعة نصيب ، وأسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه . ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلية التى لانهاية لها « وما خلفهم » من الأمور الماضية التى لا حد لها ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشئ من علم الله ولا معلوماته إلا بما شاء منهما وهو ما اطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية ، وهو جزء يسير جداً بالنسبة إلى علم البارى تضمحل العلوم كلها فى علم البارى ومعلوماته ، كما قال أعلم المخلوقات وهم الرسل والملائكة « سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا »

ثم أخبر عن عظمته وجلاله ، وأن كرسيه وسع السموات والأرض ، وأنه قد حفظهما بما فيهما من العوالم ، بالأسباب والنظامات التي جعلها الله في مخلوقاته ومع ذلك فلا يؤوده ، أى يثقله حفظهما بسكال عظمته وقوة اقتداره وسعة حكمته في أحكامه ، وهو العلى ، بذاته على جميع مخلوقاته ، فهو الرفيع الذى بآين جميع مخلوقاته ؛ وهو العلى بعظمة صفاته الذى له كل صفة كمال ، ومن تلك الصفات أكملها ومنتهىها ، وهو العلى الذى قهر جميع المخلوقات ، ودانت له كل الموجودات ، وخضعت له الصعاب وذلت له الرقاب «العظيم» الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد ، الذى تحبه القلوب وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل موجود وإن جلت عن الصفة ، فإنها مضحلة في جانب عظمة العلى العظيم ، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام .

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني وأفرضها على العباد ؛ يحق أن تكون أعظم آيات القرآن ، وبحق لمن قرأها متدبراً متفهماً أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان ، وأن يكون بذلك محفوظاً من شرور الشيطان ، وقد نعت البارئ نفسه الكريمة بهذه الأوصاف في عدة آيات من كتابه :

٤ — شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ؛ لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

هذه أجل الشهادات على الإطلاق ؛ فإنها صدرت من الملك العظيم ، ومن ملائكته وأنبيائه وأهل العلم على أجل مشهود عليه ؛ وهو توحيد الله وقيامه بالقسط ، وذلك يتضمن الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء ؛ فإن الدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والجلال ، وبنعوت الجود والبر والرحمة والاحسان والجمال ، وبكائه المطلق الذى لا يحصى أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه عباده .

وأما القسط فهو العدل الكامل والله تعالى هو القائم بالعدل في شرعه وخلقه وجزائه ؛ فإن العبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها ، والأمر والنهي كله عدل وقسط ، لا ظلم فيه بوجه من الوجوه ، بل هو في غاية الأحكام والانتظام ، وفي غاية الحكمة والجزاء على الأعمال ، كله دائر بين فضل الله وإحسانه على الموحدين المؤمنين به ، وبين عدله في عقوبة الكافرين والعاصين ، فإنه لم يهضمهم شيئاً من حسناتهم ، ولم يعذبهم بغير ما كسبوا « ولا تزر وازرة وزر أخرى » قال تعالى : « قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله »

فتوحيد الله ودينه قد ثبت ثبوتاً لا ريب فيه ، وهو أعظم الحقائق وأوضحها ، وقد شهد الله

له بذلك بما أقام من الآيات والبراهين والحجج المتنوعة عليه ، ومن شهادته تعالى أنه أقام أهل العلم
العارفين بهذه الشهادة ، فانهم المرجع للعباد في تحقيق كل حق وإبطال كل باطل ، لما خصهم الله به
من العلم الصحيح واليقين التام والمعرفة الراسخة .

وهذا من جملة فضائل العلم وأهله ، فان الله جعلهم وسائط بين عباده يبلغونهم توحيده
ودينه وشرائعه الظاهرة والباطنة ، وأمر الناس بسؤالهم والرجوع إلى قولهم ، وانهم هم الأئمة
المتبوعون ، وغيرهم تابع لهم في الدنيا والآخرة . ولهذا لهم الكلمة الرفيعة حتى في الآخرة ، لما
ذكر تعالى اختصاص الخلق واختلافهم ، ذكر القول الفصل في ذلك الصادر من أهل العلم (وقال
الذين أوتوا العلم والایمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم
كنتم لا تعلمون)

وفي هذا دليل على كمال أهل العلم ؛ فان الله استشهد بهم على عباده ، وذلك تعديل منه
لهم ، وفي هذا من الشرف وعلو المكانة مالا يخفى .

هـ — ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم
مقلبكم ومثواكم ﴾

العلم لا بد فيه من اقرار القلب ، ومعرفة بمعنى ما طلب منه علمه ، ولا يتم ذلك إلا بالعمل
بمقتضى ذلك العلم في كل مقام بحسبه ؛ وهذا العلم الذي أمر الله به فرض عين على كل انسان لا يسقط
عن أحد ، كائناً من كان .

والضرورة إلى هذا العلم والعمل بمقتضاه من تمام التأله فوق كل ضرورة ، والعلم بالشئ يتوقف
على معرفة الطريق المفضى إلى معرفته وسلوكها ، والطريق إلى العلم بأنه (لا إله إلا هو) على وجه
الاجمال والعموم أمور :

أحدها : وهو أعظمها وأوضحها وأقواها تدبر أسماء الله وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته
وجلاله ؛ فان معرفتها توجب العلم بأنه لا يستحق الألوهية سواء ، وتوجب بذل الجهد في التأله
والتعبد لله الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال .

الثاني : العلم بأنه الرب المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ، فبذلك يعلم أنه المنفرد بالألوهية
الثالث : العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية ، فان ذلك يوجب تعلق
القلب به محبة وإناابة ، والتأله له وحده لا شريك له .

الرابع : ما يراه العباد ويسمعونه من الثواب لأولياؤه القائمين بتوحيده من النصر لرسله
وأتباعهم ، ومن النعم العاجلة المشاهدة ، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به ، فان هذا يرهان على أنه
وحده المستحق للألوهية .

الخامس : معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبِدَت مع الله وأتخذت آلهة وأنها فقيرة إلى الله من كل وجه ، ناقصة من كل وجه ، لا تملك لنفسها ولا لمن عبدها نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ؛ فالعلم بذلك يعلم به بطلان إلهيتها ، وأن ما يدعون من دون الله هو الباطل وأن الله هو الاله الحق المبین .

السادس : اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه .

السابع : اتفاق الأنبياء والرسال والعلماء الربانيين على ذلك وشهادتهم به ، وهم خواص الخلق وأكلمهم أخلاقا وعقولا وعلماء وقيمين .

الثامن : ما أقامه الله من الأدلة والآيات الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة وأوضحها وتنادى عليه بلسان المقال ولسان الحال بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه التاسع : ما أودعه الله في شرعه من الآيات المحركة والأحكام الحسنة والحقوق العادلة والخير الكثير وجلب المنافع كلها ودفع المضار ، ومن الاحسان المتنوع ، وذلك يدل أكبر دلالة أنه الله الذي لا يستحق العبادة سواه . وأن شريعته التي نزلت على السنة رسله شاهدة بذلك .

فهذه الطرق التي لا تحصى أنواعها وأفرادها قد أبداها الله في كتابه وأعادها ونبه بها العباد على هذا المطلوب الذي هو أعظم المطالب وأجل الغايات ، فمن سلك طريقا من هذه الطرق أفضت به إلى العلم واليقين بأنه لا إله إلا هو ، وكلما ازداد العبد سلوكا لهذه الطرق ورغبة فيها ومعرفة ازداد يقينه ورسخ إيمانه ، وكان الإيمان في قلبه أرسخ من الجبال ، وأحلى من كل لذيذ وأتقن من كل نقيس .

والطريق الأعظم الجامع لذلك كله تدبر القرآن العظيم والتأمل في آياته ، فانه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل من غيره وقوله (واستغفر لذنبك) أي اطلب من ربك المغفرة لذنبك بأن تفعل الأسباب التي تحصل بها المغفرة من الدعاء بالمغفرة والتوبة النصوح ، وفعل الحسنات المأجبة ، وترك الذنوب والعفو عن الخلق والاحسان اليهم ، ومن ذلك الاستغفار لهم . فلهذا قال (وللمؤمنين والمؤمنات) فهذا من ثمرات الإيمان بسبب إيمانهم كان لهم حق على كل مسلم أن يدعو لهم بالمغفرة ، وإذا كانت العبد مأمورا بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، فمن لوازم ذلك أن يكون ناصحا لهم يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه ، ويحثهم على الخير وينهاهم عن الشر ، ويعفو عن معائبهم ومساوئهم . ويحرص على اجتماعهم اجتماعا تتألف به قلوبهم ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق ، فانه بالائتلاف تقل الذنوب وبالاقتراق تكثر الشرور والمعاصي (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أي تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم وحيثكم وما اليه تنتهون وبه تستقرون فهو المحيط بكم في كل أحوالكم ، وهذافيه التخويف والترغيب من الجزاء على الأعمال حسناتها وسيئها

٦ - هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور ، له الاسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى التى عليها مدار التوحيد والاعتقاد ، فأخبر أنه المألوه الذى لا يستحق العبادة سواه ؛ وذلك لسكّاله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام وحكمه الشاملة . فهو الإله الحق وما سواه فعبوديته باطلة لأنه خال من السكّال ومن الأفعال التى فيها النفع والضرر ، ووصف نفسه بالعالم المحيط بما حضر وغاب وما مضى وما يستقبل وما هو حاضر وما فى العالم العلوى وما فى العالم السفلى وما ظهر وما بطن ، فلا تخفى عليه خافية فى مكان من الامكنة ولا زمان من الازمنة ، ومن كل علمه وقدرته أنه يعلم ما تنقص الأرض من الأموات وما تفرق من أجزائهم وما استحال من حال إلى حال ، أحاط علماً بذلك على وجه التفصيل فلا يعجزه أعادتهم للبعث والجزاء ، ووصف نفسه بأنه (الرحمن الرحيم) الذى وسعت رحمته الخليقة بأسرها وملأت الوجود كله ، ووصف نفسه بأنه (الملك) وهو الذى له الملك التام المطلق ، له صفات الملك التى هى نعوت العظمة والكبرياء والعز والسلطان . وله التصرف المطلق فى جميع الممالك الذى لا ينازعه فيه منازع ، والموجودات كلها عبيده وملاكه ليس لهم من الأمر شيء .

وأخبر أنه (القدوس السلام) أى المقدس المعظم السالم من جميع العيوب والنقائص المنافية لسكّاله (المؤمن) المصدق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به من الآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات . الذى له العلم كله ويعلم من أوصافه المقدسة ونعوته العظيمة ما لا يعلمه بشر ولا ملك ويحب نفسه وما هو عليه من الجلال والجمال (العزيز) الذى له العزة كلها ، عزة القوة والقدرة ، فهو القوى المتين ، وعزة القهر والغلبة لكل مخلوق ، فكلمهم نواصيهم بيده وليس لهم من الأمر شيء ، وعزة الامتناع الذى تمنع بعزته عن كل مخلوق فلا يعارض ولا يمانع ، وليس له نديد ولا ضد يد (الجبار) الذى قهر جميع المخلوقات ودانت له الموجودات واعتلت على الكائنات وجبر بلفظه وإحسانه القلوب المنكسرات (المتكبر) عن النقائص والعيوب ، وعن مشابهة أحد من خلقه ومماثلتهم لعظمته وكبريائه (سبحان الله عما يشركون) وهذا تنزيه تام عن كل ما وصفه به من أشرك به ولم يقدره حق قدره (هو الله الخالق) لجميع المخلوقات (البارئ) بحكمته ولطفه لجميع البريات المصور بحسن خلقه لجميع الموجودات ، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كل مخلوق وكل عضو لما خلق له وهب له .

فإنه تعالى قد تفرد بهذه الأوصاف المتعلقة بخلقه لم يشاركه في ذلك مشارك ، وهذا من براهين توحيده ، وأن من تفرد بالخلق والبرء والتصوير فهو المستحق للعبودية ونهاية الحب وغاية الخضوع (له الأسماء الحسنى) وقد ورد في الحديث الصحيح أن لله تسعة وتسعين اسماً ؛ مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة - يعنى أحصى ألقاها وحفظها وعقلها وتعبد لله بها - فهو تعالى الذى له كل اسم حسن ؛ وكل صفة جلال وكمال ، فيستحق من عباده كل اجلال وتعظيم وحب وخضوع (يسبح له ما فى السموات والارض) يعنى من المكافئين والحيوانات والأشجار والجمادات « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليماً غفوراً » وهو العزيز الحكيم ، فى خلقه وشرعه .

٧ - بسم الله الرحمن الرحيم « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » أى قل قولاً جازماً فيه معتقداً له عارفاً بمعناه عاماً لا بمقتضاه من الايمان بالله والتعظيم والخضوع ، هو الله أحد ، أى الذى انحصرت فيه الاحدية ، وهى التفرد بكل صفة كمال الذى لا يشاركه فى ذلك مشارك ، الذى له الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال المقدسة والتصرف المطلق « الله الصمد » أى السيد الذى قد انتهى سؤدده ؛ العليم الذى قد كمل علمه ، الحليم الذى قد كمل فى حلمه وفى قدرته وفى جميع أوصاف كماله ، ولأجل هذا صمدت له المخلوقات كلها وقصدته فى كل حاجاتها وفزعته اليه الخليفة فى مهماتها وملامتها .

فالصمد هو الذى صمدت له المخلوقات لما اتصف به من جميع الكمالات ، ومن كماله أنه لم يلد ولم يولد ، لأنه الغنى المالك ؛ فاتخاذ الولد ينافى ملكه وغناه « ولم يكن له كفواً أحد » أى ليس له مكافئ ولا مثيل فى أسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى .

فهذه السورة أصل عظيم من أصول الايمان ، وقد تضمنت توحيد الاسماء والصفات ، ومن لوازم ذلك توحيد الالهية ، وأن المتفرد بالوحدانية من كل وجه ، الذى ليس له مثيل بوجه من الوجوه ، هو الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، لا إله إلا هو .

٨ - « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »

يخبر تعالى وهو أصدق القائلين ؛ أنه إله واحد ؛ أى متوحد منفرد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فليس له شريك ولا سمي له ، ولا كفو ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره ، فإذا تقرر أنه كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة ولا يشرك به أحد من خلقه لأنه الرحمن الرحيم المتصف بالرحمة العظيمة التى لا يماثلها رحمة أحد ، فقد وسعت كل شئ ، وعمت كل حى ، فبرحمته وجدت المخلوقات ، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات ، وبرحمته اندفع

عن العباد كل نعمة ، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه ، وبين لهم كلما يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم بإرسال الرسل وانزال الكتب ، فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة دقت أو جلت فمن الله ، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً ، علم أنه لا يستحق العبادة إلا المتفرد بالنعم ، الدافع للمكافأة ، وتعين على العباد أن يفردوه بالحب والوفاء والرجاء والتعظيم والتوكل وغير ذلك من أنواع الطاعات ، وإن من أظلم الظلم وأقبح القبيح وأعظم الضلال أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد ، وأن يشرك المخلوقين من تراب ، بالرب العظيم ، وأن يسوى المخلوق العاجز القاصر الناقص من كل وجه ، بالرب الخالق المدبر القوي الذي تهر كل شيء ، وخضعت له الرقاب .

ففي هذه الآية اثبات وحدانية الباري وإلهيته ، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين ، والاستدلال على ذلك بتفرد بالرحمة التي من آثارها جميع البر والاحسان في الدنيا والآخرة ، ثم ذكر الله الأدلة التفصيلية بقوله

٩ - « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون .

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات ، أي أدلة على وحدانية الباري وإلهيته وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته ، وآية على البعث والجزاء لقوم يعقلون ، أي لهم عقول يعملونها فيما خلقت له ، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل وصرفه في التفكير في الآيات ينتفع بها ويعرفها ويعقلها بعقله وفكره وتدبره ، ففي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وإحكامها واتقانها ، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وجريانها بانتظام عجيب لمصالح العباد .

وفي خلق الأرض ، وجعلها مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار ، ما يدل ذلك على انفراد الله بالخلق والتدبير وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها ، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها ، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع فيها من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم ، وفي ذلك أبلغ دليل وبرهان على كماله من كل وجه ، وأن يفرد بالعبادة لا نفراده بالخلق والتدبير والقيام بشئون عباده .

وفي اختلاف الليل والنهار ، وهو تعاقيهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر ، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط ، وفي الطول والقصر والتوسط وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح الادميين وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم والنوابت كلها ، كل ذلك بتدبير وتسخير تحير في حسنه العقول ، ويعجز عن ادراك كنهه الرجال الفحول ، وذلك يدل على قدرة مصرفها وسعة علمه وشمول حكمته ، وعموم رحمته ولطفه الشامل وعظمته وكبريائه وسلطانه العظيم ، يضطر العباد إلى

معرفة ربهم وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له .

وفي الفلك التي تجري في البحر ، وهي السفن والمراكب ونحوها مما ألهم الله عباده صنعها وأقدرهم عليها بتيسير أسبابها ، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التي هي من منافع الناس وبها تنتظم معاشهم ، فمن الذي ألهمهم صنعها وأقدرهم عليها وخلق لهم من الآلات المتنوعة ما به يعملونها ؟ أم من الذي سخر لها هذا البحر تجري فيه بأذنه وتسخره والرياح ؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية والهوائية النار والمعادن المتنوعة المهيئة على حملها وحمل ما فيها من الأموال الثقيلة جداً ؛ فهل هذه الأمور حصلت صدفة وانفاقاً ؟ أم استقل بعملها وخلق أسبابها هذا المخلوق الضعيف العاجز الذي خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وليس له قدرة على شيء ، ثم أعطاه خالقه القدرة وعلمه ما لم يكن يعلم ، أم تقول : والحق تقول . بل المسخر لذلك الرب الواحد العظيم العليم الحكيم القدير ؛ الذي لا يعجزه شيء ؛ ولا يتمتع عليه شيء ، بل الأشياء كلها قد دانت لربوبيته ، واستكانت لعظمته ، وخضعت لجبروته وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب التي بها وجدت هذه الأمور العظام ، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بعباده ، ويدعو العباد إلى أن يعبدوه وحده لا شريك له وينيبوا إليه في كل حال .

وما أنزل الله من السماء من ماء . وهو المطر النازل من السحاب ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، فأظهرت أنواع الأقوات وأصناف الأشجار والنباتات التي لا يمكن العباد أن يعيشوا بدونها .
أليس ذلك برهاناً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج ، وعلى رحمته ولطفه بعباده ، وشدة افتقار الخليفة إليه في كل أحوالهم وهو يحدوهم إلى إخلاص الدين له والانابة إليه والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً .

وكذلك هو دليل على إحياء الله للموتى كما قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحيها لمحى الموتى إنه على كل شيء قدير)
وقد ذكر الله هذا البرهان على البعث في عدة آيات ، كما ذكر ابتداء الخلق برهاناً على إعادته وكما ذكر كمال علمه وقدرته ، وخلق السموات والأرض ، وأنه جعل للعباد من الشجر الأخضر ناراً برهاناً بيناً على البعث .

وتوله (وبث فيها من كل دابة) أي نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة وسخرها للآدميين ينتفعون بها من وجوه كثيرة ، ومع هذا فهو قائم بأرزاقها ، متكفل بأقواتها ، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها .

وفى تصرف الرياح آيات عظيمة على وحدانية الله وتفرد به بالكمال المطلق ، فتارة تكون باردة وحارة وبين ذلك ، وجنوبا وشمالا وشرقا ودورا وبين ذلك ، وتارة تثير السحاب ، وتارة تؤلف بينه ، وتارة تلقحه وتدره ، وتارة تمزقه وتزيل ضرره ، وتارة ترسل بالرحمة وتارة ترسل بالعذاب فمن الذى صرفها هذا التصريف ورتب عليها من المنافع للعباد شيئا كثيرا إلا العزيز الحكيم الرحيم اللطيف بعباده المستحق للمحبة والثناء والشكر والحمد من الخليقة .

وفى تسخير السحاب بين السماء والارض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير فيسوقه الله الى حيث يشاء ويجعله حياة للبلاذ والعباد ، ويروى به التلول والوهاد ، وينزله على الخلق وقت حاجتهم اليه ، ويصرف عنهم ضرره فينزله رحمة ولطفا ، ويصرفه عناية وعظما .

فما أعظم سلطانه وأغزر احسانه وألطف امتنانه ، أليس من أقبح القبيح وأظلم الظلم أن يتمتع العباد برزقه ويعيشوا ببره ، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه ، ومع ذلك من كمال حلمه وعفوه وصفحه يوالى عليهم الاحسان؟ خيره اليهم على الدوام نازل ، وشرهم اليه فى كل وقت صاعد والحاصل أنه كلما تدبر العاقل فى هذه المخلوقات وتغلغل فكره فى بدائع الكائنات علم أنها خلقت للحق وبالحق ، وأنها صحائف آيات ، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر ، وأنها مدبرات مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها ، فتعرف ان العالم العلوى والسفلى كلهم اليه مفتقرون ، واليه صامدون وأنه الغنى بالذات عن جميع المخلوقات فلا إله الا هو ولا رب سواه .

ولنتقصر على هذا النموذج من الآيات المتعلقة بالتوحيد مع ما دخل فى ضمنها من الايمان بالجزاء والبعث وبالرسل والكتب ، وقد قرن الله ذلك بأدلتة وبراهينه الموصلة الى العلم التام ، واليقين الراشح ، وبذلك يعلم أن هذه الاصول الثلاثة متلازمة: التوحيد والرسالة والمعاد ، كما أن فى ضمن الآيات المتعلقة بالجزاء شئ كثير من متعلقات التوحيد والرسالة ، فسبحان من جعل فى كلامه الهدى والرشاد ، واصلاح العباد .

فصل

١٠ - (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) .

هذه المنة التى امنن الله بها على عباده المؤمنين أكبر المنن بل هى أصلها ، وهى الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذى جمع الله به جميع المحاسن الموجودة فى الرسل ، ومن كماله العظيم هذه الآثار التى جعلها الله نتيجة رسالته التى بها كمال المؤمنين علما وعلا وأخلاقا وآدابا ، وبها

زال عنهم كل شر وضرر فبعثه الله من أنفسهم وأنفسهم وقبيلتهم ، يعرفون نسبه أشرف الانساب وصدقه وأمانته وكماله الذى فاق به الاولين والآخرين ، ناصحاً لهم مشقفاً حريصاً على هدايتهم (يتلو عليهم آياته) فيعلمهم ألقاظها ويشرح لهم معانيها (ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك والمعاصى والردائل وسائر الخصال الذميمة ، ويزكيهم أيضاً أى ينميهم فيحثهم على الأخلاق الجميلة ، فان التزكية تتضمن هذين الأمرين: التطهير من المساوىء والتنمية بالمحسن (ويعلمهم الكتاب) وهو القرآن (والحكمة) وهى السنة .

فالكتاب والسنة بهما أكمل الله للرسول وأمته الدين وبهما حصل العلم بأصول الدين وفروعه، وبهما حصلت جميع العلوم النافعة وما يترتب عليها من الخيرات ، وزوال الشرور ، وبهما حصل العلم اليقيني بجميع الحقائق النافعة وبهما الهداية والصلاح للبشر .

فحمد صلى الله عليه وسلم هو الامام الأعظم المعلم لهذين الأمرين الذين ينابيع العلوم كلها تنفجر من معينهما ، فعلم صلى الله عليه وسلم أمته الكتاب والحكمة وأوتفهم على حكم الاحكام وأسرارها فكانت حياته كلها أقواله وأفعاله وتقريراته وهديه وأخلاقه الظاهرة والباطنة وسيرته الكاملة المتنوعة فى كل فن من الفنون تعليماً منه للمؤمنين ، وشرحاً للكتاب والحكمة فجمع لهم بين تعليم الاحكام الاصولية والفروعية ، وما به تدرك وتنال ، والطرق التى تقضى اليها عقلا وقللاً وتفكيراً وتديراً واستخراجاً للعلوم الكونية من مظانها وينابيعها ، وبين لهم فوائد ذلك كله وثمراته وشرح لهم الصراط المستقيم : اعتقاداته وأخلاقه وأعماله ، وما لسالكه عند الله من الخير العاجل والآجل وما على المنحرف عنه من العقاب والضرر العاجل والآجل .

فكان خيار المؤمنين بهذا التعليم الصادر من النبى الكريم مباشرة وتبليغاً من العلماء الربانيين الراسخين فى العلم ، ومن الهداة المهديين ومن أكابر الصديقين ، وحصل لسائر المؤمنين من هذا التعليم نصيب وافر من الخير العظيم على حسب طبقاتهم ومنازلهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فخرجوا بهذا التعليم من جميع الضلالات ، وانجالت عنهم الشرور المتنوعة والجهالات ، وتم لهم النور الكامل وانقشعت عنهم الظلمات فيا لها من نعمة لا يقادر قدرها ولا يحصى المؤمنون كنه شكرها .

١١ - وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الاولين اكتبناها فى تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذى يعلم السرفى السموات والارض إنه كان غفوراً رحيماً .

ذكر الله تعالى فى هذا قدح المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وادلائهم بهذه الشبه التى

يعلمون ويعلم الناس بطلانها ، فزعموا أنه افترى هذا القرآن وأنه ساعده على ذلك قوم آخرون ، فرد الله عليهم هذه المقالة المنتهية في القبح بأن هذا ظلم عظيم وجراءة يعجب السامع كيف سولت لهم أنفسهم هذا القول الهراء ، وأنه من الزور والظلم ، فانه قد كانوا يعرفون بلا شك صدقه وأمانته التي لا يلحقه فيها أحد ، وأنه لم يجتمع بأحد من أهل العلم ولا رحل في طلبه ، وقد نشأ بين أمة أمية في غاية الجهل والضلال ، وقد جاءهم بهذا الكتاب العظيم الذي لم يطرق العالم أعظم منه ، ولا أعلى معاني وأغزر علما ، ولا أبلغ من ألفاظه ومعانيه ، وأتم من حكمه وحكمه ومبانيه . وقد تحدى أقصاهم وأدناهم ، وأفرادهم وجماعتهم ، وأولهم وآخرهم أن يأتي بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله ، وصرح لهم أنهم إن أتوا بشيء من مثله فهم صادقون ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة في الكلام ، فعجزوا غاية العجز عن معارضته والاتباع بمثله ، واتضح لهم ولغيرهم عيهم وعجزهم ، وتبين بطلان دعواهم .

وكل من حاول أن يأتي بكلام يعارض به ما جاء به الرسول صار كلامه ضحكة للصبيان فضلا عن أهل النظر والعقول ، وكل شبهة يدلون بها في معارضة الرسول من حين يوجه لها النظر الصحيح تضحل وتزهق « إن الباطل كان زهوقا » ومن جرائتهم أنهم قالوا إن هذا القرآن الذي جاء به محمد أساطير الأولين اكتبها من كتب الأولين المسطورة ، فهي تملئ عليه بكرة وأصيلا فيا ويحكم من الذي عندهم في بطن مكة يعلمها ، وهل يوجد في ذلك الوقت في مكة أو ماحولها كتب تملئ ؟ ولو فرض وقدر أنه يوجد أحد لم يختص محمد وحده بالأخذ عنه ؟

ولما كانت هذه مقالة زور وافتراء لا يخفى كذبها على أحد تشبثوا وقالوا : كان محمد يجلس الى قين حداد في مكة فارسي فيتعلم منه ، فلماذا قال الله عنهم (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) بالغ في البيان والبلاغة نهايتها وغايتها ، فلا يمكن الجمع بين النقيضين أن يتعلمه من هذا الالبكم أعجمي اللسان الذي لم يعرف عنه علم يرجع اليه ، ولا معرفة يتميز بها ، وهذا القرآن الذي جاء به مع كل بلاغته حوى علوم الأولين والآخرين

ولما كان هذا القول الذي قالوه ، والمكابرة التي تجرؤوا عليها قد علم الموافق والمخالف كذبها وافتراءها ، وكان جميع أعداء الرسول لهم ورثة يقومون بالعداوة للرسول والدين ويعطونها حقها ، ولو جلبت عليهم ما جلبت من الدخول في الكذب والافتراء والمكابرة ، وقد عرف هؤلاء الأعداء المتأخرون مكابرة إخوانهم الذين باشروا تكذيب الرسول ورأوا أن مقالاتهم قد بطلت واضمحلت وبأن زورها لكل أحد ، صاغها هؤلاء المكذبون بعبارة موهوها وظنوا أنها بهذا التويه تروج ، فزعموا ، وما أسمعجه وأكذبه من زعم ، أن محمداً كان يتعلم من نفسه ، وأنه كان يخلو بالطبيعة : السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم فيعطيا له ، ويناجيها

بقلبه فيخيل اليه أصناف التخاييل فيأتى بها الى الناس زاعماً أنها من وحى الله على يد جبريل وأن هذه التخيلات من الأمور العالية التي يعتاد الاتيان بها أهل الرأى والحجى . ولما رأوا آثارها الجليلة فى الاسلام وأهله وتعاليمه وتقويمه للأمم وبهرهم هذا النور العظيم لجأوا الى هذا التحذلق الذى منتهاه وغايته أنهم صوروا النبي صلى الله عليه وسلم ورفقه الى رجل من الطبيعيين كما قال هذا القول الباطل أحد ملاحدة الافرنسيين وتلقاها عنه بعض الملاحدة العصريين وهو مبني على انكار وجود رب العالمين وأنه ماثم الا عمل الطبيعة وقد علم الناس أن هذا القول المزور أعظم مكاره ومباهته من قول الأولين وأن هذا الافتراء الذى ولدوه بعد مئات السنين أوضح ضلالاً وظلماً وجراًة ووقاحة من زور الأولين وأن هؤلاء الاراذل الذين أعجبوا بأرائهم وتاهوا بعقولهم قد بين الله كذبهم فيما قالوه وأن عقولاً ولدت هذه الأقوال المؤتسكة والخيالات الفاسدة والمقالات الفاسدة لعقول سافلة وآراء ساقطة يعرف فسادها بنتائجها ومكائدها وانكارها أجلى الحقائق ولهذا قال تعالى (قل أنزل الذى يعلم السر فى السموات والأرض) فالرب القادر العظيم الذى أحاط علمه بجميع الاسرار وعلم أحوال العباد حاضرها ومستقبلها فأنزله لهدايتهم وجعله مناراً وعلماً يهتدى به المهتدون فى كل وقت وحين .

فجميع الحقائق التي دعا اليها هذا الرسول وهذا القرآن حقائق ثابتة نافعة للعباد لا يأتى من الحقائق ما يغيرها ، ومحال أن يأتى شئ أصلح منها أو مثلاً أو يقاربها (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) ومن كمال علمه وقدرته أنه لو تقول عليه أحد بمثل هذه المقالة لمجاهله بالعقوبة فلما أيد من جاء بها بنصره وحججه، وأرى العباد آياته فى الآفاق وفى أنفسهم التي يتبين بها أنه الحق وما سواه ضلال علم بذلك أن هذا الرسول أصدق الخلق وأنصحهم وأبرهم وأعلمهم وأخشاهم وأتقاهم لربه وأن أعداءه المكذبين له أكذب الخلق وأغشهم وأعظمهم جهلاً وضلالاً وغياً وفساداً فى كل زمان ومكان .

ومن مكاره أعداء الرسول أنهم جعلوا يتناقضون فى مقالاتهم ويتقنون فى إفكهم المكشوف كذبه فنهى من قال إنه مجنون ومنهم من قال ساحر وكاهن ومنهم من قال مسحور ومنهم من قال لو كان صادقاً لجات الملائكة تؤيده ولو كان صادقاً لاغناه الله عن المشى فى الأسواق وجعل له جنات وأنهاراً وأموالاً كثيرة، وكل يعلم أن هذه الأقوال مع تناقضها ليست من الشبه فضلاً عن كونها من الحجج ولهذا قال تعالى معجيباً (انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً) ومثل هذه الأقوال التي يذكرها الله عن المكذبين للرسول هي بنفسها تدل على كذبهم ومكائدهم قبل أن يعرف بطلانها من الأدلة الاخرى . واذا وزنت هذه الأقوال الجارية من الأولين رأيت نظيرها وأقبح منها جارية من الملاحدة المتأخرين ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره

الكافرون (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) فما جاء به الرسول من الهدى فى جميع أبواب العلوم النافعة والدين الحق الذى هو الصلاح المطلق أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً . وأكبر الأدلة على إبطال كل مانافضه من أقوال المؤتفكين والحمد لله رب العالمين

١٢- بسم الله الرحمن الرحيم . ن . والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ، فستبصر ويبصرون بأبيكم المفتون ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

يقسم تعالى بالقلم وهو اسم جنس شامل للأقلام التى تكتب بها أنواع العلوم ، ويسطرها المنشور والمنظوم ، وذلك أن القلم وما يسطر به من أنواع الكلام من آياته العظيمة التى تستحق أن يقسم بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبته إليه أعداؤه من الجنون ، فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه وإحسانه . إذ من عليه بالعقل الكامل والرأى السديد والكلام الفصل الذى هو من أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام ، وهذا هو السعادة فى الدنيا ثم ذكر سعادته فى الآخرة فقال (وإن لك لأجراً غير ممنون) أى لأجراً عظيماً كما يفيدته التثنية كبر غير مقطوع ، بل هو دائم متتابع مستمر ، وذلك لما أسلفه ﷺ من المقامات العالية فى الدين والأخلاق الرفيعة ، ولهذا قال (وإنك لعلى خلق عظيم) فعلا صلى الله عليه وسلم بخلق العظيم على جميع الخلق وفاق الأولين والآخرين . وكان خلقه العظيم كما فسرته به عائشة رضى الله عنها هذا القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ، فبما رحمة من الله لنت لهم » الآية .

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه صلى الله عليه وسلم بكارم الأخلاق ، والآيات التى فيها الحث على كل خلق جميل فكان أول الخلق أمثالاً لها وسبقاً إليها وإلى تكميلها ، فكان له منها الكلمة وأجلها وأعلاها ، وهو فى كل خصلة منها فى الذروة العليا . فكان سهلاً لنا قريباً من الناس مجيباً لدعوة من دعاه ، قاضياً لحاجة من استقصاه ، جابراً لقلب من سأله لا يحرمه ولا يرده خائباً ، وإذا أراد أصحابه أمراً وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فى ذلك محذور ، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم ، بل يشاورهم ويؤامرهم ، وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئتهم ، ولم يكن يعاشر جليماً إلا أتم عشرة وأحسنها ، فكان لا يعبس فى وجهه ولا يغلظ له فى كلامه ولا يطوى عنه بشره ولا يمسك عليه فلتات لسانه ، ولا يؤاخذ به بما يصدر منه من جفوة ، بل يحسن إليه غاية الاحسان ويحتمله غاية الاحتمال ، صلى الله عليه وسلم .

فلما أنزله الله بأعلى المنازل وكان أعداؤه يقولون إنه مجنون مفتون قال «فستبصروا وبصرون بأبيكم المفتون» وقد تبين أنه كان أهدى الناس وأكملهم وأنعمهم لنفسه ولغيره ، وأن أعداءه أضل الناس للناس وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله وأضلوه عن سبيله ، وكفى بعلم الله بذلك ، فانه المحاسب المجازي ، وهو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

وفيه تهديد للمضالين ووعد للمهتدين وبيان لحكمة الله في هدايته من يصلح للهداية دون غيره

فصل

١٣- ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، إلى آخر السورة الكريمة .

من أهم أصول الايمان: الايمان باليوم الآخر ، وهو الايمان بكل ما أخبر الله به ورسوله بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه وعذابه ، وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه ، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهلها .

فالايمان باليوم الآخر هو الايمان بذلك كله جملة وتفصيلا ؛ أما أحوال القبر وفتنته وعذابه ونعيمه وتفاصيل ذلك ، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة والحسنة عن رسول الله ﷺ كما هو معروف ، والقرآن أشار إليه في عدة آيات ، وأما ما يكون بعد ذلك ، فاذا أراد الملك القادر بعث العباد وحشرهم وجزأهم (نفخ في الصور) وهو قرن عظيم لا يعلم عظمه إلا الذي خلقه ، كما ورد في حديث الصور المشهور ، أو نفخ في الصور على وجه لا يعلم كنهه إلا الله نفخة الصعق والفرع . انزعج لهذا أهل السموات والأرض وصعقوا إلا من شاء الله من خلقه (ثم نفخ فيه أخرى) نفخة البعث (فاذا هم قيام) من أجسادهم كاملة الخلقة ينظرون ما يستقبلهم من هذه الحياة الآخروية التي يجازي فيها العباد بأعمالهم ، حسناتها وسيئها .

أما المؤمنون الطائعون فيقومون مطمئنين طامعين في فضل ربهم ورحمته مستبشرين بشوابه وعفوه ومغفرته ، يحشرون إلى موقف القيامة وفدأ مكرمين . وأما المجرمون فيقومون فزعين خائفين متحسرين يدعون بالويل والثبور ، يقولون : يا ويلنا ، من بعثنا من مرقدنا ؟ فيساقون إلى جهنم وردا .

خيفة تكثر القلاقل والاهوال ويشيب الولدان من هول ذلك اليوم وفظاعته (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة

ترهقها فترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة - يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً) وتكور الشمس والقمر وتنتثر النجوم فتذهب هذه الأنوار المشاهدة ، وتشرق الأرض بنور ربها ، وينزل الله لفصل القضاء بين عباده ، ومحاسبتهم على أعمالهم : أما المؤمنون فيحاسبهم حساباً يسيراً يقررهم بذنوبهم ثم يغفرها ويسترها عن الخلائق ، ويضاعف لهم الحسنات ، ويعطيهم من فضله وإحسانه ما لا تبلغه أعمالهم ، ويعطون كتبهم بأيامهم اكراماً واحتراماً ، كما تبيض وجوههم ، وتثقل موازينهم ؛ ويفتبطون بذلك ويستبشرون به فيقولون لآخوانهم ومعارفهم ومحبيهم : هاؤم اقرءوا كتابيه - إني ظننت - أي أيقنت - أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية - الآيات . ويساقون إلى الجنة زمراً كل طائفة منهم مع نظرائهم في الخير بحسب طبقاتهم وسبقهم كما يردون في عرصات القيامة حوض نعيم فيشربون منه شربة هنيئة لا يظأون بعدها ، ويمرون على الصراط على قدر أعمالهم كلعج البصر ، وكالبرق الخاطف ، وكأجاويد الخيل والابل وكسرى الرجال وكشيهم ، ودون ذلك .

فاذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم وتبعات كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها بشفاعته محمد ﷺ فتلقاهم خزنة الجنة يسلمون عليهم ، ويهنئونهم بالنجاة من العذاب وحصول الخير والثواب والخلود الأبدى بسبب طيبهم ، ولهذا قالوا : سلام عليكم طيبتم . أي طابت قلوبكم بالعقائد الصحيحة الصادقة ، والأخلاق الجميلة ، وأسنتكم بذكر الله والثناء عليه ، وجوارحكم بخدمته والقيام بطاعته (فادخلوها خالدين) فإذا دخلوها ورأوا ما فيها من النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، حمدوا الله على منته عليهم بالسوابق والإيمان والأعمال الصالحة ؛ وبأنجاز ما وعدهم به على السنة رسله ، وعلى أن الله أورثهم الجنة يتبوأون من خيراتها حيث يشاءون وأتى يشاؤون مما تشتهيهم الأنفس وتلذذ الأعين من نعيم القلوب والأرواح ، ومن نعيم الأبدان والاجسام « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق ، وكأس من معين ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » خيرات الاخلاق حسان الوجوه ، قد جمع الله لهم حسن البواطن والظواهر فهن سرور النفس وقرّة النواظر .

وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ، وأنه يقال لهم إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ؛ وإن لكم أن تصحوا فلا ترمضوا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، وإن لكم أن تحموا فلا تموتوا أبداً ، فلهم كل ما يشاءون فيها وتعلق به أمانتهم ، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانتهم ، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله وهو التمتع بالنظر إلى وجهه الكريم ، وسماع

خطابه والابتهاج برضاه وقربه ، والسرور بحبته وذكره وحمده والثناء عليه وشكره ، مما يشاهدون من كثرة الخيرات ، وسوانح النعم والهبات ، وزيادة النعم وتواصله ، ومما يزدادون من معرفته والآنس به ، فتبارك الله ذو الجلال والاكرام .

وأما الكافرون المجرمون فيحاسبهم الله على ما أسلفوه من الجرائم ويقرعهم ويخزيهم بين الخلائق ، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بمثابة لهم ، وتسود منهم الوجوه ، وتخف موازينهم ، ويساقون إلى جهنم جياغاً عطاشاً منزعين مرعوبين زمراً ، كل طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » في وجوههم فجاجهم حرها المفظع وحل بهم الفرع الأكبر الذي لا يشبهه فرع ، وتلقاهم خزنة الجحيم يوبخونهم على ما قدموه ، وقالوا لهم « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى » قد جاءتنا الرسل وبلغتنا النذر ، فما كان منا اليهم إلا الاستهزاء بهم والتكذيب ، فلو كان لنا أسمع واعية ، وعقول نافعة ما وصلنا إلى هذه الدار ، بل خالفنا المنقول والمقول « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » ما أشد شقاءهم وعناءهم ، ينوع عليهم العذاب أنواعاً ، فتارة يعذبون بالسمير المحرق لظواهرهم وبواطهم . كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ، وتارة بالزمهرير الذي قد بلغ برده أن يرى اللحوم ويكسر العظام ، وتارة بالجوع المفرط والعطش المفظع ، وإذا استغاثوا لذلك أغيثوا بعذاب آخر ، ولون من الشقاء ينسى ما سبقه ، فيماتون بطعام ذى غصة ، بشجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم وثمرها في غاية المرارة والنتن والحرارة ، إذا وصلت بطونهم غلت فيها كغلي الحميم الذي يوقد عليه في النار ، وإن يستغيثوا للشراب يغيثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، إذا قرب إليها فلا يدعهم العطش مع ذلك أن يتناولوها ، فإذا وصلت إلى بطونهم قطعت أمعاءهم ولا يزالون في عذاب متنوع شديد ، لا يفتر عنهم العذاب ساعة ، ولا يرجون رحمة ولا فرجاً ، يتمنون المات ليستريحوا ، فينادون مالكا رئيس خزنة النار : يا مالكا ليقتض علينا ربك . فيقول لهم إنكم ما كنتم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم لما أسلفتموه من الجرائم « لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » وينادون أهل الجنة مستغيثين بهم : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيقول لهم أهل الجنة : إن الله حرمها على الكافرين ، وينادون ربهم فيقولون : يا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا توماً ضالين « ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » فيجيبهم الله اخشوا فيها ولا تكلمون .

حينئذ يأسون من كل خير ومن كل فرج وراحة ويتيقنون أنه الخلود الدائم والعذاب الأبدى والشقاء المستمر . . فنسأل الله الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ به من النار وما قرب إليها من قول وعمل .

(فصل)

١٤ - « وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون »

الايان بالملائكة أحد أصول الايمان ، ولا يتم الايمان بالله وكتبه ورسله إلا بالايمان بالملائكة وقد وصفهم الله بأكل الصفات ، وأنهم في غاية القوة على عبادة الله والرغبة العظيمة فيها ، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ؛ وأنهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يرونها من أعظم نعمه عليهم ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ففي هذا بيان كمال محبتهم لربهم وقوة انابتهم اليه ونشاطهم التام في طاعته ، وأنهم لا يعصونه طرفة عين ، وهم الوسائط بينه وبين رسله ، وخصوصاً جبريل أفضاهم وأعظمهم وأقوامهم وأرفعهم عند الله منزلة ؛ فانه ذو قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما هو على الغيب بضنين وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين) وكما أنهم الوسائط بينه وبين عبادته في تبليغ الوحي والشرائع إلى الأنبياء ، فهم الوسائط في التدبيرات القدرية ، فان الله وصفهم بأنهم المدبرات أمراً ، فكل طائفة منهم قد وكاه على عمل هو قائم به باذن الله ، فمنهم الموكلون بالغيث والنبات ، والموكلون بحفظ العباد مما يضرهم ، وبحفظ أعمالهم وكتابتها ؛ والموكلون بقبض الأرواح وبتصوير الأجنة في الأرحام وكتابة ما يجري عليها في الحال والمآل ؛ والموكلون على الجنة والنار ، ومنهم حملة العرش ، ومن حوله من الملائكة المقربين ، إلى غير ذلك مما وصفوا به في الكتاب والسنة .

فيجب الايمان بهم اجمالاً وتفصيلاً ، وكثير من سور القرآن فيها ذكر الملائكة والخبر عنهم فعلياً أن تؤمن بذلك كله ، ولا تكاد تجد أحداً ينكر وجود الملائكة إلا الزنادقة المشركين لوجود ربهم ، ومن تستر بالاسلام منهم فانه ينكر الملائكة حقيقة ، وينكر خبر الله ورسوله عنهم ، ويفسر الملائكة تفسيراً ونحريفاً خبيثاً فيزعم أن الملائكة هي القوى الخيرية والصفات الحسنة الموجودة في الانسان ، وأن الشياطين هي القوى الشريرة فيه ، وغرضهم من هذا التحريف دفع الشبهة عنهم ، وقد ازدادوا بهذا التحريف شراً إلى شرهم ، وراج هذا التحريف الخبيث على بعض الذين يحسنون الظن بهؤلاء الزنادقة ، وليس عندهم بصيرة في أديان الرسل ، وإن أظهروا تعظيمهم ، فان زنادقة الفلاسفة أعظم في قلوبهم من الرسل ، وكفى بالعبد ضلالاً وغياً أن يصل إلى هذه الحال ، ونعوذ بالله من مضلات الفتن .

ولم تزل بهم هذه الجراءة والخضوع لأقوال جهلة الزنادقة حتى فسروا الملائكة بذلك التحريف وحتى زعم بعضهم أن سجود الملائكة لآدم ليس حقيقة ، وإنما ذلك تسخير الله للآدميين جميع ما في الأرض من القوى والمعادن وغيرها ، فأنكر ما هو معلوم بالضرورة بنحبر الله الصريح في كتابه وخبر رسوله ، وقال هذه المقالة التي فيها مع تكذيب الله ورسوله تسوية كفار الآدميين وفجرتهم وأولهم وآخرهم بآدم ، ومضمون ذلك بل صريح قولهم إن الملائكة سجدت لجميع الآدميين برّهم وفاجرهم ، فأين قول الناس في موقف القيامة : يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته .

ولولا أن مثل هذه التحريفات والتكذيب لله ورسوله موجود في كتب من يشار إليهم بالعلم لم يكن بنا حاجة إلى دفع هذا القول الجريء الذي يعلم كل مسلم لم تغيره العقائد الباطلة بطلانه ، ولنتقصر على هذا المقدار من الإشارة إلى العقائد المتعلقة بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر والجزاء وإن كان القرآن معظمه في تقرير هذه الأصول العظيمة لشدة الحاجة والضرورة إليها في كل وقت وحال ، ولكن حصل لله الحمد التنبيه الذي يحصل به المقصود ويعين على غيره والله أعلم

فصل

(في ذكر الفوائد والثمرات المترتبة على التحقق بهذه العقائد الجليلة)

اعلم أن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح ، وبه يحيى العبد حياة طيبة في الدارين وبه ينجو من المكروه والشرور ، وبه تخف الشدائد وتدرك جميع المطالب ، ولذا شرع إلى هذه الثمرات على وجه التفصيل ، فان معرفة فوائد الإيمان وثمراته من أكبر الدواعي إلى التزود منه .

فمن ثمرات الإيمان أنه سبب رضا الله الذي هو أكبر شيء ، فما نال أحد رضا الله في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان وثمراته ، بل صرح الله به في كتابه في مواضع كثيرة ، وإذا رضى الله عن العبد قبل السير من عمله وتمناه ، وغفر الكثير من ذلله ومجناه .

ومنها : أن ثواب الآخرة ودخول الجنة والتعظيم بنعيمها والنجاة من النار وعقابها ، إنما يكون بالإيمان ، فأهل الإيمان هم أهل الثواب المطلق ، وهم الناجون من جميع الشرور .

ومنها : أن الله يدفع ويدافع عن الذين آمنوا شرور الدنيا والآخرة ، فيدفع عنهم كيد شياطين الإنس والجن ، ولهذا قال تعالى « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » ولما ذكر إنجاء ذا النون قال (وكذلك ننجي المؤمنين) أي من الشدائد والمكروه إذا وقعوا فيها والإيمان بنفسه وطبيعته يدفع الأقدام على المعاصي ، وإذا وقعت من العبد دفع عقوباتها بالمبادرة

إلى التوبة كما قال ﷺ : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . إلى آخر الحديث . فبين أن الإيمان يدفع وقوع الفواحش ؛ وقال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)

ومنها : أن الله وعد المؤمنين القائمين بالإيمان حقيقة بالنصر وأحقه على نفسه ، فمن قام بالإيمان ولو أزمه وامتدته فله النصر في الدنيا والآخرة ؛ وإنما ينتصر أعداء المؤمنين عليهم إذا ضيعوا الإيمان وضيعوا حقوقه وواجباته المتنوعة

ومنها : أن الهداية من الله للعلم والعمل والمعرفة الحق وسلوكه ، هي بحسب الإيمان والقيام بحقوقه ، قال تعالى (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) ومعلوم أن اتباع رضوان الله الذي هو حقيقة الاخلاص ، هو روح الإيمان وساقه الذي يقوم عليه ، وقال تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) فلهذه الهداية عمالية ، هداية توفيق وإعانة على القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب إذا علم أنها من عند الله فرضى وسلم وانقاد .

ومنها : أن الإيمان يدعو إلى الزيادة من علومه وأعماله الظاهرة والباطنة ؛ فالؤمن بحسب إيمانه لا يزال يطلب الزيادة من العلوم النافعة ومن الأعمال النافعة ظاهراً وباطناً ، وبحسب قوة إيمانه يزيد إيمانه ورغبته وعمله ؛ كما قال تعالى « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » الآية . « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون »

ومنها : أن المؤمنين بالله وبكلمه وعظمته وكبريائه ومجده ، أعظم الناس يقيناً وطمأنينة وتوكلاً على الله وثقة بوعده الصادق ورجاء لرحمته وخوفاً من عقابه ، وأعظمهم اجلالاً لله ومراقبة ، وأعظمهم اخلاصاً وصدقا ، وهذا هو صلاح القلوب ، لا سبيل إليه إلا بالإيمان .

ومنها : أنه لا يمكن العبد أن يقوم بالاخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلا بالإيمان ، فإن المؤمن تحمله عبودية الله وطلب التقرب إلى الله ورجاء ثوابه والخشية من عقابه على القيام بالواجبات التي لله والتي لعباد الله .

ومنها : أن المعاملات بين الخلق لا تتم وتقوم إلا على الصدق والنصح وعدم الفش بوجه من الوجوه ، وهل يقوم بها على الحقيقة إلا المؤمنون ؟

ومنها : أن الإيمان أكبر عون على تحمل المشقات والقيام بأعباء الطاعات وترك الفواحش التي في النفوس داع قوى إلى فعلها ، فلا تتم هذه الأمور إلا بقوة الإيمان

ومنها : أن العبد لا بد أن يصاب بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ؛ وهو بين أمرين : إما أن يجزع ويضعف صبره فيفوته الخير والثواب ويستحق على ذلك

العقاب ، ومصيبته لم تقلع ولم تخف ، بل الجزع يزيدھا ، وإما أن يصبر فيحظى بشواہا ، والصبر لا يقوم إلا على الإيمان ، وأما الصبر الذى لا يقوم على الإيمان كالتجلد ونحوه ، فما أقل فائدته ، وما أسرع ما يمقبه الجزع ، فالمؤمنون أعظم الناس صبراً وبقيناً وثباتاً فى مواضع الشدة

ومنها : أن الإيمان يوجب للعبد قوة التوكل على الله لعلمه وإيمانه أن الأمور كلها راجعة إلى الله ومنسدرجة فى قضائه وقدره ، وأن من اعتمد عليه كفاه ، ومن توكل على الله فقد توكل على القوى العزيز القهار ، ومع أنه يوجب قوة التوكل ، فانه يوجب السعى والجهد فى كل سبب نافع لأن الأسباب النافعة نوعان : دينية ودنيوية .

فالسبب الدينية : هى إيمان ، وهى من لوازم الإيمان .

والأسباب الدنيوية قسمان : سبب معين على الدين ويحتاج اليه الدين ، فهو أيضاً من الدين ، كالسعى فى القوة المعنوية والمادية التى فيها قوة المؤمنين .

وسبب لم يوضع فى الأصل معيناً على الدين ، ولكن المؤمن لقوة إيمانه ورغبته فيما عند الله من الخير يسلك إلى ربه وينفذ اليه مع كل سبب وطريق ، فيستخرج من المباحات بنيتة وصدق معرفته ولطف علمه باباً يكون به معيناً على الخير مجماً للنفس مساعداً لها على القيام بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة ، فيكون هذا المباح حسناً فى حقه ، عبادة لله لما صحبه من النية الصادقة حتى أن بعض المؤمنين الصادقين فى إيمانهم ومعرفتهم ربما نوى فى نومه وراحاته ولذاته التقوى على الخير وتربية البدن لفعل العبادات وتقويته على الخير ، وكذلك فى أدويته وعلاجاته التى يحتاجها ، وربما نوى فى اشتغاله فى المباحات أو بعضها الاشتغال عن الشرور بما نوى بذلك جذب من خالطه وعاشره بمثل هذه الأمور على فعل خير أو انكفاف عن شر ، وربما نوى بمعاشرته الحسنة ادخال السرور والانبساط على قلوب المؤمنين ، ولا ريب أن ذلك كله من الإيمان ولوازمه ولما كان الإيمان بهذا الوصف ، قال تعالى فى عدة آيات من كتابه « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »

ومنها : أن الإيمان يشجع العبد ويزيد الشجاع شجاعة ، فانه لاعتماده على الله العزيز الحكيم ولقوة رجائه وطموحه فيما عنده تهون عليه المشقات ، ويتقدم على المخاوف واثقاً بربه راجياً له رهاها من نزوله من عينه لخوفه من المخلوقين ، ومن الأسباب لقوة الشجاعة أن المؤمن يعرف ربه حقاً ويعرف الخلق حقاً ، فيعرف أن الله هو النافع الضار المعطى المانع ، الذى لا يأتى بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ، وأنه الغنى من جميع الوجوه . وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وألطف به من كل أحد ، وأن الخلق بخلاف ذلك كله ، ولا ريب أن هذا داع قوى عظيم يدعو إلى قوة الشجاعة وقصر خوف العبد ورجائه على ربه ، وأن ينتزع من قلبه خوف الخلق ورجاءهم وهيبتهم

ومنها أن الإيمان هو السبب الأعظم لتعلق القلب بالله في جميع مطالبه الدينية والدنيوية ،
والإيمان القوى يدعو إلى هذا المطلب الذي هو أعلى الأمور على الإطلاق ، وهو غاية سعادة العبد ،
وفي مقابلة هذا يدعو إلى التحرر من رق القلب للمخلوقين ، ومن التعلق بهم ، ومن تعلق بالخالق ،
دون المخلوق في كل أحواله حصلت له الحياة الطيبة ، والراحة الحاضرة ، والتوحيد الكامل ،
كما أن من عكس القضية نقص إيمانه وتوحيده ، وانفتحت عليه الهوموم والغوموم والحسرات .
ولا ريب أن هذين الأمرين تبع لقوة الإيمان وضعفه ، وصدقته وكذبه ، وتحققه حقيقة أو
دعواه والقلب خال منه .

ومنها أن الإيمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس كما قال النبي صلى الله عليه
وسلم « أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » وجماع حسن الخلق أن يتحمل العبد الأذى منهم
ويبذل إليهم ما استطاع من المعروف القولي والبدني والمالي ، وأن يخالفهم بحسب أحوالهم بما
يجبون إذا لم يكن في ذلك محذور شرعي ، وأن يدفع السيئة بالتي هي أحسن ، ولا يقوم بهذا الأمر
إلا المؤمنون الكمل قال تعالى (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وإذا
ضعف الإيمان أو نقص أو انحرف ، أثر ذلك في أخلاق العبد انحرافاً بحسب بعده عن الإيمان .

ومنها أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار بالكلية كما منع صاحبه في الدنيا من عمل
المعاصي ، ومن الإصرار على ما وقع منه منها ، والإيمان الناقص يمنع الخلود في النار وإن دخلها
كما تواترت بذلك النصوص بأنه يخرج من النار من كان معه مثقال حبة خردل من إيمان .

ومنها أن الإيمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبراً عند الخلق أميناً ، ويوجب للعبد العفة
عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، وفي الحديث « المؤمن من أمنه الناس على دماءهم وأموالهم »
وأى شرف دنيوى أبلغ من هذا الشرف الذى يبلغ بصاحبه أن يكون من الطبقة العالية من الناس
لقوة إيمانه وتعام أمانته ، ويكون محل الثقة عندهم وإليه المرجع في أمورهم ، وهذا من ثمرات
الإيمان الجائلة الحاضرة .

ومنها أن قوى الإيمان يجد في قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واستحلاء آثاره ، والتلذذ
بمخدمة ربه وأداء حقوقه وحقوق عباده التي هي موجب الإيمان وأثره ما يبرى بلذات الدنيا كلها
بأسرها ، فانه مسرور وقت قيامه بواجبات الإيمان ومستحباته ، ومسرور بما يرجوه ويؤمله من
ربه من ثوابه وجزائه العاجل والآجل ، ومسرور بأنه ربح وتته الذى هو زهرة عمره وأصل
مكسبه ، ومحشو قلبه أيضاً من لذة معرفته بربه ومعرفته بكلامه وكمال بره ، وسعة جوده وإحسانه
ولذة محبته والاناة إليه الناشئة عن معرفته بأوصافه ، وعن مشاهدة إحسانه ومنه ، فالؤمن

يتقلب في لذات الايمان وحلاوته المتنوعة ، ولهذا كان الايمان مسلياً عن المصيبات مهوياً للطاعات ،
ومانعاً من وقوع المخالفات ، جاعلاً لإرادة العبد وهواه تبعاً لما يحبه الله ويرضاه ، كما قال النبي
صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

ومنها أن الايمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين وهو الجهاد البدني والمالي والقولي
جهاد الكفار بالسيف والسنان ، وجهاد الكفار والمناققين والمنحرفين في أصول الدين وفروعه
بالحكمة والحجة والبرهان ، فكما قوى إيمان العبد علماً ومعرفة وإرادة وعزيمة توى جهاده ، وتام
بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته ، فزال الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة ، وإذا ضعف الايمان
ترك العبد مقدوره من الجهاد القولي والعلمي والحجة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
وضعف جهاده البدني لعدم الحامل له على ذلك ، ولهذا قال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله
ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فصادق
الايمان يحمله صدقه على القيام بهذه المرتبة التي هي مرتبة الطبقتين العاليتين بعد الدينين : طبقة
الصادقين المجاهدين بالعلم والحجة والتعليم والنصيحة ، وطبقة الشهداء الذين قاتلوا في سبيل الله ثم
قتلوا أو ماتوا من دون قتل ، وهذا كله من ثمرات الايمان ومن تمامه وكماله ، وبالجملة فخير الدنيا
والآخرة كله فرع عن الايمان ومرتب عليه ، والهلاك والنتقص إنما يكون بقتل الايمان أو نقصه
والله المستعان .

فصل

في ذكر بعض الآيات الحاثية على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق

قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى
والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت
أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) . والآيات التي في سورة الاسراء (وقضى ربك
أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف
ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً) إلى قوله (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع
الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً) .

هذه الآيات الكريمة فيها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والدخول تحت رق عبوديته
التي هي غاية شرف العبد ، والاقية بأدلاؤه وأمره واجتناب نواهيه محبة له وذلاً له ، وإخلاصاً لله وإجابة له
في جميع الحالات وفي جميع العبادات الظاهرة والباطنة ، وفيها التهي عن الشرك به شيئاً سواء كان

أكبر بأن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله ، أو شركاً أصغر مثل وسائل الشرك كالحلف بغير الله والرياء ونحو ذلك مما يندرج به إلى الشرك ، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، والتدبير الكامل الشامل الذي لا يشركه ولا يمينه عليه أحد .

ثم بعدما أمر بالقيام بحق الله المقدم على كل حق ، أمر بالقيام بحقوق ذوى الحقوق من الخلق الأهم فالأهم فقال (وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا) أى أحسنوا إليهم بالقول الكريم ، وبالخطاب اللطيف ، وبالفعل بالقيام بطاعتهم ، واجتناب معصيتهم والحذر من عتوقها والافتاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من جهةٍهما (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما تولاك كريمة) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) والأمر بالاحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ماعده الناس إحساناً ، وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص ، وفيه النهي عن ضد الاحسان إليهما وهو أمران : الاساءة والعقوق الذى هو إيصال الأذى القولى والفعلى إليهما ، وترك القيام ببعض حقوقهما الواجبة ، والأمر الثانى ترك الاحسان وترك الاساءة ، فان ذلك داخل فى العقوق ، فلا يسع الولد أن يقول إذا قت بواجب والدى وتركت معصيتهما فقد قت بحقهما ، فيقال بل عليك أن تبذل لهما من الاحسان الذى تقدر عليه ما يجعلك فى مرتبة الأبرار البارين بوالديهم ، وقوله (كما ربياني صغيراً) بيان لبعض الاسباب الموجبة للبر ، وأن الوالدين اشتركا فى تربية بدنك وروحك بالتغذية والكسوة والحضانة والقيام بكل المؤن والتلميم والارشاد والالزام بطاعة الله والآداب والأخلاق الجميلة ، وفى هذا دليل على أن كل من له عليك حق تربية بقيام بمؤنة نفقة وكسوة وغيرها أن له حقاً عليك بالاحسان والبر والدعاء وأعلى من ذلك من له حق عليك بتربية عقلك وروحك تربية علمية تهذيبية أن له الحق الأكبر عليك ، وهذا من جملة فضائل أهل العلم المعلمين العاميين ومن حقوقهم على الناس ، فانهم ربما فاتوا فى هذه التربية تربية الوالدين بأضعاف مضاعفة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقوله (وبذى القربى) أى أحسنوا إلى أقاربكم القريب منهم والبعيد بالقول والفعل ، وأوصلوا لهم من الهدايا والصدقات والبر والاحسان المتنوع ما يشرح صدورهم وتيسر به أمورهم ، وتكونوا بذلك واصلين وللأجر من الله حائزين .

واليتامى وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار ، فمن رحمة أرحم الراحمين أمر الناس برحمتهم والحنو عليهم والاحسان إليهم وكفائهم وجبر خواطرم وتأديهم ، وأن يربوهم أحسن تربية كما يربون أولادهم ، سواء كان اليتيم ذكراً أو أنثى ، قريباً أو غير قريب .

(والمساكين) وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يملكون فأمر تعالى بسد خلتهم ، ودفع فاقهم ، والخص على ذلك ، وقيام العبد بما أمكنه من ذلك من غير

ضرر عليه (والجار ذى القربى) أى الجار القريب الذى له حق الجوار وحق القرابة (والجار الجنب) الذى ليس بقريب ، فعلى العبد القيام بحق جاره مطلقاً ، مسلماً كان أو كافراً ، قريباً أو بعيداً ، بكف أذاه عنه ، وتحمل أذاه ، وبذل ما يهون عليه ويستطيعه من الاحسان ، وتمكينه من الانتفاع بجداره أو طريق ماء على وجه لا يضر الجار ، وتقديم الاحسان إليه على الاحسان على من ليس بجار ، وكلما كان الجار أقرب باباً كان أكد لحته ، فينبغى للجار أن يتعاهد جاره بالصدقة والهدية والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال قرباً إلى الله وإحساناً إلى أخيه صاحب الحق .

(والصاحب بالجنب) قيل هو الرفيق فى السفر ، وقيل هو الزوجة ، وقيل هو الرفيق مطلقاً فى الحضر والسفر ، وهذا أشمل فانه يشمل القولين الأولين ، فعلى صاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من مساعدته على أمور دينه ودنياه ، والنصح له والوفاء معه فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد .

(وابن السبيل) وهو الغريب فى غير بلده سواء كان محتاجاً أو غير محتاج ، فحث الله على الاحسان إلى الغرباء لكونهم فى مظنة الوحشة والحاجة وتعذر ما يتمكنون عليه فى أوطانهم فيتصدق على محتاجهم ويحبر خاطر غير المحتاج بالأكرام والهدية والدعوة والمعاونة على سفره (وما ملكت أيمانكم) أى من الرقيق والبهائم بالقيام بكفائتهم وأن لا يحملوا مالا يطيقون ، وأن يعاونوا على مهامهم ، وأن يقام بتقويمهم وتأديبهم النافع فمن قام بهذه المسامرات فهو الخاضع لربه المتواضع لعباد الله المتفاد لأمر الله وشرعه الذى يستحق الثواب الجزيل والثناء الجليل ، ومن لم يقم بذلك فانه عبد معرض عن ربه ، عات على الله ، متكبر على عباد الله معجب بنفسه ، فخور بأقواله على وجه الكبر والمعجب واحتقار الخلق ، وهو فى الحقيقة السافل المحتقر ، ولهذا قال (إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) فهو لاء ما بهم من الأوصاف القبيحة تحملهم على البخل بالحقوق الواجبة ويأمرون الناس بأقوالهم وأفعالهم بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله أى من العلم الذى يهتدى به الضالون ويسترشد به الجاهلون ، فيكتمونه عنهم ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق فهو لاء جمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعى فى خسارة أنفسهم ، والسعى فى خسارة غيرهم ، وهذه هى صفات الكافرين ، ولهذا قال (وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً) أى كما استهانوا بالحق وتكبروا على الخلق واستهانوا بالقيام بالحقوق ، أهانهم الله بالعذاب الأليم والخزى الدائم .

وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) أى احذر هذين الخلةين الرذيلتين: البخل بالواجبات وفى بذل المال فيما ينبغى بذله فيه ، والتبذير النفقة فيما لا ينبغى أو زيادة على ما ينبغى (فتتعد) إن فعلت ذلك (ملوماً) أى تلام على ما فعلت من الاسراف لأن كل عاقل

يعرف أن الاسراف مناف للعقل الصحيح كما أنه مناف للشرع ، فان الله جعل الأموال قايما لمصالح الخلق ، فكما أن منعها وإسائها عن وضعها فيما جعلت له مذموم ، فكذلك بذلها في الأمور الضارة أو الزيادة غير اللائقة في الأمور العادية وغيرها مذموم ، لانه إتلاف المال بغير مصلحة وانحراف في حسن التصرف والتدبير ، وضعف التدبير وعدم انتظامه مذموم في كل شيء ، كما ان حسن التدبير محمود ونافع لفاعله وانيره (محسوراً) أى فارغ اليد فلا يبقى ما في يدك من المال ، ولا خلفه مدح وثناء .

وهذا الامر بايتاء ذى القربى وغيرهم مع القدرة ، فأما مع العدم أو تعذر النفقة الحاضرة فأمر تعالى أن يردوا رداً جميلاً فقال (وأما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أى تعرض عن إعطائهم حاضراً ، ولكنك ترجو فيما بعد ذلك تيسير الامر من الله ، فقل لهم قولاً ميسوراً أى لطيفاً برفق ووعد بالجميل عند الوجود ، واعتذار بعدم الامكان في الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم ، عاذرين راجين كما قال تعالى (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) وهذا من لطف الله بالعباد ، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه ، لان انتظار ذلك عبادة ، وسبب لحصوله ، فان الله عند ظن عبده به ، وكذلك وعدم أن يعطوهم إذا وجدوا عبادة حاضرة لمن وعدوا لأن الهم بفعل الخير والحسنة خير ، ولهذا يذنبى للعباد أن يفعل ما يقدر عليه من الخير وينوى فعل ما لم يقدر عليه إذا قدر ليثاب على ذلك ، ولعل الله ييسره له . وفى قوله (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) فيه الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع بالله وصرف التعالق بالمخلوقين ، فالوقوف في حال الوجود والغنى قلبه متعلق بحمد الله وشكره والثناء عليه لا يذنبى ولا يبطل النعمة وفى حال الفقر والفقير صاير راض راج من الله فضله وخيره ورحمته ، وهذا من أجل عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب .

(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) الآية ، وذلك أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها قهى والوالدين عن هذا الخلق الذى هو من أزدل الأخلاق وأسقطها قتل أولادهم خشية من افتروا الاملاق فقيه عدة جنایات قتل النفس الذى هو من أعظم الفساد ، وأشنع من ذلك قتل الأولاد الذين هم فلذ الأكباد وسوء الظن برب العالمين ، وجهامهم وضلالهم البليغ ، إذ ظنوا أن وجودهم يضيق عليهم الأرزاق ، فتكفل لهم بقيامه برزق الجميع ، فأين هذا الخلق الشنيع من أخلاق خواص المؤمنين الذين كلما كثرت أولادهم وعوائلهم ، قوى ظنهم بالله ورجوا زيادة فضله وقاموا بمؤثنتهم مطمئنة نفوسهم ، حامدين ربهم أن جعل رزقهم على أيديهم ، ومثنين على ربهم إذ أقدرهم على ذلك ، وراجين ثواب ذلك عنده ، ومشاهدين لمنة الله عليهم بذلك ، قال ﷺ « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم ورغبتهم إلى الله .

والنهي عن قربان الزنا يشمل النهي عنه وعن جميع دواعيه ومقدماته ، كالنظر المحرم ، والخلوة بالأجنبية ، وخطاب من يخشى الفتنة بخطابه ونحو ذلك ، ووصف الزنا بأقبح الأوصاف ، بأنه فاحشة ، أى جريمة عظيمة تستفحش شرعاً وعقلاً ، لأن فيه انتهاك حرمة الشرع والنهاون به وفيه افساد المرأة وافساد الأنساب واختلاط المياه ، وفيه اضرار بأهلها وبزوجها وبكل من يتصل بها ، وفيه من المفاسد شئ كثير .

وأمر تعالى بإيفاء المكاييل والموازين والمعاملات كلها بالقسط من غير بخس ولا نقص ولا غش ولا كتمان ، وفى ضمن ذلك الأمر بالصدق والنصح فى جميع المعاملات ، فانه بذلك يصلح الدين والدنيا ولذلك قال (ذلك خير وأحسن تأويلاً) أى هو خير فى الحاضر وأحسن عاقبة فى الآجل يسلم به العبد من التبعات ، وتحل البركة فى هذه المعاملة .

وقوله (ولا تقف ما ليس لك به علم) الآية . أى ولا تتبع ما ليس لك به علم ، بل تثبت فى كل ما تقوله وتفعله ، فان التثبت فى الأمور كلها دليل على حسن الرأى وقوة العقل ، وبه تتوضح الأمور ويعرف بعد ذلك هل الاقدام خير أم الاحجام ، لأن المثبت لا بد أن يعمل فكره ويشاور فى الأمور التى عليه أن يتثبت فيها ، والفكر والمشاورة أكبر الأسباب لاصابة الصواب والسلامة من التبعة ومن الندم الصادر من العجلة ومن عدم استدراك الفارط . ولهذا قال (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) أى لا بد أن تستل عن حركة هذه الجوارح وهل هى حركات نافعة بأن وضعت فيما يقرب إلى الله ، أم ضارة بأن وجهت لمعصية الله ، فليتعاهد العبد بحفظها عن الأمور الضارة ليمد لهذا السؤال جواباً ، فمن استعملها بطاعة الله فقد زكاها ونماها وأثمرت له النعيم المقيم ، ومن استعملها فى ضد ذلك فقد دساها وأسقطها وأوصلته إلى العذاب الاليم .

وقوله (ولا تمش فى الأرض مرحاً) أى لا تتكبر على الحق ولا على الخلق ، فان التكبر من أرذل الاخلاق ، والتكبر المعجب بنفسه لن يبلغ ما يظنه وتطمح له نفسه من الخيالات الفاسدة أنه فى مقام رفيع على الخلق ، بل هو ممقوت عند الله وعند خلقه ، مبغوض محقر قد نزل بخلق هذا إلى أسفل سافلين ، ففاته مطلوبه من كبره وعجبه ، وحصل على تقيضه ، ومن مضار الكبر أنه صح الحديث عن النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، والنار مثنوى المتكبرين ، والكبر هو بظر الحق ، وغمط الناس ، أى احتقارهم وازدراؤهم ، وهذه الاوامر الحسنة والارشادات فى هذه الآيات من الحكمة العالية التى أوحاها الله لرسوله ﷺ وهى من أعظم محاسن الدين ، فالدين هو دين الحكمة التى هى معرفة الصواب والعمل بالصواب ومعرفة الحق والعمل بالحق فى كل شئ .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » الى آخر السورة

العبودية لله نوعان : عبودية لربوبية الله وملكه ، فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم ، فكأنهم عبيد لله مربوبون مدبرون ، وعبودية لألوهيته ورحمته ، وهى عبودية أنبيائه وأوليائه ، وهى المراد هنا ، ولهذا أضافها إلى اسمه (الرحمن) تنبيها على أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال برحمته بهم ولطفه واحسانه ، فذكر صفاتهم أكمل الصفات ، وبالاتصاف بها يكون العبد متحققاً بعبوديته الخاصة النافعة المثمرة للسعادة الأبدية ، فوصفهم بأنهم (يمشون على الارض هوناً) أى ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده (وإذا خاطبهم الجاهلون) أى خطاب جهل ، فانه أضاف الخطاب لهذا الوصف (قالوا سلاماً) أى خاطبهم خطاباً يسلمون فيه من الاثم ولا يقابلون الجاهل بجهله ، وهذا ثناء عليهم بالرزانة والحلم العظيم والعفو عن الجاهل ومقابلة السيء بالاحسان

« والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً » أى يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم . متذللين له كما قال تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » الآية . « والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم » أى ادفعه عنا بالعصاة من أسبابه ومفكرة ما وقع منا مما هو مقتض للعذاب « إن عذابها كان غراماً » أى ملازماً لأهلها ملازمة الغريم لغريمه « انها ساءت مستقراً ومقاماً » وهذا منهم على وجه التضرع لربهم ، وبيان شدة حاجتهم اليه ، وأنه ليس فى طاقتهم احتمال هذا العذاب وليتذكروا منة الله عليهم ، فان صرف الشدة يعظم وقعه بحسب شدتها وفظاعتها « والذين إذا أففقوا » أى النفقات الواجبة والمستحبة لم يسرفوا أى يزيدوا على الحد فيدخلوا فى قسم التبذير واهمال الحقوق الواجبة ، ولم يقتروا فيدخلوا فى باب الشح والبخل ، وكان انفاقهم بين الاسراف والتقتير (قواماً) تقوم به الاحوال ؛ فانهم يبدلون فى الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة ، وفيما ينبى من الامور النافعة على المحتاجين ، وفى المشاريع الخيرية ، وفى الامور الضرورية والسكالية الدينية والدنيوية من غير ضرر ولا اضرار ، وهذا من اقتصادهم وعقلهم وحسن تدبيرهم .

« والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر » لا دعاء عبادة ولا دعاء مسئلة بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين خفاء مقبلين عاياه معرضين عما سواه « ولا يقتلون النفس التى حرم الله » وهى نفس المسلم والسكران المعاهد « إلا بالحق » كقتل النفس بالنفس والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة « ولا يزنون ومن يفعل ذلك » المذكور من الشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله والزنا (يلقى) أنما

يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه « أى العذاب «مهانا»
 فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت فى الكتاب والسنة واجماع الأمة ، وكذلك لمن أشرك
 بالله ، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة ، لكونها كلها من أكبر
 الكبائر ، وأما خلود القاتل بغير حق والزانى ، فى العذاب ، فقد دلت النصوص القرآنية وتواترت
 الأحاديث النبوية أن جميع المؤمنين - وإن دخلوا النار - فسيخرجون منها ولا يخلد فيها مؤمن ،
 فان الايمان الكامل يمنع من دخولها ، ومطلق الايمان ولو مثقال ذرة يمنع من الخلود فيها
 كما تقدم .

وفى الله على ثلاثة هذه الأشياء لأنها أكبر الكبائر ، وفسادها كبير ، فالشرك فيه فساد
 الأديان بالكالية ، والقتل فيه فساد الأبدان ، والزنا فيه فساد الأعراض « إلا من تاب » عن هذه
 المعاصي وغيرها بأن أقطع عنها فى الحال ، وندم على فعلها وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود (وآمن)
 بالله إيمانًا صحيحًا يقتضى فعل الواجبات ، وترك المحرمات « وعمل عملاً صالحاً » فيدخل فيه جميع
 الصالحات من واجب ومستحب « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » بأن يوفقهم للخير ، فتبدل
 أقوالهم وأفعالهم التى كانت مستعدة لفعل السيئات تتبدل حسنات ، فيتبدل شركهم إيمانًا ومعصيتهم
 طاعة ، وتتبدل نفس السيئات التى عملوها ، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة ونداما واناة وطاعة
 تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية ، وورد فيه حديث الرجل الذى حاسبه الله ببعض ذنوبه ، فعدها
 عليه ، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة إلى آخر الحديث « وكان الله غفوراً » لمن تاب يغفر ذنوبه
 كلها « رحيماً » بعباده إذ دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالخطيئة ، ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم ، ومن
 تاب وعمل صالحاً ، فانه يتوب إلى الله متاباً ، أى فليعلم أن توبته فى غاية الكمال ، لانها رجوع
 إلى الطريق الموصل الى الله الذى هو عين سعادة العبد وفلاحه ، فليخلص فيها وليخلصها من شوائب
 الاغراض الفاسدة .

والمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة ، وأن تكون على أكمل الوجوه وأجلها لتحصل
 نه ثمراتها الجليلة (والذين لا يشهدون) أى لا يحضرون الزور ، أى القول المحرم والفعل المحرم ،
 فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على كل قول وفعل محرم ، كالخوض فى آيات الله بالباطل ، والجدل
 الباطل ، والغيبة والنميمة ، والسب والتدفى ، والاستهزاء وشرب الخمر ، والفناء المحرم ، وفرش
 الحرير والصور ونحو ذلك ، وإذا كانوا لا يشهدون الزور ، فانهم من باب أولى لا يفعلونه ولا يقولونه
 وشهادة الزور داخلة فى قول الزور « وإذا مروا باللغو » وهو الكلام الذى لا فائدة فيه دينية
 ولا دنيوية ، ككلام السفهاء ونحوهم « مروا كراماً » أى نزهاً أنفسهم وأكرمواها عن الخوض
 فيه ورأوه سفهاً منافياً لمكارم الاخلاق .

وفى قوله (وإذا مروا باللغو) إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه ، ولكن يحصل ذلك بغير قصد ، فيكرمون أنفسهم عنه (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم) التي أمروا بالاستماع لها والاهتداء بها (لم يخروا عليها صما وعمياناً) أى لم يقابلوها بالاعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف القلب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق ، وإنما حال هؤلاء الأخيار عند سماعها كما قال تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانتقياد والتسليم لها ، وتجد عندهم آذاناً سامعة ، وقلوباً واعية ، فيزداد بها إيمانهم ، ويتم بها يقينهم ، وتحدث لهم فرحاً ونشاطاً واغتراباً ، لما يعلمون أنها أفضل المنن الواصلة اليهم من ربهم (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا أى قرنائنا من أصحاب وأخلاء وأقران وزوجات (وذرياتنا قررة أعين) أى تقر بهم أعيننا ، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من علو همهم ومراتبهم ، أن مقصودهم بهذا الدعاء لذرياتهم ، أن يطلبوا منه صلاحهم ؛ فان صلاح الذرية عائد اليهم وإلى والديهم لأن النفع يعود على الجميع ، بل صلاحهم يعود إلى نفع المسلمين عموماً ، لأن بصلاح المذكورين صلاحاً لكل من له تعلق بهم ، ثم يتسلسل الصلاح والخير (واجعلنا للمتقين إماماً) أى أوصلنا ياربنا إلى هذه الدرجة العالية درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين ، وهى درجة الامامة فى الدين ، وأن يكونوا قدوة للمتقين فى أقوالهم وأفعالهم ، يقتدى بأقوالهم وأفعالهم ، ويطمئن اليها ثقة المتقين بعلمهم ودينهم ، ويبتدى المهتدون بهم ، ومن المعلوم أن الدعاء بحصول شئ دعاء به وبما لا يتم إلا به ، وهذه الدرجة درجة الامامة فى الدين لانتم إلا بالصبر واليقين .

كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فهذا الدعاء يستلزم من حصول الأعمال الصالحة والصبر على طاعة الله ؛ وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة ومن العلم النافع التام الراسخ الذى يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاء جزيلاً ، ولما كانت همهم وأعمالهم عالية كان الجزاء من جنس العمل ، فجازاهم من جنس عملهم فقال (أولئك يجزون الغرفة) أى المنازل العالية الرفيعة الجامعة لكل نعيم روحى وبدنى بسبب صبرهم على القيام بهذه الأعمال الجليلة (ويلقون فيها تحية وسلاماً) من ربهم ومن الملائكة الكرام ومن بعضهم على بعض ويسلمون من جميع المنقصات والمكدرات .

والحاصل أن الله وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والاعراض عنهم ، ومقابلة إساءتهم بالاحسان وقيام الليل والاخلاص فيه والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وأنهم يخرجون الواجبات والمستحبات فى النفقات على وجه الاقتصاد ، وإذا كانوا مقتصدين فى النفقات التى جرت عادة أكثر الخلق

بالتفريط فيها أو الإفراط ، فاقصدهم وتوسطهم في غيرها من باب أولى ، ووصفهم بالسلامة من كبائر الذنوب وفواحشها ، وبالتوبة مما يصدر منهم منها .

ومنها الإخلاص لله في عبادته ؛ وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها ؛ وأنهم يتزهدون عن اللغو والآثقال الرديئة التي لا خير فيها ولا نفع ، وذلك يستلزم كمال إنسانيتهم ومروءتهم وكاملهم ورفعة نفوسهم عن كل أمر رذيل ، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها ، وأنهم يدعون ربهم بأكمل دعاء ينتفعون به ، وينتفع به من يتعلق بهم ، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم ، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم ، لأن من حرص على شيء ، ودعا الله في حصوله لا بد أن يكون مجتهداً في تحصيله بكل طريق ؛ مستعيناً بربه في تسهيل ذلك ، وأنهم دعوا الله في حصول أعلى الدرجات الممكنة لهم ، وهي درجة الإمامة والصدقية ، فله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب وأزكى تلك النفوس ، والله فضل الله عليهم ولطفه بهم الذي أوصلهم إلى هذه المقامات والمنازل ، والله الحمد من جميع عبادته إذ بين لهم أوصافهم وحشهم عليها وأعان السالكين ويسر الطريق لمن سلك رضوانه ، والله الموفق المعين

(خذ العفو واءمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)

هذه الآية الكريمة جامعة لمعاني حسن الخلق مع الناس وما ينبغي للعبد سلوكه في معاملتهم ومعاشرتهم ، فأمر تعالى « بأخذ العفو » وهو ما سمحت به أنفسهم وسهلت به أخلاقهم من الأعمال والاخلاق ، بل يقبل ما سهل ولا يكافهم ما لا تسمح به طبائعهم ولا مالا يطيقونه ، بل عليه أن يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وعمل وخلق جميل وما هو دون ذلك ، ويتجاوز عن تقصيرهم ويفض طرفه عن نقصهم ، وعما أتوا به وعاملوه به من النقص ولا يتكبر على صغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره بل يعامل الجميع باللطف وما تقتضيه الحال الحاضرة ، وبما تشرح له صدورهم وبوقر الكبير ويحنو على الصغير ويجمال النظير .

« واءمر بالعرف » وهو كل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد ، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم ديني أو دنيوي أو نصيحة أو حث لهم على خير من عبادة الله وصلة رحم وبر الوالدين ، وإصلاح بين الناس أو رأى مصيب أو معاونة على بر وتقوى أو زجر عن قبيح ، أو إرشاد إلى مصلحة دينية أو دنيوية . أو تحذير من ضد ذلك .

ولما كان لا بد للعبد من أذية الجاهلين له بالقول أو بالفعل أمر الله بالأعراض عنهم وعدم مقابلة الجاهلين بجهلهم ، فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه ومن حرمك فلا تحرمه ، ومن قطعك

فصله ، ومن ظلمك فاعدل فيه ، فبذلك يحصل لك من الثواب من الله ، ومن راحة القلب وسكونه ومن السلامة من الجاهلين ، ومن انقلاب العدو صديقاً ، ومن التبوؤ من مكارم الأخلاق أعلاها أكبر حظ وأوفر نصيب ، قال تعالى « ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ولنتقصر في هذا الموضوع على هذه الآيات ، ففيها الهدى والشفاء والخير كله .

فصل

في أحكام الشرع الفروعية المتنوعة في الصلاة والزكاة ، مع ما ينضم اليهما من المعاني الأخرى
قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهوداً ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)

هذا الأمر من الله لعباده بالصلاة التي أمر بها في آيات متعددة ، ويأتي الأمر بها في القرآن بلفظ الإقامة كهذه الآية ، ومثل « وأقيموا الصلاة » ونحوها . وهو أبلغ من قوله افعلوها ، فإن هذا أمر بفعلها ، وبتمكين أركانها وشروطها ومكملاتها ظاهراً وباطناً ، وبجمعها شريعة ظاهرة قائمة من أعظم شعائر الدين ، وفي هذه الآية زيادة عن بقية الآيات ، وهي الأمر بها لأوقاتها الخمسة أو الثلاثة ، وهذه هي الفرائض وإضافتها إلى أوقاتها من باب إضافة الشيء إلى سببه الموجب له « فدلوك الشمس » أي زوالها واندفاعها من المشرق نحو المغرب ، فيدخل في هذا صلاة الظهر وهو أول الدلوك ، وصلاة العصر وهو آخر الدلوك « إلى غسق الليل » أي ظلمته ؛ فدخل في ذلك صلاة المغرب وهو ابتداء الغسق ، وصلاة العشاء الآخرة ، وبها يتم الغسق والظلمة « وقرآن الفجر » أي صلاة الفجر ، وسماها قرآناً لمشروعية اطالة القراءة فيها ، ولفضل قراءتها لكونها مشهودة يشهدها الله وتشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار ، ففي هذه الآية الكريمة فوائد :

منها ذكر الأوقات الخمسة صريحاً ؛ ولم يصرح به في القرآن في غير هذه الآية - وأتت ظاهرة في قوله « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » الآية . وفيها أن هذه الأمور كلها فرائض لأن الأمر بها مقيد في أوقاتها ، وهذه هي الصلوات الخمس وقد تستتبع ما يتبعها من الرواتب ونحوها .

ومنها أن الوقت شرط لصحة الصلاة وسبب لوجوبها ؛ ويرجع في مقادير الأوقات إلى تقدير النبي ﷺ كما يرجع إليه في تقدير ركعات الصلاة وسجوداتها وهيئاتها .

وفيهما أن العصر والظهر يجعلان للعدو ، وكذلك المغرب والعشاء ، لأن الله جمع وقتها فهو وقت واحد للمعدور ، ووقتان لغير المعدور .

وفيها فضيلة صلاة الفجر وفضيلة اطالة القرآن فيها ، وأن القراءة فيها ركن ، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل ذلك على فضيلته وركنيته ، وقد عبر الله عن الصلاة بالقراءة وبالركوع والسجود وبالقيام ، وهذه كلها أركانها المهمة .

قوله (ومن الليل فتبجد به) أى صلّ به في أوقاته (نافلة لك) أى لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو المقامات ورفع الدرجات بخلاف غيرك ، فانها تكون كفارة لسيئاته

ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين ، وأما صلاة الليل فانها فرض عليك وحدك دون المؤمنين لكرامتك على الله ، إذ جعل وظيفتك أكثر من غيرك ومنّ عليك بالقيام بها ليكثر ثوابك ويرتفع مقامك ، وتنال بذلك المقام المحمود ، وهو المقام الذى يحمد فيه الأولون والآخرون ؛ مقام الشفاعة العظمى ، حين يستشفع الخلائق بأكابر الأنبياء ، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من هم الموقف وكربه ويفصل بينهم ، فيشفعه الله وبقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون ، وتكون له اليد البيضاء على جميع الخلق وَاللَّهُ يَسْتَجِيبُ دَعْوَتَهُ تسليماً كثيراً وادخلنا في شفاعته ، ومنّ علينا بالسمى في أسباب شفاعته التى أهمها اخلاص الأعمال لله ، وتحقيق متابته في هديه وقوله وعمله .

« ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير »

لما أمر الله تعالى رسوله خصوصاً والمؤمنين عموماً باستقبال بيته الحرام ، أخبر أن كل أهل دين لهم وجهة يتوجهون اليها في عباداتهم ، وليس الشأن في القبل والوجاهات المعينة ، فانها من الشرائع التى تختلف باختلاف الأزمنة ، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى أخرى ، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله على الاطلاق والتقرب اليه وطلب الزلفى عنده .

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية ، وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها الخسارة في الدنيا والآخرة ، كما أنها إذا اتصفت به فهي الراجحة على الحقيقة ، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع ، وهو الذى خلق الله له الخلق وأمرهم به ، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعلها ؛ فان الاستباق اليها يتضمن الأمر بفعلها وتكميلها وإيقاعها على أكل الأحوال والمبادرة اليها ، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات فهو السابِق في الآخرة إلى الجنات

فالسابقون أعلى الخلق درجة ، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر ، فهذه الآية نحث على الاتيان بكل ما يكمل هذه العبادات من ركن وواجب وشرط ومستحب ومكمل ومتمم ظاهراً وباطناً كالمبادرة في أول الوقت وفعل السنن المكملات والمبادرة إلى ابراء الذمم من الواجبات وفعل جميع الآداب المتعلقة بالعبادات فله ما أجمعها من آية وأنفعها ؛ ولما كان أقوى ما يحث النفوس الى المسارعة إلى الخيرات ما رتب الله عليها من الثواب ، وما يخشى بتفويتها من الحرمان والعقاب قال (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شئ قدير) فيجمع الله العباد يوم القيامة بقدرته وبجوارهم بما أسلفوه من الأعمال خيراً وشراً .

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، فان ختم فرجالاً أو ركباناً » إلى آخر الآية .

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عموماً ، وعلى الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر خصوصاً ، لفضلها وشرفها وحضور ملائكة الليل والنهار فيها ، ولكونها ختام النهار ، والمحافظة على الصلوات عناية العبد بها من جميع الوجوه التي أمر الشارع بها وحث عليها من مراعاة الوقت وصلاة الجماعة والقيام بكل ما به تكمل وتتم ، وأن تكون صلاة كاملة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، ويزداد بها إيمانه ، وذلك إذا حصل فيها حضور القلب وخشوعه الذي هو لبها وروحها ، ولهذا قال (وقوموا لله قانتين) أى مخلصين خاشعين لله ، فان القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع ؛ ومن تمام ذلك سكون الأعضاء عن كل كلام لا تعلق له بالصلاة .

وفيهما أن القيام في صلاة الفريضة ركن إن كان المراد بالقيام هنا الوقوف ، فان أريد به القيام بأفعال الصلاة عموماً دل على الأمر بإقامتها كلها وأن تكون قائمة تامة غير ناقصة .

(فان ختم فرجالاً أو ركباناً) أى فصلوا الصلاة رجالاً أى ماشين على أرجلكم أو ساعين عليها ، أو ركباناً على الأبل وغيرها من المركوبات ، وحذف المتعلق ليم الخوف من العدو والسبع ومن فوات ما يتضرر بفواته أو تفويته ، وفي هذه الحال لا يلزمه استقبال القبلة ، بل قبلته حينما كان وجهه .

ومثل ذلك إذا اشتبهت القبلة في السفر ، ومثل ذلك صلاة النافلة في السفر على الراحة ، وكل هذا داخل في قوله (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) فهذه صلاة المعذور بالخوف ، فإذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة ، ويدخل في قوله (فاذا أمنتم فاذكروا الله) تسكيل الصلوات ؛ ويدخل فيه أيضاً الاكثار من ذكر الله شكراً له على نعمة الأمن وعلى نعمة

التعليم ، وفي الآية الكريمة فضيلة العلم وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الاكثار من ذكر الله وفيه تنبيه على أن الاكثار من ذكر الله سبب لنيل علوم آخر لم يكن العبد ليعرفها ، فان الشكر مقرون بالمزيد ، وقد ذكر الله صلاة الخوف في سورة النساء في قوله (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) فأمر بها على تلك الصفة تحصيلاً للجماعة لها وقياماً للألفة وجمعاً بين القيام بالصلاة والجهاد حسب الامكان وبالقيام بالواجبات مع التحرز من شرور الأعداء ، فسبحان من جعل في كتابه الهدى والنور والرشاد واصلاح الامور كلها .

فصل

قال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقال (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بأخذه إلا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد) وقال (وآتوا حقه يوم حصاده)

قد جمع الله في كتابه في آيات كثيرة بين الأمر باقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما مشتركتان في أنهما من أهم فروض الدين ومباني الاسلام العظيمة ، والايمان لا يتم إلا بهما ، ومن قام بالصلاة وبإتاء الزكاة كان مقيماً لدينه ، ومن ضيعهما كان لما سواهما من دينه أضيع . فالصلاة فيها الاخلاص النام للمعبود وهي ميزان الايمان ، والزكاة فيها الاحسان إلى المخلوقين وهي برهان الايمان . ولهذا اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة ، وقال أبو بكر رضي الله عنه « لا قاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » فقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) هذا الامر موجه للنبي ﷺ ومن قام مقامه أن يأخذ من أموال المسلمين صدقة وهي الزكاة ، وهذا شامل لجميع الأموال المتعولة من أنعام وحروث ونقود وعروض كما صرح به في الآية الأخرى (من طيبات ما كسبتم) من النقود والعروض والماشية المنماة (ومما أخرجنا لكم من الأرض) من الحبوب والثمار ؛ وقد وضع النبي ﷺ النصب في هذه الانواع كلها ، وبين مقدار الواجب منها وأنها عشر الخارج من الأرض مما يسقى بلا مؤنة ، ونصف عشره فيما سقى بمؤنة ، وربعم العشر من أموال التجارة وذلك إذا حال الحول في أموال التجارة ، وحصل الحصاد والجذاذ وقت حصول الثمار كما هو صريح الآية المذكورة .

وأمر تعالى باخراج الوطء فلا يظلم رب المال فيؤخذ العالى من ماله إلا أن يختار هو ذلك

ولا يحل له أن يتيمم الخبيث وهو الرديء من ماله فيخرجه ، ولا تبرأ بذلك ذمته إن كانت فرضاً ، ولا يتم له الأجر والثواب إن كانت نقلاً ، وبين تعالى الحكمة في ذلك وأنها حكمة معقولة ، فكما أنكم لا ترضون ممن عليه حق لكم أن يعطيكم الرديء من ماله الذي هو دون حقكم إلا أن تقبلوه على وجه الكراهة والاضغاض ، فكيف ترضون لربكم ولاخوانكم مالا ترضونه لأنفسكم فليس هذا من الانصاف والعدل .

وبين تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحها العظيمة فقال (تطهرهم وتزكيهم بها) فهذه كلمة جامعة يدخل فيها من المنافع للمعطي والمعطى والمال والامور العمومية والخصوصية شيء كثير . فقلوه (تطهرهم) أي من الذنوب ومن الاخلاق الرذيلة ، فان من أعظم الذنوب وأكبرها من الزكاة ، وأيضاً اعطاؤها سبب لمغفرة ذنوب أخرى ، فانها من أكبر الحسنات ، والحسنات يذهب السيئات

ومن أشنع الاخلاق الرذيلة البخل . والزكاة تطهره من هذا الخلق الرذيل ، ويتصف صاحبها بالرحمة والاحسان والشفقة على الخلق وتطهر المال من الاوساخ والآفات ، فان للأموال آفات مثل آفات الابدان ، وأعظم آفاتهم أن تخالطها الاموال المحرمة ، فهي للأموال مثل الجرب تسحته وتحل به النكبات والنوائب المزعجة ، فاخراج الزكاة تطهير له من هذه الآفة المانعة له من البركة والخاء ، فيستعد بذلك للنماء والبركة وتوجيهه للامور النافعة ، وأما قوله (وتزكيهم بها) فالزكاة هي النماء والزيادة ، فهي تنمي المئتي للزكاة ، تنمي أخلاقه وتحل البركة في أهله ويزداد بالزكاة ترقياً في مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ؛ وتنمي المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره وتحل فيه البركة من الله ، ولهذا قال النبي ﷺ « ما نقصت صدقة من مال » بل زيده وتنمي أيضاً المخرج اليه فتسد حاجته ، وتقوم المصلحة الدينية التي تصرف فيها الزكاة كالجهاد والعلم والاصلاح بين الناس والتأليف ونحوها ، وأيضاً تدفع عادة الفقر والفقراء ، فان أرباب الاموال اذا احتكروها واحتجزوها ولم يؤدوا منها شيئاً للفقراء ، اضطر الفقراء وهم جمهور الخلق وثاروا بالشر والفساد على أرباب الاموال ، وبهذا ونحوه تسلطت البلاشفة على الخلق ، فالقيام بالدين الاسلامي على وجهه بمقائده وحقائقه وأخلاقه وأداء حقوقه هو السد المانع شرماً وقدراً لهذه الطائفة التي بها فساد الاديان والدنيا والآخرة ، وأمر تعالى الآخذ منهم الزكاة أن يصلى عليهم فيدعو لهم بالبركة ، فان في ذلك تطميناً لخواطرها وتسكيناً لقلوبهم وتلشيطاً لهم وتشجيعاً على هذا العمل الفاضل ، وكما أن الامام والساعي مأمور بالدعاء للزكاة عند أخذها فالتفكير المحتاج إذا أعطيها من باب أولى أن يشرع له الدعاء للمعطي تسكيناً لقلبه ، وفي هذا اعانة على الخير .

ودل تحليل الآية الكريمة أن كل ما أمان على فعل الخير ونشط عليه وسكن قلب صاحبه

أنه مطلوب ومحبوب لله ، وأنه ينبغي للعبد مراعاته وملاحظته في كل شأن من شئونه ، فإن من تفتن له فتاح له أبوابا نافعة له ولغيره بلا تعب ولا مشقة ، وأنه ينبغي ادخال السرور على المؤمنين ولما أمر في آية البقرة بالنفقات قال « واعلموا أن الله غني حميد » غنى بذاته عن جميع المخلوقين وهو الغنى عن نفقات المنفقين وطاعات الطائعين ، وإنما أمرهم بها وحثهم عليها لمحض مصلحتهم ونفعهم ، وبمحض فضله وكرمه عليهم ، إذ تفضل عليهم بالامر بهذه الأعمال والتوفيق لفعلها التي توصل أصحابها إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات . ومع كمال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام ، وحميد في أفعاله التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة ، وحميد الأوصاف لأن أوصافه كلها محاسن وكالات لا يدرك العباد كنهها ولا يقدرونها حق قدرها . فلما حثهم على الاتفاق النافع نهاهم عن الامساك الضار ، وبين لهم أنهم بين داعيين : داعي الرحمن يدعوهم إلى الخير ويمدحهم عليه الفضل والثواب العاجل والآجل ، وخلف ما أنفقوا . وداعى الشيطان الذي يحثهم على الامساك ويخوفهم إن أنفقوا افتقروا ، فن كان مجيباً لداعى الرحمن وأنفق مما رزقه الله فليبشر بمغفرة الذنوب ، وحصول كل مطلوب ومن كان مجيباً لداعى الشيطان فإنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، فليختر العبد أى الأمرين أليق به ، وختم الآية بالاخبار بأنه « واسمع عليم ، أى واسمع الصفات كثير الهبات ، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين المخلصين الصادقين ، وعليم بمن هو أهل لذلك فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات .

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ؛ وفي الرقاب ، والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)

المراد بالصدقات هنا الزكاة ، فهؤلاء الثمانية هم أهلها ، إذا دفعت إلى جهة من هذه الجهات أجزاء ووقعت موقعها ، وإن دفعت في غير هذه الجهات لم تجز ، وهؤلاء المذكورون فيها قسمان قسم يأخذ لحاجته كالفقراء والمساكين والرقاب وابن السبيل والغارم لنفسه ، وقسم يأخذ لنفعه العمومى والحاجة إليه ، وهم البقية . فأما الفقراء والمساكين فهم خلاف الأغنياء ، والفقير أشد حاجة من المسكين لأن الله بدأ به ، والأثم مقدم في الذكر غالباً ، ولسكن الحاجة تجمع الصنفين « والعاملين عليها » وهم السعاة الذين يحبونها ويكتبونها ويحفظونها ، ويقسمونها على أهلها فهم يعطون ولو كانوا أغنياء لأنها بمنزلة الأجرة في حقهم « والمؤلفة قلوبهم » وهم سادات العشائر والرؤساء الذين إذا أعطوا حصل في إعطائهم مصلحة للإسلام والمسلمين ، إما دفع شرهم عن المسلمين وإما رجاء إسلامهم وإسلام نظرائهم ، أو جبايتها ممن لا يعطيها أو يرجى قوة إيمانهم « وفي الرقاب » أى في فكها من الرق كإطانة المكاتبين وكبذلها في شراء الرقاب لعنتها

وفي فك الأسارى من المسلمين عند الأعداء «والفارمين» للإصلاح بين الناس إذا كان الصلح يتوقف على بذل مال فيعانون على القيام بهذه المهمة والمصلحة العظيمة وهي الإصلاح بين الناس ، ولو أغنياء ، ومن الفارمين من ركبتهم ديون للناس وعجزوا عن وفائها فيعانون من الزكاة لو فاتها (وفي سبيل الله) أى بذلها في إعانة المجاهدين بالزاد والمزاد والمركوب والسلاح ونحوها مما فيه إعانة المجاهدين ، ومن الجهاد التخلي لطلب العلم الشرعى والتجرد للاشتغال به (وابن السبيل) وهو الغريب المنقطع به في غير بلده فيعان على سفره من الزكاة

فإنه تعالى فرضها لهؤلاء الأصناف بحسب حكمته وعلمه ووضع الأشياء مواضعها ، فإن سد الكفايات وقيام المصالح العمومية النافعة من الفروض على المسلمين ، وهى على أهل الأموال شكر منهم لله تعالى على نعمته بالمال وتطهير لهم ولها ونماء وبركة واتصاف بصفات الأخيار ، وسلامة من نعوت الأشرار

فصل فى الطهارة بالماء والتيمم

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم - إلى قوله - لعلمكم تشكرون)

هذه الآيات جمع الله فيها أحكام طهارة الماء وطهارة التيمم والتنبيه على شروطها وبيان كيفياتها وذكر فوائد ذلك ونعماته الطيبة فبين فيها الأحكام وحكمها وأسرارها ، وهى أحكام كثيرة تستفاد من هذا الموضع

منها أن الطهارة من الحدثين شرط لصحة الصلاة لقوله (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) إلخ ومنها أن ذلك عام للفرائض من الصلوات والنوافل ، فكل ما يسمى صلاة فلا بد فيه من هذه الطهارة ومنها اشتراط النية للظاهرة لقوله «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم» أى لأجل الصلاة فإن المتطهر إما أن ينوى رفع ماعليه من الأحداث أو ينوى الصلاة ونحوها مما يحتاج إلى الطهارة ، أو ينويهما

ومنها أن غسل هذه الأعضاء لابد منه فى الحدث الأصغر ، فحد الوجه ما يدخل فى مساه وما تحصل به المواجهة ، وذلك من الأذن إلى الأذن عرضاً ، ومن منابت شعر الرأس إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً مع مسترسل اللحية ، لأن هذا هو الذى تحصل به المواجهة ، وأما اليدين فقد حددهما الله الى المرفقين فقال العلماء إن «إلى» بمعنى مع المرفقين ، وأيدوا هذا بأن النبى صلى الله عليه وسلم أدار الماء على مرفقيه ، وكذلك يقال فى الرجلين إلى الكعبين ، وأما الرأس فإنه يتعين استيعاب مسحه فان الله امر بمسحه ، والباء للإصاق الذى يقتضى إصاق المسح بهذا المسوح ،

ولست للتبعيض . ومنها أن الترتيب بين هذه الأعضاء الأربعة شرط ، لأن الله رتبها وأدخل عضواً مسموحاً بين الأعضاء المفسولة ، ولا يعلم لهذا فائدة سوى الترتيب وعموم قوله ﷺ « ابدأ بما بدأ الله به » فهو وإن كان وارداً في الحج فانه يعم كل شيء ، مع أن جميع الواصفين لوضوئه ﷺ ذكره مرتباً .

ومنها أن الموالاة شرط أيضاً ، ووجه ذلك أن الله تعالى ذكر الوضوء مقترناً ببعض الأعضاء ببعض بالواو الدالة على اجتماع هذه العبادة بوقت واحد ، فاذا فرقها في وقتين لم تكن عبادة واحدة كما لو فرق الصلاة ، وبفعل النبي صلى الله عليه وسلم الدائم الذي كأنك تشاهده أنه كان يوالى بين أعضاء وضوئه ، وهذا أولى من استدلال كثير من أهل العلم بقصة صاحب اللمعة الذي أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء كله ، فهو وإن كان فيه بعض الدلالة على هذه المسألة ، لكن يحتمل أن أمره بالاعادة كأمر المسىء في صلاته أن يعيد ، لأنه رآه مخلاً بوضوئه غير متم له .

ومنها بيان الظاهرة الكبرى ، كيفيتها وذكر سببها ، فكيفيتها أن يطهر العبد جميع ظاهر بدنه بالماء لقوله (وإن كنتم جنبا فاطهروا) فلم يخصه بعضاً أو بأعضاء معينة ، بل جعل الله التطهير لجميع البدن ، فلي المتطهر أن يعم التطهير لجميع ظاهر بدنه وما تحت الشعور ، خفيفة أو كثيفة ، وأن يكون ذلك غسلًا ماسحاً .

ومنها أن طهارة الحدث الأكبر لا ترتب فيها ولا موالاة . ومنها أن من أسبابها الجنابة ، والجنابة قد عرفها المسلمون عن نبيهم صلى الله عليه وسلم أنها انزال المنى يقظة أو مناماً وإن لم يكن جماع أو الجماع وإن لم يحصل انزال ، أو وجود الأمرين كليهما .

وقد بين الله أيضاً في سورة البقرة سبباً آخر للاغتسال وهو الحيض في قوله (ولا تقر بوهن حتى تطهرن ، فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله) فأضاف التطهير فيها إلى البدن كله كالجنابة ، ويشمل ذلك النفس ، وأما التطهير من اسلام الكافر وتطهير الميت فانه يؤخذ من السنة .

ومنها ما استدل به كثير من أهل العلم في قراءة الجرف في قوله (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) أنها تدل على مسح الخفين الذي بينته السنة وصرحت به ، وأما قراءة النصب (في أرجلكم) فانها معطوفة على المغسولات .

ومنها مشروعية التيمم ، وأن سببه أحد أمرين ، إما عدم الماء لقوله (فلم تجدوا ماء) أو الضرر باستعماله لقوله (وإن كنتم مرضى) فكل ضرر يعتري العبد إذا استعمل الماء ، فانه يسوغ له العدول إلى التيمم ، وأنواع الضرر كثيرة ، وأما ذكر السفر فلأنه مظنة الحاجة إلى التيمم لفقد الماء كتمييد الرهن في السفر ، لا لأن السفر وحده مسوغ للتيمم كما ظنه بعض الناس وهو منافي

لقوله (فلم تجدوا ماء) ومنها أن التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا ، إذا كان طيباً غير خبيث ، والخبيث هو النجس في هذا الموضع .

ومنها أن التيمم خاص بمضوي ، بالوجه واليدين ، وأن اليدين عند الإطلاق وعدم التيمم هما الكفان كما في آية السركة ، وإذا قيدت كما في آية الوضوء إلى المرفقين قيدت بذلك

ومنها التذنيه على ما يوجب الطهارة الصغرى ، وهو الاثنيان من الغائط ، يعنى خروج الخارج من أحد السبيلين وملامسة الذئاء لشهوة ، والسنة بينت الوضوء من النوم الكثير ، ولمس الفرج وأكل لحوم الابل على اختلاف من أهل العلم في ذلك .

ومنها أن التيمم كما أنه مشروع في الحدث الأصغر ، فكذلك في الحدث الأكبر ، لأن الله تعالى ذكره بعد سبب الطهارتين .

ومنها أنه في طهارة التيمم تستوى فيه الطهارة الصغرى بالكبرى في مسح المضوي فقط . ومنها أن الآية الكريمة تدل على أن طهارة التيمم تنوب وتقوم مقام طهارة الماء عند عدمه أو التضرر باستعماله ، لأن الله أنابه منابه وسماه طهارة .

وكذلك الأحاديث الكثيرة تدل على هذا ، وبهذا يعرف أن الصحيح أن طهارة التيمم لا تبطل بخروج وقت ولا دخوله ولا غير ذلك مما قاله كثير من أهل العلم . بل إنها تبطل بأحد أمرين : إما حصول ناقض من نواقض الطهارة ، وإما وجود الماء أو زوال الضرر المانع من استعمال الماء ، ومنها أن الماء المتغير بالطهارات ، ولو تغيراً كثيراً ، أنه يجب تقديمه على طهارة التيمم ، لأن قوله (فلم تجدوا ماء) نكرة في سياق النفي فيعم أى ماء سوى الماء النجس .

ومنها ما استدلل به كثير من أهل العلم أن من كان في موضع ليس فيه ماء وهو يشك في وجوده فيما يقاربه أن عليه أن يطلبه ويفتش فيما حوله قبل أن يعدل إلى التيمم ، لأن قوله (فلم تجدوا) لا يقال إلا بعد طلب ما يمكن طلبه فيه من دون مشقة ، وهو استدلال لطيف .

ومنها أنه لا بد في الطهارة من النية لقوله في طهارة الماء (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) إلى آخره وفي طهارة التيمم « فتييموا » أى اقصدوا « صعيداً طيباً » ومن لازم ذلك النية

ومنها أن هذه الأحكام التي شرعها الله لعباده ، إنما ذلك رحمة منه بعباده ليقوموا بالعبادات التي تتوقف سعادتهم وفلاحهم عليها ، وأنه يريد إتمام نعمته عليهم بالأوامر الشرعية التي لا مشقة فيها ولا حرج لينالوا الفضل العظيم من ربهم ، فمنه التفضل على عباده بالسبب والمسبب .

ومنها أن طهارة التيمم ، وإن لم يشاهد فيها نظافة حسية ، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال العبد لأمر الله ورسوله .

ومنها : التساعدة الكلية في قوله (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وأن الحرج منفي شرعاً في جميع ما شرعه الله لعباده ، فأصل العبادات في غاية السهولة على المكافين ، ثم إذا عرضت فيها عوارض عجز أو مرض أو تعذر لبعض شروطها ، فإن الشارع يخففها تخفيفاً يناسب ذلك العارض .

ومنها : أن هذه الأحكام وغيرها من محاسن الدين الاسلامي ، لما فيها من المنافع للعباد في قلوبهم وأبدانهم وأخلاقهم ، والتقرب بها إلى الله ، والتوسل بها إلى ثوابه العاجل والآجل ، لجميع الأحكام من أكبر الأدلة على حسن دين الاسلام ، وأنه الدين الحق الذي فيه الصلاح والاصلاح ، وأن سعادة الدنيا والآخرة منوطة به ، مترتبة عليه ، فتأمل أحكام الله وما فيها من الحكم والأسرار والمنافع ودفع المضار ، تجد هذا مشاهداً فيها .

فصل في صلاة الجمعة والسفر والأذان

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة ، والمبادرة إليها من حين ينادى لها ، والمراد بالسعى هنا : الاهتمام بها وعدم الاشتغال بغيرها ، لا المراد به العدو الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، عند المضى إلى الصلاة ، فالمشى إلى الصلاة بسكينة ووقار ، هو المراد بالسعى هنا (وذرُوا البيع) أي اتركوه في هذه الحالة التي أمرتم بالمضى فيها إلى الصلاة ، وإذا أمر بترك البيع الذي ترغّب فيه النفوس ، وتحرص عليه ، فترك غيره من الشواغل من باب أولى ، كالصناعات وغيرها (ذلکم خير لکم إن كنتم تعلمون) حقائق الأمور وثمراتها ، وذلك الخير هو امثال أمر الله ورسوله ، والاشتغال بهذه الفريضة ، التي هي من أهم الفرائض ، واكتساب خيرها وثوابها ، وما رتب الشارع على السعى لها والمبادرة والتقدم والوسائل ، والمتنمات لها من الخير والثواب ، ولما في ذلك من اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، فإن من أرذل الخصال الحرص والجشع الذي يحمل العبد على تقديم الكسب الدنيء على الخير الضروري ، ومن الخير أن من قدم أمر الله وآثر طاعته على هوى نفسه ، كان ذلك برهاناً لإيمانه ، ودليل رغبته ، وإثباته

إلى ربه ، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، ومن قدم هواه على طاعة مولاه ، فقد خسر دينه ، وتبع ذلك خسارة دنياه وهذا الأمر بترك البيع موقت الى انقضاء الصلاة (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) لطلب المكاسب المباحة (وابتغوا من فضل الله) أى ينبغي للمؤمن الموفق وقت اشتغاله في مكاسب الدنيا ، أن يقصد بذلك الاستعانة على قيامه بالواجبات ، وأن يكون مستعيناً بالله في ذلك ، طالباً لفضله جاعلاً الرجاء والطمع في فضل الله نصب عينيه فان التعلق بالله والطمع في فضله من الايمان ومن العبادات ، ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله وطاعته أمر الله بالكثارة من ذكره ، فقال (واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) أى في حال قيامكم وعودكم وفي تصرفاتكم وأحوالكم كلها ، فان ذكر الله طريق الفلاح الذى هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب ، ومن المناسب في هذا أن يجعل المعاملة الحسنة والاحسان إلى الخلق نصب عينيه ، فان هذا من ذكر الله ، فكل ما قرب الى الله فانه من ذكره ، وكل أمر يحتسبه العبد فانه من ذكره ، فاذا فصح في معاملته وترك الغش تقرب في هذه المعاملة الى الله لأن الله يحبها ؛ ولأنها تمنع العبد من المعاملة الضارة وكلما سماح أحداً أو حاباه في ثمن أو مئتمن أو تيسير أو إنظار أو نحوه ، فانه من الاحسان والفضل ، وهو من ذكر الله . قال تعالى « ولا تنسوا الفضل بينكم » « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً » أى خرجوا من المسجد حرصاً على تلك التجارة واللهو ، وتركوا ذلك الخير الحاضر ، حتى انهم تركوا النبي ﷺ قائماً يخطب ، وذلك لحاجتهم لتلك العير التي قدمت المدينة ، وقبل أن يعلموا حق العلم ما في ذلك من الذم وسوء الأدب ، فاجتمع الأمرين حلالاً على ما ذكر ؛ وإلا فهم رضى الله عنهم كانوا أرغب الناس في الخير ، وأعظمهم حرصاً على الأخذ عن الرسول وعلى توقيره وتبجيله وحالهم المعلومه في ذلك أكبر شاهد ، ولكن لكل جواد كربة ، ثم إن الكربة التي عوتب عليها العبد ؛ وتاب منها وأتاب وغفرها الله وأبدل مكانها حسنة ، لا يحل لأحد اللوم عليها ، قل لمن قدم اللهو والتجارة على الطاعة : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، التي وإن حصل منها بعض المقاصد فان ذلك قليل منغص مفوت خير الآخرة ، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق ؛ فان الله خير الرازقين ، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب ، ومن قدم الاشتغال بالتجارة على طاعة الله ، لم يبارك له في ذلك ، وكان هذا دليلاً على خلو قلبه من ابتغاء الفضل من الله ، وانقطاع قلبه عن ربه وتعلقه بالأسباب وهذا ضرر محض يعقب الخسران . وفي هذه الآيات فوائد عديدة . منها : أن الجمعة فريضة على المؤمنين يجب عليهم السعى لها والاهتمام بشأنها ، وأن الخيرات المترتبة عليها لا يقابلها شيء .

ومنها مشروعية الخطبتين ، وأنهما فريضتان ، وأن المشروع أن يكون الخطيب قائماً ، لأن قوله (واسمعوا الى ذكر الله) يشمل السمع الى الصلاة وإلى الخطبتين ، وأيضاً فإن الله ذم من ترك استماع الخطبة .

ومنها : مشروعية النداء يوم الجمعة وغيرها ، لأن التقييد بيوم الجمعة دليل على أن هناك نداء لبقية الصلوات الخمس ، كما قال تعالى (وإذا ناديتكم الى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً)

ومنها : النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة ، وذلك يدل على التحريم وعدم النفوذ . ومنها : أن الوسائل لها أحكام المقاصد ، فإن البيع في الأصل مباح ، ولكن لما كان وسيلة لترك الواجب نهى الله عنه .

ومنها : تحريم الكلام والامام يخطب ، لأنه اذا كان الاشتغال بالبيع ونحوه ، ولو كان المشتغل بعيداً عن سماع الخطبة محرماً ، فمن كان حاضراً تعين عليه أن لا يشتغل بغير الاستماع ، كما أيد هذا الاستنباط الأحاديث الكثيرة :

ومنها : أن المشتغل بعبادة الله وطاعته إذا رأى من نفسه الطموح إلى ما يلهيها عن هذا الخير من اللذات الدنيوية والحظوظ النفسية شرع أن يذكرها ما عند الله من الخيرات ، وما لمؤثر الدين على الهوى ، وما يترتب من الضرر والخسران على ضده .

(وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً)

أى اذا سافرتم في الأرض لتجارة أو عبادة أو غيرهما ، فقد خفف الله عنكم ورفع عنكم الجناح وأباح لكم بل أحب لكم أن تقصروا الصلاة الرباعية الى ركعتين ، فإن حصل مع ذلك خوف ، فلا حرج في قصر كيفية الصلوات كلها ، وهذا والله أعلم بالحكمة في تقييد القصر بالخوف ، لأنه من المعلوم المتواتر عن النبي ﷺ جواز القصر في السفر ، ولو كان ليس فيه خوف ، ولكن اذا اجتمع السفر والخوف ، كان رخصة في قصر العدد للرباعية والمهيئة لغيرها ، فإن وجد الخوف وحده ، ترتب عليه قصر الهيئات على الصفة التي ثبتت عن النبي ﷺ ، وإن وجد السفر وحده ، لم يكن فيه إلا قصر العدد ، ولهذا لما سئل النبي ﷺ عن هذا القيد قال : صدقة تصدق الله عليكم بها ، فاقبلوا صدقته ، أو يقال هذا القصر المذكور في الآية الكريمة مطلق ، والسنة عن النبي (ص) تقييده وتبيين المراد به .

ولا تقصروا على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون .

أى ولا تصل على أحد مات من المناقين ولا تقم على قبره بعد الدفن لتدعوه ، فإن الصلاة عليهم والوقوف على قبورهم للدعاء لهم شفاعه لهم وهم لا تنفع فيهم الشفاعه (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) خارجون عن دين الله بالكيفيه ، ومن كان كافراً ومات على ذلك فما تنفعه شفاعه الشافعين ، وفي ذلك عبره لغيرهم وزجر ونكال لهم ، وهكذا كل من علم منه الكفر والتناق فان لا يصلى عليه ولا يدعى له بالمغفرة ، وفي هذه الآية مشروعيه الصلاة على المؤمنين والوقوف على قبورهم ، خصوصاً وقت دفنهم للدعاء لهم ، وإن هذا كان عادته صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ، وقد بينت السنة وجوب تجهيز الميت المسلم بالتغسيل والتكفين والصلاة عليه وحمله ودفنه كما هو معلوم .

« فصل فى الصيام وتوابه »

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) الى قوله (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون)

يخبر تعالى بمنته على عباده المؤمنين بفرضه عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة ، لأنه من الشرائع الكبار التى هى مصلحة للخلق فى كل زمان ، وفى هذا حث للأمة أن ينافسوا الأمم فى المسارعة اليه وتكميله وبيان عموم مصاحته ونمرائه التى لا تستغنى عنها جميع الأمم ، ثم ذكر حكمته بقوله (لعلكم تتقون) فان الصيام من أكبر أسباب التقوى ، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، فالصيام هو الطريق الأعظم للوصول إلى هذه الغاية التى فيها سعادة العبد فى دينه ودنياه وآخرته ، فالصائم يتقرب إلى الله بترك المشتهيات بتقديماً لمحبة ربه على محبة نفسه ، ولهذا اختصه الله من بين الأعمال حيث أضافه إلى نفسه فى الحديث الصحيح ، وهو من أعظم أصول التقوى ، فان الاسلام والايمان لا يتم بدونه .

وفيه من حصول زيادة الايمان والتمرن على الصبر والمشقات المقربة إلى رب العالمين ، وأنه سبب لكثرة الطاعات من صلاة وقراءة وذكر وصدقة وغيرها ما يحقق التقوى ، وفيه من ردع النفس عن الامور المحرمة من أقوال وأفعال ما هو من أصول التقوى .

ومنها أن فى الصيام من مراقبة الله بترك ما تهوى نفسه مع قدره عليه ، لعله بإطلاع ربه عليه ما ليس فى غيره ، ولا ريب أن هذا من أعظم عون على التقوى .

ومنها أن الصيام يضيق مجارى الشيطان « فانه يجرى من ابن آدم مجرى الدم » فبالصيام يصفى نفوذه وتقل معاصى العبد .

ومنها أن الغنى إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك وحمله على مواساة الفقراء المعدمين ، وهذا كله من خصال التقوى .

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنها أيام معدودات ، أى قليلة سهلة ، ومن سهولتها أنها في شهر معين يشترك فيه جميع المسلمين ، ولا ريب أن الاشتراك هذا من المهنات المسهلات ومن ألطاف المولى ومعوته للصائمين ، ثم سهل تسهيلاً آخر فقال « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » وذلك للمشقة غالباً رخص الله لها في الفطر ، ولما كان لا بد من تحصيل العبد لمصلحة الصيام أمرها أن يقضيه في أيام أخر إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة وفي قوله (فعدة من أيام أخر) دليل على أنه يقضى عدد أيام رمضان كاملاً كان أو ناقصاً ، وعلى أنه يجوز أن يقضى أياماً قصيرة باردة ، عن أيام طويلة حارة كالعكس .

وبهذا أجبتنا عن سؤال ورد علينا : أنه يوجد مسلمون في بعض البلاد التي يكون في بعض الاوقات ليلها نحو أربع ساعات أو تنقص ، فيوافق ذلك رمضان ، فهل لهم رخصة في الاطعام إذا كانوا يعجزون عن تميمها

فأجبتنا : إن العاجز منهم في هذا الوقت يؤخره إلى وقت آخر يقصر فيه النهار ويتمكن فيه من الصيام كما أمر الله بذلك المريض ، بل هذا أولى ، وأن الذي يقدر على الصيام في هذه الأيام الطوال يلزمه ولا يحل له تأخيرها إذا كان صحيحاً مقبلاً ، هذا حاصل الجواب .

وقوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قيل هذا في أول الأمر وفي ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام ، وكان ابتداء فرضه حتماً فيه مشقة عليهم ، درجهم الرب الحكيم بأسهل ما يكون ، وخير المطبق للصوم بين أن يصوم ، وهو الأفضل الأكمل ، أو يطعم ويمجزيه ، ثم لما تمرنوا على الصيام وكان ضرورياً على المطيقين فرضه عليهم حتماً .

وقيل إن قوله (وعلى الذين يطيقونه) أى يتكفون الصيام ويشق عليهم مشقة لا تحتمل ، كالكبير والمريض الميثوس من برئه فدية طعام مسكين عن كل يوم يفطره .

وقوله (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) أى الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان ، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم من الله فيه الفضل العظيم ، وهو إنزال القرآن الذي فيه هدايتكم لجميع مصالحكم الدينية والدنيوية ، وفيه بيان الحق وتوضيحه ، والفرقان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، لتحقيق بشهر هذا فضله ، وهذا إحسان الله العظيم فيه عليكم أن يكون معظماً محترماً موصفاً للعباد مفروضاً فيه الصيام ؛ فلما قرر فرضيته وبين حكمته في ذلك وفي تخصيصه قال (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى من حضر الشهر وهو قادر تحتم عليه صيامه (ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) أعاد ذلك تأكيداً له ، ولئلا يظن أنه

أيضاً منسوخ مع ما نسخ من التخيير للقادر (يريد الله بكم اليسر) أى يريد الله أن ييسر ويسهل عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ليسهل سلوكها ، ويعين عليها بكل وسيلة ليرغب فيها العباد ؛ وهذا أصل عظيم من أصول الشريعة ، بل الشريعة كلها تدور على هذا الأصل ، فان جميع الأوامر لا تنشق على المكافين ، وإذا حصل بعض المشاق والعجز خفف الشارع من الواجبات بحسب ما يناسب ذلك ، فيدخل في هذا جميع التخفيفات في جواز الفطر ، وتخفيفات السفر والأعذار لترك الجمعة والجماعة .

وقوله (ولتكمّلوا العدة) وذلك لثلاثين يوم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود ببعضه دفع هذا الوهم بقوله (ولتكمّلوا العدة) وأمر بشكره على انتمائه ، لأن من أكبر منن الله على عبده توفيقه لانتمائه وتكميله وتبيين أحكامه للعبيد (ولتكبروا الله على ما هداكم) هداية التعليم وهداية التوفيق والارشاد .

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون ﴾

هذا سؤال وجواب ، أى إذا سألك العباد عن ربهم ، وبأى طريق يدركون منه مطالبهم ، فأجيبهم بهذا الجواب الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويوجب أن يعلق العبد بربه بكل مطلوب دينى ودنىوى ، فأخبرهم أن الله قريب من الداعين ، ليس على بابه حجاب ولا بواب ، ولا دونه مانع فى أى وقت وأى حال ، فاذا أتى العبد بالسبب والوسيلة ، وهو الدعاء لله المقرون بالاستجابة له بالايان به والانقياد لطاعته ، فليبشر بالاجابة فى دعاء الطلب والمسئلة ، وبالثواب والاجر والرشد إذا دعا دعاء العبادة ، وكل القربات الظاهرة والباطنة تدخل فى دعاء العبادة ، لأن المتعبد لله طالب بلسان مقاله ولسان حاله من ربه قبول تلك العبادة والاثابة عليها .

وفى هذه الآية تنبيه على الاسباب الموجبة لاجابة الدعاء التى مدارها على الايمان بالله وتحقيقه بالانقياد لله امثالاً لأمره واجتناباً لنهييه ، وتنبيه أيضاً على أن موانع الاجابة ترك تحقيق الايمان وترك الانقياد ، فأكل الحرام وعمل المعاصى من موانع الاجابة ، وهى تنافى الاستجابة لله ، وفيه تنبيه على أن الايمان بالله والاستجابة له سبب إلى حصول العلم ، لأن الرشد هو الهدى التام علماً وعملاً ، ونظير هذا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن تقنوا الله يجعل لكم فرقاناً » أى علماً تفرقون به بين الحق والباطل وبين كل ما يحتاج الى تفصيله .

﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم — إلى قوله — كذلك يبين الله آياته للناس لعلمهم يتقون ﴾

كان أول ما فرض الصيام منع المسلمون من الأكل والشرب في الليل إذا ناموا ، فحصلت المشقة لكثير منهم ، فخفف الله ذلك وأباح في ليالى الصيام كلها الأكل والشرب والجماع ، سواء نام أو لم ينم ، لكونهم يختارون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به لو بقي الأمر على ما كان أولاً ، فتاب الله عليكم بأن وسع لكم أمراً لولا توسعته لكان داعياً إلى الانتم والاقدام على المعاصي ، وعفا عنكم ما سلف من التخون .

فالآن بعد هذه الرخصة والسعة من الله (بأشروهن) وطئاً وقبلة ولمساً (وابتغوا ما كتب الله لكم) أى اقصدوا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله بذلك ، واقصدوا أيضاً حصول الذرية واعفاف الفرج وحصول جميع مقاصد النكاح ، وابتغوا أيضاً ليلة القدر ، فإنكم أن تشتغلوا بهذه اللذة وتوابها وتضيعوا ليلة القدر ، وهى مما كتبه الله لهذه الأمة ، وفيها من الخير العظيم ما يعد تفويته من أعظم الخسران ، فاللذة مدركة ، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك ، ولم يعوض عنها شيء (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) هذا غايه جواز الأكل والشرب والجماع في ليالى الصيام ؛ وفيه أن هذه الثلاثة إذا وقعت وصاحبها شاك في طلوع الفجر فلا حرج عليه ، ودليل على استحباب السحور ، وأنه يستحب تأخيرها أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد ، ودليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل لأن من لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر أن يدركه الفجر وهو جنب ، ولازم الحق حق ، ثم إذا طلع الفجر أتموا الصيام ، أى أمسكوا عن المفطرات إلى الليل ، وهو غروب الشمس

ولما كانت إباحة الوطء في ليالى الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد ، استثنى تعالى المعتكف بقوله (ولا تبأشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) أى وأنتم متصرفون بذلك ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف ؛ وهو لزوم المساجد لطاعة الله ، وإن الاعتكاف لا يصح إلا بمسجد ؛ ويستفاد من تعريف المساجد بالآلاف واللام أنها المساجد التى يعرفها المسلمون ، وأنها التى تقام فيها الصلوات الخمس وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف ، تلك المذكورات وهى تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوها من مفطرات الصيام ، وتحريم الوطء على المعتكف ونحو ذلك من المحرمات التى حدها لعباده ونهاهم عنها « فلا تقربوها » أى لا تفعلوها ولا تحوموا حولها وتفعلوا وسائلها ، والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد عنها بترك كل وسيلة تدعو إليها .

وأما الأوامر فيقول الله فيها « تلك حدود الله فلا تعتدوها » فينهاى عن مجاوزتها ، كذلك البيان السابق والتوضيح التام من الله لعباده « يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » فان العلم الصحيح سبب للتقوى لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه ، ومن علم الحق فتركه والباطل فاتبعه كان أعظم لجرمه وأشد لاثمه .

(فصل فى الحج وتوابعه)

قال الله تعالى ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين ﴾ وقال ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ إلى آخر الآيات المتعلقة بالحج

لما قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ؛ فيه آيات بينات ، مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً) وكان فى ذلك تنبيه على الحكم والأسرار والمصالح والبركات المتنوعة المحتوى هذا البيت العظيم عليها ، وكان ذلك داعياً إلى تعظيمه بغاية ما يمكن من التعظيم أوجب الله على العباد حجّه وقصده لاداء المناسك التى فعلها رسول الله ﷺ وعلمها أمته وأمرهم أن يأخذوا عنه مناسكهم ، فأوجبه على من استطاع اليه سبيلا ، بأن قدر على الوصول اليه بأى مركوب متيسر ويزاد يتزوده ويتم به السبيل ، وهذا هو الشرط الأعظم لوجوب الحج وهذه الآية صريحة فى فرضية الحج ، وأنه لا يتم للعبد اسلام ولا إيمان وهو مستطيع إلا بحجّه ، وأن الله إنما أمر به العباد رحمة منه بهم وإيصالا لهم إلى أجل مصالحهم وأعلى مطالبهم ، وإلا فالله غنى عن العالمين وطاعتهم ، فمن كفر فلم يلتزم لشرع الله فهو كافر ولن يضر إلا نفسه

وأما آية البقرة فان الله أمر فيها بإتمام الحج والعمرة بأركانها وشروطها وجميع متماتها ، ولا فرق فى ذلك بين الفرض والنفل ، وبهذا تميز الحج والعمرة عن غيرهما من العبادات ؛ وإن من شرع فيها وجب عليه إتمامها لله مخلصاً ، ويدخل فى الأمر بإتمامها أنه ينبغي للعبد أن يجتهد غاية الاجتهاد فى فعل كل قول وفعل ووصف وحالة بها تمام الحج والعمرة ، وذلك شئ كثير مفصل فى كتب أهل العلم ، وأن من دخل فيها فلا يخرج منها إلا بإتمامها والتحلل منها إلا بما استثناه الله وهو الحصر ، ولهذا قال (فان أحصرتم) أى منعتم من الوصول إلى البيت ومن تتميم المناسك بمرض أو عدو أو ذهاب نفقة أو ضلتم الطريق أو غير ذلك من أنواع الحصر الداخلة فى عموم قوله (أحصرتم) فاذبحوا ما تيسر من الهدى وهو شاة أو سبع بدنة أو سبع بقرة يذبحها الحصر ويحلق رأسه ويحل من احرامه بسبب الحصر ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما صدم المشركون عن البيت وهم محرمون عام الحديبية ، فان لم يتيسر الهدى على الحصر فهل يكفيه الحلق وحده ويحل ، كما فعله الصحابة الذين لم يكن معهم هدى ، وهو الصحيح ، أو ينوب عن الهدى صيام عشرة أيام قياساً على هدى التمتع كما قاله آخرون ثم يحل ؟ ثم قال تعالى (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله)

وفى هذا أن المحرم يحرم عليه إزالة شئ من شعر بدنه تعظيماً لهذا الذسك ، وقاس عليه أهل العلم

ازالة الأظفار بجماع الترفه ، ويستمر المنع من ذلك حتى يبلغ الهدى محله ، وهو وقت ذبحه يوم النحر ، والأفضل أن يكون الحاق بعد النحر ، ويجوز أن يقدم الحلق على النحر كما رخص في ذلك النبي ﷺ حين سئل عن قدم الحلق أو الرمي أو الذبح أو الطواف بعضها على بعض . فقال افعل ولا حرج .

ويستدل بالآية الكريمة على أن المتمتع كالقارن والمفرد لا يحل من عمرته إذا كان سائقا للهدى حتى يبلغ الهدى محله ، وقيل إنه إذا حل من عمرته بأن فرغ من الطواف والسعى بادر بالدخول بالحج بالنية ، وقيل إنه بسوته للهدى صار قارنا ، وأن الهدى الذي استصحبه حيث أنه كان للنسكين كليهما مخرج بين النسكين وصار صاحبه قارنا ، وهذا هو القول الصواب ، وإنما منع تعالى من الحل لمن ساق الهدى قبل محله ، لما في سوق الهدى وما يتبعه من كشف الرأس وترك أخذ الشعور ونحوها من الذل والخضوع لله والانكسار له والتواضع الذي هو روح هذا النسك وعين صلاح العبد وكاله ، وليس عليه في ذلك ضرر ، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من رأسه من مرض ينتفع بحلق رأسه أو قروح أو قمل أو نحو ذلك ، فانه يحل له أن يحلق رأسه ، ولكن يكون عليه فدية تخيير ، بخير بين صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين ، أو ذبح شاة ، وهذه تسمى فدية الأذى وألحق بذلك إذا قلم أظفاره ، أو لبس الذكر الخيط ، أو غطى رأسه ، أو تطيب المحرم من ذكر وأنثى ، فكل هذا فديته فدية تخيير بين الصيام أو الإطعام أو النسك

وأما فدية قتل الصيد فقد ذكر الله التخيير فيها بين ذبح المثل من النعم أو تعويمه بطعام فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره ، أو يصوم عن اطعام كل مسكين يوماً ، فهذه الأنواع فديتها تخيير .

وأما المتمتع والقارن ، فان هديهما هدى نسك ، غير هدى جبران ، وهو على الترتيب ، إن تيسر الهدى وجب الهدى ، فان لم يتيسر فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة في الحج ولا يؤخرها عن أيام التشريق ، وسبعة إذا رجع - أى فرغ من جميع شئون النسك - ودل اطلاق إيجاب الصيام على أنه يجوز فيها التتابع والتفريق (ذلك) أى وجوب الهدى على المتمتع والقارن ، أو بدله لمن لم يجد من الصيام ، لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ، وهم الأقيية ، لأن من الحكمة في إيجاب الهدى على الأقيية أنه لما حصل نسكين في سفرة واحدة كان هذا من أعظم نعم الله ، فكان عليه أن يشكر الله على هذه النعمة الجليلة ، ومن جملة الشكر إيجاب الهدى عليه .

وأما المقيمون في مكة أو كانوا في قربها بحيث لا يقال لهم مسافرون ، فليس عليهم هدى ولا بدله لما ذكرنا من الحكمة (واتقوا الله) في جميع أموركم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور في هذه العبادة الجليلة واجتنابكم لحظوراتها (واعلموا أن الله

شديد العقاب) أى لمن عصاه ، وذلك موجب للتقوى ، فإن من خاف عقاب الله انكشف عن السيئات ، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب ، وأما من لم يخف الله فإنه لا بد أن يتجرأ على المحارم ويتهاون بالفرائض .

ثم أخبر تعالى أن الحج واقع في أشهر معلومات عند المخاطبين ، بحيث لا تحتاج إلى تعيين كما احتاج الصيام لتعيين شهره ، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس ، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته معروفة بينهم ، والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور : شوال وذو القعدة ، وعشر أو ثلاثة عشر من ذى الحجة ، فهي التي يقع فيها الاحرام بالحج غالباً ، وهي التي تقع فيها أفعال الحج ، أركانه وواجباته ومكملاته ، فمن فرض فبين الحج أى عهده وأحرم به ، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان قبل ذلك نفلاً .

واستدل بهذه الآية الشافعى ومن قال بقوله : انه لا يجوز الاحرام بالحج قبل أشهره ، ولو قيل إن الآية فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الاحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً ، لأن قوله (فمن فرض فبين الحج) دليل على أنه يقع الفرض فبين وفي غيرهن ، وإلا لما كان في القيد فائدة « فلا رفق ولا فسوق ولا جدال في الحج » أى يجب عليكم أن تعظموا حرمة الاحرام بالحج ، وخصوصاً الواقع في أشهره ، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفق ، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والتولية ، خصوصاً التكلم في أمور النكاح بحضرة النساء « ولا فسوق » وهو جميع المعاصي ، ومنها مخطورات الاحرام « ولا جدال » والجدال هو الماراة والمنازعة والمخاصمة لكونها تثير الشر وتوقع العداوة ، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله والتقرب اليه بما أمكن من القربات والتزهد عن مقارفة السيئات ، فانه يكون بذلك مبروراً ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل زمان ومكان ، فانه يتأكد المنع منها في الحج . واعلم أنه لا يتم التقرب الى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر فهذا أتبعه بقوا (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) أتى بمن المفيدة لتنصيب العموم فكل عبادة وقربة فائدتها تدخل في هذا ، والاعمال بعلمه يتضمن الحث على أفعال الخير خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمان المنيعة فانه ينبغي اغتنام الخيرات والمنافسة فيها من صلاة وصيام وصدقة وقراءة وطواف واحسان قولى وفعلى وتزودوا لهذا السفر المبارك فان التزود فيه الاستغناء عن الخلق وعدم التشوف لما عندهم وأعانة المسافرين والتوسعة على الرفقة والانبساط والسرور في هذا السفر وزيادة التقرب الى الله تعالى وهذا الزاد المراد به اقامة البنية بلغة ومتاع وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وآخره فهو زاد التقوى الذى هو زاد الى دار القرار وهو الموصل لأكل لذة وأجل نعيم دائماً أبداً ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذى هو عرضة لكل شر وممنوع من الوصول الى دار المتقين وقد يتمكن

الموفق من جعل الزاد الحسى يحجم الزادين بأن يقصد به وجه الله والقيام بواجب النفس والرفقة ومن يتصل به ، والقيام بالاحسان المستحب وقصد امتثال أمر الله ، فالنية هى الأساس لكل خير التى تجعل الناقص كاملاً والمادة عبادة ، ثم قال « واتقون يا أولى الألباب » أى يا أهل العقول الرزينة اتقوا ربكم الذى تقواه أعظم ما تأمر به العقول ، وتركها دليل على فساد العقل والرأى .

ولما أمر بتقواه أخبر أن ابتغاء فضله بالاستغفال بالتكسب فى التجارة فى مواسم الحج وغيرها ، ليس فيه حرج إذا لم يشغل مما يجب إذا كان المقصود هو الحج وكان التكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله معترفاً فيه بنعمة الله ، لا منسوباً إلى حذى العبد والوقوف مع السبب ونسيان المسبب ، فإن هذا هو الحرج بعينه فى كل وقت ، فكيف إذا قارن النسك الفاضل ، وفى قوله « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » دلالة على أمور :

أحدها : أن الوقوف بعرفة من المشاعر الجليلة ، ومن أركان الحج ، فإن الافاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف الذى هو ركن الحج الأعظم بعد الطواف .

الثانى : الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام ، وهو المزدلفة ، وذلك أيضاً معروف يكون الحاج ليلة النحر بائناً بها ، وبعد صلاة الفجر يقف فى المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً .

ويدخل فى ذكر الله عند المشعر الحرام ما يقم فى المشعر من الصلوات فرضها وتقلها

الثالث : أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة ، كما تدل عليه الفاء المفيدة للترتيب

الرابع والخامس : أن عرفات ومزدلفة كليهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها .

السادس : أن مزدلفة فى الحرم كما قيده بالمشعر الحرام

السابع : أن عرفة بالحل كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة « واذكروه كما هداكم وإن كنتم من

قبله لمن الضالين » أى اذكروا الله كما من عليكم بالهداية بعد الضلالة ، وكما علمكم ما لم تكونوا

تعلمون ، فهذه من أكبر النعم التى يجب شكرها ومقابلتها بالكثير من ذكر المنعم بالقلب

واللسان « ثم أفيضوا » أى من مزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن إبراهيم إلى هذا الوقت

والمقصود من هذه الافاضة كان معروفاً عندهم ، وهو رمى الجمار وذبح الهدايا والطواف والسمى

والمبيت بمعنى ليالى أيام التشريق ، وتكميل بقية المناسك .

ولما كانت هذه الافاضة يقصد بها ما ذكر ، والمذكورات آخر المناسك ، أمر تعالى بعد

الفراغ منها باستغفاره ، خشية الخلل الواقع من العبد فى أداء العبادة وتقصيره فيها ، وبالكثير

من ذكره شكراً له على نعمة التوفيق لهذه العبادة العظيمة وتكملها ، وهكذا ينبغى للعبد كلما

فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير ويشكره على التوفيق ، فهذا حقيق بأن الله يجبر له

ما نقص منها ويتقبلها ويزيده نعماً أخرى ، لا من جهل حق ربه فرأى نفسه أنه قد كمل حقوق

العبادة فأعجب بنفسه ومنّ بعبادته على ربه ، وتراعى له أنه قد جمع له محلاً ومنزلة رفيعة ،
فهذا حقيق بالمقت ويخشى عليه من رد العمل .

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق ، وأن الجميع يسألونه مطالبهم ، ويستدفعونه ما يضرهم ؛
ولكن همهم ومقاصدهم متباينة ، فمنهم من يقول « ربنا آتنا في الدنيا » أى يسأل ربه من
مطالب دنياه وشهواته فقط « وما له في الآخرة من خلاق » لا رغبة له فيها ولا حظ له منها ،
ومنهم على الهمة من يدعو الله لمصلحة الدارين ، ويفتقر الى ربه في مهمات دينه ودنياه ، وكل
من هؤلاء وهؤلاء له نصيب من كسبهم وعملهم ، وسيجازيهم الله على حسب أعمالهم ونياتهم ،
جزاء دائراً بين الفضل والاحسان والكرم للمقبولين ، وبين العدل والحسكة لغيرهم ، وفي هذه
الآية دليل على أن الله تعالى يقبل دعوة كل داع مسلماً كان أو كافراً براً أو فاجراً ، ولكن ليست
أجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته وقربه منه إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين ، فمن
أجبت دعوته في هذه الأمور الدائم فمعها كان من البشرى ، وكان أكبر دليل على بره
وقربه من ربه .

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد وما به تكلل حياته ،
من رزق هنيء واسع حلال ، وزوجة سالحة ، وولد تقرأ به العين ، ومن راحة وعلم نافع وعمل
صالح ، وما يتيم ذلك من المطالب النافعة المحبوبة والمباحة .

وأما حسنة الآخرة ، فهي السلامة من العقوبات التي يستقبلها العباد من عذاب القبر
والموقف وعذاب النار ، وحصول رضا الله والفوز بالنعيم المقيم والقرب من الرب الرحيم ،
فهذا الدعاء أجمع الادعية وأكملها وأولها بالايثار ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر
من الدعاء به ويحث عليه

ولما أكمل الله تعالى أحكام النفسك أمر بالاكثار من ذكره في الايام المعدودات ، وهي أيام
التشريق في قول جمهور المفسرين ، وذلك لمزيتها وشرفها وكون بقية المناسك تفعل بها ،
والكون الناس فيها أضيافاً لله ، ولهذا حرم صيامها ، فلذا ذكر فيها مزية ليست لغيرها ؛ ولهذا
قال النبي صلى الله عليه وسلم « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله » ويدخل في ذكر الله
رمى الجمار والتكبير عند رميها ، والدعاء بين الجمرتين ، والدبح والتسمية فيه ، والصلوات التي
تفعل فيها من فرائض ونوافل ، والذكر المقيد بعد الفرائض فيها ، وعند كثير من أهل العلم
أنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر ، فجميع ما يقرب إلى الله داخل بذكره (فمن تعجل في
يومين) أى خرج من منى ونفر منها قبل غروب الشمس فلا إثم عليه ، ومن تأخر بأن بات بها
ليلة الثالث من أيام التشريق ليرى من غده فلا إثم عليه ، وهذا تخفيف من الله على عباده حين

أباح الأهلين مع أن التأخر أرجح لموافقته فعل النبي ﷺ وزيادة العبادات ، وقوله (لمن اتقى) هذا من الاحتراز العالى ، لأن نفي الحرج يوم العموم ، فقل ذلك بهذا الشرط الذى هو شرط لنفي الحرج فى كل شئ ، (واذقوا الله) بامتنال أوامره واجتناب نواهيه (واعلموا أنكم اليه تحشرون) فجازيكم بأعمالكم ، فمن اتقاء وجد عنده جزاء المتقين ، ومن لم يتقه عاقبه عقوبة تارك التقوى ، فان التقوى هى ميزان الثواب والعقاب فى القائم بها والمضيع لها ، فالعلم بالجزاء والإيمان به هو أعظم الدواعى للقيام بالتقوى .

وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا ؛ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود

يذكر الله تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته ، وعظمة بانيه ، وهو خليل الرحمن فقال « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » أى هيئناه له وأزلناه إياه ، بحيث جعل قسما من ذريته هم سكانه وأمره الله ببنيانه ، فبناه وأسس على تقوى الله ورضوانه هو وابنه اسماعيل بنية صادقة وخضوع لله وإخلاص ودعاء منهما أن يتقبل منهما هذا العمل الجليل ، فتقبله الله .

فهذه آثار القبول لهذا البيت فى كل وقت وجيل متواصلة ، ووصاه بأن لا يشرك به شيئا ، بأن ينفى الشرك عنه وعن ذريته ، وعمن وصلت اليه دعوته « وطهر بيتى » أى من الشرك والمعاصى ، ومن الأنجاس والأدناس ، وأضافه إلى نفسه ليكتسب شرفا إلى شرفه ، ولتعظم محبته فى القلوب ، لا كونه بيت محبوبها الأعظم ، وتنصب وتهوى اليه الأفئدة من كل جانب وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه للطائفين به ، والقائمين عنده للعبادات المتنوعة « والركع السجود » أى المصلين ، أى طهره لهؤلاء الفضلاء الذين ليس لهم هم إلا طاعة مولاهم وما يقربهم اليه ، فهؤلاء لهم الحق ، ومن أكرامهم تطهير هذا البيت لهم وتهيئته لما يريدونه عنده ، ويدخل فى تطهيره ، تطهيره من الأصوات اللاغية المرتفعة التى تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف والقراءة وغيرها ، وقدم الطواف لاختصاصه بهذا البيت ، ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد (وأذن فى الناس بالحج) أى أعلمهم به وأدعهم اليه ، وبلغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته ، فانك إذا دعوتهم عن أمر الله أتوك حجا - اجأ وعمارا « رجالا » أى مشاة على أرجلهم من الشوق ، وعلى كل ضامر ، أى ناقة ضامر تقطع المهامه والمفاوز وتواصل السير حتى تأتى إلى أشرف الأماكن « من كل فج عميق » أى مكان وبلد بعيد ، وقد فعل الخليل صلى الله عليه وسلم ذلك ، ثم من بعده ابنه محمد صلى الله عليه وسلم فدعيا الناس إلى حج هذا البيت ، وأبدى وأعاد فيه فصل ما وعد الله به ، أتاه الناس رجالا وركبانا من مشارق الارض ومغاربها ؛

ثم ذكر فوائد زيارة بيت الحرام مرغبا فيه فقال (ليشهدوا منافع لهم) أى لينالوا بوصولهم لبيت الله فى الانسك منافع متنوعة دينية ، ومنافع دنيوية كالتكسب وحصول الارباح ، وهذا أمر مشاهد يعرفه كل أحد ، فجميع العلوم والعبادات الدينية التى تفعل فى تلك البقاع الفاضلة ، وما جعل الله لها من التضعيف داخل فى هذه المنافع ، وجميع المنافع الدنيوية التى لاتعد ولا تحصى داخله فى ذلك فصدق الله وعده ، وأنجز ما قاله ، وكان ذلك آية وبرهانا على توحيد ، وصدق رسوله

وقوله (وبذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) وهذه تجمع الأمرين : الدينية والدنيوية أى ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكراً لله على ما رزقهم منها ويسرها لهم ، فاذا ذبحتموها (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) أى شديد الفقر ، والآية الأخرى (القانع) وهو الفقير الذى لا يسأل الناس (والمعتز) الفقير السائل. وفى هذا الأمر بالأكل والاهداء والصدقة فإن الأمر يشمل أكل أهلها منها وإهداءهم للأغنياء (ثم ليقتضوا نفقهم) أى يستكملوا بقية إنساكهم ويزيلوا عنهم محظورات الاحرام وما ترتب عليها من الشعث ونحوه (وليوفوا نذورهم) التى أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا فنفس عقد العبد للاحرام ايجاب منه على نفسه (وليطوفوا بالبيت العتيق) أى القديم أقدم المساجد على الاطلاق ، المعتقد من تسلط الجبابرة عليه ، وتخصيص الطواف به دون غيره من المناسك لفضله وشرفه ، ولكونه المقصود وما قبله وما بعده وسائل وتوابع ، ولأنه يتعبد به لله مع الانسك ووحده وأما بقية الانسك فلا تكون عبادة إلا إذا كانت تابعة للانسك

فصل فى آيات تتعلق بالجهاد وتوابعه

قال الله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) الآيات
كان المسلمون فى أول الأمر مأمورين بكف الأيدي عن قتال الكفار ، وإنما جهادهم بالدعوة لحكمة ظاهرة ، فلما اضطهدوا واضطرمم الأعداء إلى ترك بلادهم وأوطانهم وقتلوا من قتلوا وحبسوا من حبسوا ، وجدوا فى العداوة البليغة بكل طريق ، وهاجر المسلمون بسبب ذلك إلى المدينة وقراهم الله على قتال الأعداء ، وقد رماهم الأعداء عن قوس واحدة ، فحينئذ أذن الله لهم فى القتال ولهذا قال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) لمنعهم من دينهم وإخراجهم من ديارهم ومطاردتهم لهم فى كل مكان (وإن الله على نصرهم لقدير) وهذا مع أمره لهم بفعل الأسباب ومقاومة الأعداء بكل مستطاع أمر لهم بالتوكل عليه واستنصاره والطلب منه

ثم ذكر صفة عدوانهم فقال (الذين أخرجوا من ديارهم) بالأذية والفتنة بغير حق إلا أن ذنبهم إيمانهم بالله واعترافهم بأنه ربهم وإلههم ، وأنهم أخلصوا له الدين وتبرؤا من عبادة الخلقين

وهذا كما قال تعالى (وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وهذا ظاهر في حكمة الجهاد وعظم مصلحته ، وأنه من الضروريات في الدين فإن المقصود به إقامة دين الله والدعوة إلى عبادته التي خلق الله المساكين لها ، وأوجبها عليهم ودفع كل من قاوم الأمر الضروري ومقاومة الظالمين المعتمدين على دين الله وعلى المؤمنين من عبادته كما قال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ولهذا قال (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) فلولاً مدافعة الله الناس بعضهم ببعض بأسباب متعددة وطرق متنوعة قدرية وشرعية وأعظمها وأجلها وأزكاه الجهاد في سبيله لاستتولى الكفار الظالمون ومحققوا أديان الرسل فقتلوا المؤمنين بهم وهدموا معابدهم ، ولكن أطفأ الله عظمته ، وأياديه جسيمة ، وبهذا وشبهه يعرف حكمة الجهاد الديني ، وأنه من الضروريات لا كقتال الظلمة المبني على العداوات والجشع والظلم والاستعباد للخلق ، بل الجهاد الإسلامي مرماه وغرضه الوحيد إقامة العدل وحصول الرحمة واستعباد الخلق لخالقهم ، وأداء الحقوق كلها ونصر المظلومين وقمع الظالمين ، ونشر الصلاح والإصلاح المطلق بكل وجه واعتبار ، وهو من أعظم محاسن دين الإسلام

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط)

هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء ، والارشاد إلى الأسباب التي ينبغي للجيش والمجاهدين الأخذ بها ، فمن أعظمها وأهمها أمران : الصبر وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود في تحصيل ذلك ، والثاني التوكل على الله والتضرع إليه والاكثار من ذكره ، فتنى اجتماع الأمرين على وجه الكمال والتكامل فتدأى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح فابشروا بنصر الله وليثقوا بوعده

فيدخل بالأمر بالصبر والثبات تمرين النفوس على ذلك فانه من يتصبر يصبره الله ، وتعلم الرمي والركوب والفنون العسكرية المناسبة للزمان ، فإن التعاليم وتعلم أمور الجهاد من أكبر العون على الثبات والصبر ، ومن ذلك الحث على الشجاعة والسعى في أسبابها والترغيب في فضائل الجهاد وما فيه من الثمرات العاجلة والآجلة وما في تضيقه من ضياع الدين والدنيا واستيلاء الأعداء والذل والدمار ، فإن النفوس الأبية والهمم العلية لا ترضى لأنفسها بغير هذا الخلق الفاضل الذي هو أعلى الأخلاق وأنفعها قال تعالى (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) فحنهم على الصبر بتألمهم وطعنهم في الأجر والثواب وإدراك المقامات العالية

وقال أيضا في ذم الناكثين وترغيب التائبين الصابرين (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطنًا يعطي الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وقال عن المناقذين ونكولهم عن مشقة الجهاد (وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يتقنون) أى لو كان عندهم فقه نافع في تنزيل الأشياء منازلها وتقديم ما ينبغي تقديمه لآثروا مشقة الجهاد على راحة القعود الضار عاجلاً وآجلاً

وفي هذا انه بحسب فقه العبد وعلمه وبقينه يكون قيامه بالجهاد وصبره عليه وثباته ، ومن دواعي الصبر وهو من الفقه أيضاً أنه إذا علم المجاهد انه على الحق ويجهد أهل الباطل ان هذا أعلى الغايات وأشرفها وأحقها وأن الحق منصور وعاقبته حميدة

ومن دواعي الصبر الثقة بالله وبوعده فان الله وعد الصابرين العون والنصر ، وانه معهم في كل أحوالهم ومن كان الله معه فلو اجتمع عليه من بأقطارها لم يخف إلا الله ، وما يعين على الصبر والثبات . (الأمر الثاني) وهو التوكل على الله وقوة الاعتماد عليه والتضرع إليه في طلب النصر والاكثار من ذكره كما قال تعالى هنا حيث رتب على هذا الفلاح (واذكروا الله كثيراً لعلمكم تفلحون) . وقال تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وقال تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله) أى تقوموا بدينه وبالحق الذى جاء به رسوله مخلصين لله قاصدين أن تكون كلمة الله هي العليا ينصركم ويثبت أقدامكم وقال تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فإخباره بأنه المتفرد بنصرهم وأن غيره لا يملك من النصر شيئاً وأمرهم بالتوكل عليه أمرهم بأقوى الأسباب النافعة في هذا المقام العظيم ، وقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه . أليس الله بكاف عبده) أى الذى قام بعبوديته فبحسب توكلهم عليه وقيامهم بعبوديته يحصل لهم النصر والكفاية التامة

ومن أسباب النصر والصبر والثبات اتفاق القلوب وعدم التفرق والتنازع ، فان ذلك محلل للقوة موجب للفشل وأما اجتماع الكلمة وقيام الأئمة بين المؤمنين واتفاقهم على إقامة دينهم وعلى نصره فهذا أقوى القوى المعنوية التي هي الأصل والقوة المادية تبع لها ، والسكال الجمع بين الأمرين كما أمر الله بذلك في هذه الآية وفي قوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) الآية

ومن أسباب الثبات والنصر حسن النية وكمال الاخلاص في إعلاء كلمة الحق فانها حاد

تعالى من مشايبة الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورفاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، فمؤلا لما لم يعتمدوا على ربهم وأعجبوا بأنفسهم وخرجوا أشرين بطرين ، وكان قتالهم لنصر الباطل باءوا بالخيبة والفشل والخذلان ، ولهذا أدب خيار الخلق لما حصل من بعضهم الاعجاب بالكثرة في غزوة حنين حيث قال القائل : لن نغاب اليوم عن قلة . فقال « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » فلما زال هذا الأمر عنهم وعرفوا ضعفهم وعاقبة الاعجاب « انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها » الآية

ومن الأسباب التي أرشد الله اليها في القتال : الثبات والصبر وحسن التدبير ، والنظام الكامل في جميع الحركات العسكرية ، قال تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم »

وكان ﷺ يرتب الجيش وينزلهم منازلهم ، ويجعل في كل جبهة كفؤها ، ويسد الثغرات التي يخشى أن يتسرب منها العدو ، يحفظ المكامن ، ويبعث العيون لتعرف أحوال العدو ، ويستعين بمشاورة أصحابه كما أمر الله بذلك ، خصوصاً في هذا الأمر المهم ، وتعرف أسرار العدو وبث العيون ووضع الجواسيس السريين الذين لا يكاد يشعر بهم ، كما أن من المهم التحرز من جواسيس العدو وعمل الأسباب لأخذ الحذر من ذلك بحسب ما يليق ويناسب الزمان والمكان

ومن المهم أيضاً أن تفعل جميع الأسباب الممكنة في اخلاص الجيوش وقتالها عن الحق ، وأن تكون غايتها كلها واحدة لا يزعزعها عن هذا الغرض السامي فقد رئيس ، أو انحراف كبير أو تزعزع مركز قائد أو توقف في صمودها في طريقها النافع على أمور خارجية ، فانه متى كانت هذه الغاية العالية هي التي يسعى لها أهل الحل والعقد ، ويعملون لها التعليمات القولية والفعلية ، كانت الجيوش التي على هذا الوصف مضرب المثل في الكمال وسداد الأحوال وحصول المقاصد الجليلة ، ولهذا أرشد الله المؤمنين يوم أحد إلى هذا النظام العجيب ، فقال تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فان يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين)

ففيهم على أنه وإن كان محمد هو الامام الأعظم والرسول المعظم ، فانه لا ينبغي لكم أن يفترق عنه في عزيمتكم وانحلال قوتكم ، بل أنتم تقاتلون الله ، وعلى الحق الذي بعث به رسوله ، ولدفع الباطل والشرور ، فاجعلوا هذه الغاية نصب أعينكم وأساس عملكم ، وامضوا قدماً في سبيل الله غير هائبين ولا متأثرين إذا أتت الأمور على خلاف مرادكم ، فان الأمور هكذا تكون : تارة لك وتارة عليكم ، والكمال كل الكمال أن يكون العبد عبداً لله في الحالين ، في السراء والضراء ، في حال أتيان الأمور على ما يحب ، أو ضد ذلك ، وهذا الوصف هو كمال الفرد وكمال الجماعات والله الموفق

ومن الأمور المهمة جداً أن يكون الرئيس رحيماً برعيته ، ناصحاً محباً للخير ساعياً فيه جهده ، كثير المراودة والمشاورة لهم ، خصوصاً لأهل الرأي والحجى منهم ؛ وأن تكون الرعية مطيعة منقادة ليس عندهم منازعات ولا مشاغبات ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) أى إذا حصل النزاع فى أى أمر من الأمور ، خصوصاً فى الأمور المتعلقة فى سياسة الحرب ، ردت إلى هذا الأصل الذى يطمئن إليه المؤمنون ، ويلجأ إليه كبارهم وصغارهم ، لعلمهم أنه فرض على جميعهم ، ولعلمهم أن حكم الله ورسوله هو الخير والصالح ، وأن الله يعلم من مصالحهم ما لا يعلمون ويرشدكم إلى كل ما به ينتفعون .

ومن الأمور المهمة جداً سلوك طريق الحق والعدل فى قسمة الغنائم ، وأن لا تكون ظالمة مستبدّاً بها الاقوياء ، محروماً منها الضعفاء ، أو تكون فوضى ، فإن هذين الأمرين مع ضررها فى الدين ، وأن هذا لا يحل ولا يجوز ، وهو من أعظم المحرمات ، فإنهما يضران غاية الضرر فى الجيوش فى وقوع العداوات وحصول الجشع والطمع وكون وجهتها تكون متباينة ، فبذلك ينحل النظام ويقع الفشل ويكون هذا الأمر أعظم سلاح للأعداء على المسلمين

ومن الأمور المهمة جداً أيضاً ، وهى عون كبير فى الحروب ، السعى بقدر الاستطاعة فى إيقاع الانشقاق فى صفوف الأعداء ، وفعل كل سبب يحصل به تفريق شملهم وتفریق وحدتهم ، ومهادنة من يمكن مهادنته منهم ، وبذل الأموال للرؤساء إذا غلب على الظن أن ينكف شرم عن المسلمين فكم حصل بهذا الطريق من نكاية العدو ما لا يحصل بالجيوش الكثيرة ، ولهذا قال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم قاتلوكم) فذكر الله هذه المصلحة العظيمة فى الكف عن أمثال هؤلاء الموصوفين .

وللموقفين من الرؤساء وقواد الجيوش فى هذه الأمور مقامات معروفة صار لهم فيها اليد البيضاء على المسلمين .

فانظر إلى هذه التعاليم الالهية التى هى النظام الكامل الوحيد فى جميع الأزمنة والامكنة ، واستدل بذلك على أن الاسلام الحقيقى هو الدين الحق الذى اليه مآجاً الخليقة وبه سعادتها وسلامتها من الشرور ، وأن النقص والهبوط بتضييع تعاليم هذا الدين الذى أكله الله وأنتم به النعمة على المؤمنين

فصل في البيوع وأنواع المعاملات

قال الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) الآيات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ الآية ، وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » الآية « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه -- إلى قوله -- واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم »

اشتملت هذه الآيات الكريئات على أحكام جمة وفوائد مهمة ، منها أن الأصل في البيوع والمعاملات والتجارات كلها الحل والاطلاق ، كما هو صريح هذه الآيات ، لافرق بين تجارة الادارة التي يديرها التجار بينهم ، هذا يأخذ العوض ، وهذا يعطى المعوض ، ولا بين التجارة في الديون الحال فمنها المؤجل ومنها كالمسلم ، وبيع السلع بأثمان مؤجلة لعموم قوله (إذا تداينتم بدين) ولا بين تجارة التربص والانتظار ، بأن يشتري السلع في أوقات رخصها وينتظر بها الفرض من مواسم وغيرها ، ولا بين التجارة بالتصدير والتوريد من محل إلى آخر ، ولا بين التجارة والتكسب أفراداً ومشتركين ، فكل هذه الأنواع وما يتبعها قد أباحها الشارع وأطلقها لعباده رحمة بهم وقياماً لمصالحهم ودفعاً للاضرار عنهم ، وكلها جائزة بما يقتزن بها ويتبعها من شروط ووثائق ونحوها إذا سلمت من المحاذير الشرعية التي نهي الله عليها ورسوله ، بدخل في هذا العموم جميع أجناس المبيعات وأنواعها وأفرادها من عقارات وحيوانات وأمتعة وأطعمة وأواني وأشربة وأكسية وفرش وغيرها وكلها لا بد أن تقتزن بهذا الشرط الذي ذكره الله ، وهو التراضى بين المتعاضدين ؛ الرضا الصادر عن معرفة ، وأما السفیه والمجنون ومن لا يعتبر كلامه ، فوليّه يقوم مقامه في معاملاته

وأعظم المحاذير المانعة من صحة المعاملات : الربا والغرر والظلم .

فالربا الذي حرمه الله ورسوله يدخل فيه ربا الفضل ، وهو بيع المكيّل بالمكيّل من جنسه متفاضلاً ، وبيع الموزون بالموزون من جنسه متفاضلاً ، ويشترط في هذا النوع في حله ما شرط الشارع ، وهو انتاثل بين المبيعين بمعيّاره الشرعي ، مكيلاً كان أو موزوناً ، والقبض للعوضين قبل التفرق . وربي النسبة : وهو بيع المكيّل بالمكيّل إلى أجل ، أو غير مقبوض - ولو من غير جنسه - وبيع الموزون بالموزون إلى أجل أو بلا قبض ، ويستثنى من هذا السلم .

وأشد أنواع هذا النوع قلب الديون في الذم ، وهو الذي ذكره بقوله (لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) وذلك إذا حل ما في ذمة المدين ، قال له الغريم : إما أن تقضيني ديني ، وإما أن تزيد ما في ذمتك ، فيتضاعف ما في ذمة المعسر أضعافاً مضاعفة بلا نفع ولا انتفاع ، وذلك أن

المعسر قد أوجب الله على غريمه إنظاره كما قال تعالى (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) وسواء كان قلب الدين المذكور صريحاً أو يتحيل عليه بحيلة ليست مقصودة ، وإنما يراد بها التوصل إلى مضاعفة ما في ذمة الغريم ، فهذا الذى قد توعده الله بهذا الوعيد الشديد ، وأن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم إلى بعثهم ونشورهم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، أى من الجنون فيقومون مرعوبين منزعين قد اختلت حركاتهم لما يعلمون ما أمامهم من القلاقل والأهوال المزعجة والعقوبات لأكلة الربا ، وقد آذنتهم الله بمحاربته ومحاربة رسوله إذا لم يتوبوا ومن كان محارباً لله ورسوله فانه مخدول وإن عواقبه وخيمة ، وإن استدرج فى وقت فأخرا أمره الحق والبوار ، قال تعالى (يحق الله الربا ويربى الصدقات ، وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) فالمرابى يأخذه الأمن والغرور الحاضر ولا يدرك ما خبىء له فى مستقبل أمره ، وأن الله سيجمع له بين عقوبات الدنيا والآخرة ، إلا إن تاب وأتاب ، فإذا تاب فله ماسلف وأما العقود الحاضرة فالزيادة لا نحل ، وعليه أن ينزل على رأس ماله ، كما قال تعالى (وإن تبتم فلكم رهوس أموالكم لا تظلمون) بأخذ الزيادة ، ولا تظلمون بأخذ بعض رهوس أموالكم

ومن أنواع الربا القرض الذى يجبر نفعا ، فإن القرض من الاحسان والمرافق بين العباد ، فإذا دخلته المعاوضة وشرط المقرض على المقرض رد خير منه بالصفة أو المقدار أو شرط نفعا أو محاباة فى معاوضة أخرى ، فهو من الربا لأنه فى الحقيقة دراهم بدراهم مؤخرة ، والربح ذلك النفع المشروط ، فالله تعالى وعظ المؤمنين عن تعاطى الربا كله والمعاملة به ، وأن يكتفوا بالمكاسب الطيبة التى فيها البركة وصلاح الدين والدنيا ، وفيها تزكو الاخلاق ويحصل الاعتبار وحسن المعاملة والصدق والعدل وأداء الحقوق والسلامة من جميع التبعات .

ومن المحاذير فى المعاملات محذور الميسر والغرر ، فإن الله حرم فى كتابه الميسر وقرنه بالخرم وذكر مضار ذلك ومفاسده ، والميسر يدخل فى المعاملات كما يدخل فى المقالبات ، فسكا أن المراهقات والمقامرات وتوابعها من الميسر ، فالبيوع التى فيها غرر ومخاطرات وجهالات داخله فى الميسر ، ولهذا قال ﷺ كلمة جامعة نهى عن بيع الغرر ، فيدخل فى ذلك بيع الحمل فى البطن ، وبيع الآبق والشارد والشئ الذى لم ير ولم يوصف ، ودخل فيه بيع الملامسة والمنابذة وجميع العقود التى فيها جهالة بينة ، وذلك لأن أحد المتعاملين إما أن يغم ، وإما أن يفرم ، وهذا يخالف لمقاصد المعاوضات التى يقصد أن يكون العوض فى مقابلة العوض على وجه يستوى فيه علم المتعاضين ، فإذا جهل الثمن أو المثمن ، أو كان الأجل فى الديون غير مسمى ولا معلوم دخل هذا فى بيع الغرر والميسر الذى زجر الله عنه .

ومن المحاذير المنهى عنها فى المعاملات ، الظلم والغش والتدليس وبخس المكاييل والموازين

وبخس الحقوق أخذاً وإعطاءً ، بأن يأخذ أكثر مما له ، أو يعطى أقل مما عليه ، فهذا من أعظم المحرمات ، وقد توعد الله عليه بالعقوبات في الدنيا والآخرة ، وأهلك أمة عظيمة بسبب هذه المعاملة الخبيثة ، وهذه المعاملات المحرمة تدخل في قوله (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) كما يدخل فيه الغصب والسرقة ونحوهما .

وفي آية الدين من الفوائد سوى ما تقدم ، الأمر بكتابة المعاملات والشهاد عليها ، وأن يكون الكاتب عدلاً عارفاً بالكتابة وبما ينبغي أن يكتب ، وهذا الأمر للندب والاستحباب عند جمهور العلماء ، إلا إذا وجب حفظ المال وكان على دين مؤجل أو غير مقبوض ، فانه لا يتم حفظه إلا بذلك ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وفيها أن الكاتب لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق إن كان رشيداً ووليه إن كان عاجزاً ضعيفاً ؛ كالمجنون والصغير والسفيه ، وأن على صاحب الحق أن يقر بالحق كله من غير بخس ، أى نقص لعدده أو صفته

وتدل الآية أن الاقرار من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق في الذمم ، كما يثبت فيها براءة الذمم المشتغلة بالحقوق إذا أقر من له الحق بالاقباض أو الإبراء المعتبر ، وأنه لا يعذر من أقر لو ادعى الغلط أو الكذب ونحوه .

وفيها الارشاد إلى حفظ الحقوق بالشهاد والكتابة والرهن إذا احتيج اليه في سفر أو غيره وان نصاب الشهادة في المعاملات كلها من عقود وفسوخ وثبوت وشروط وإبراء ونحوها رجلان مرضيان إن أمكن ، وإلا فرجل واحد وامرأتان ، وثبت في السنة قبول شهادة الواحد مع يمين صاحب الحق .

وفيها أن شهادة الفساق والمجهولين غير مقبولة ، وأن الاعتبار بمن يرضاه الناس ويعتبرونه . وفيها أن شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل لكامل حفظ الرجل وقوة ذاكرته ، كما نبه عليه بقوله (أن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى)

وفيها دلالة أن من نسي شهادة فتذكرها ، أو ذكرها فتذكرها أن شهادته صحيحة . وفيها أنه لا يحل أن يشهد إلا بما علمه وتيقنه ، فان شك فيه لم يحل له أن يشهد .

وفيها بيان الحكمة العظيمة في هذه الارشادات من الرب في حفظ المعاملات ، وأن ذلك صلاح للعباد في معاملاتهم ؛ وأن تكون جارية على القسط ، وأنها تقطع الخصومات والمنازعات وتبriء الذمم وتمنع الظالم من ظلمه ، فلماذا قال (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) فكم حصل بهذه الوثائق التي أرشد الله اليها من مصالح عظيمة ، وكم اندفع بها من مفاسد وشرور كثيرة ، فسبحان من جعل شرعه صلاحاً لدين العباد ودنياهم .

وفيها أن التجارة الحاضرة لا بأس بترك كتابتها لكون التقاض يفتى غالباً عن ذلك ، ولمشقة

كثرة ذلك ، وأما الشهادة فلا ينبغي تركها خصوصاً في الأمور المهمة ، وقوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) يحتمل أنه مبنى للفاعل أو للمفعول ، والمعنى يشمل الأمرين ، فالكاتب والشهيد يجب عليه أن يعدل في كتابته وشهادته ، ولا يحل له أن يميل مع أحدهما لغرض من أغراضه ، ولا يضارهما بأخذ أجره لا تحل له على شهادته ، أو يماطل في شهادته وكتابته مماثلة تضرهما أو أحدهما ، وكذلك المعاملان لا يحل أن يضارا الكاتب والشهيد بأن يكلفاه ما لا يطيقه ، أو يتضرر به ، لأن الشاهد والكاتب محسنان ، حقهما أن يشكرا على ذلك ، فضارتهما تنافي ذلك . وفيها أن تعلم الكتابة من الأمور المحبوبة لله ، وأنه نعمة من الله على من علمه الله الكتابة فمن شكر هذه النعمة - أن لا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله .

ويستفاد من المعنى المقصود أن الله شرع هذه الأمور حفظاً للحقوق أنه ينبغي تعلم كتابة الوثائق والاصطلاحات الجارية بين الناس في المعاملات ، حتى يكون الكاتب بهذه الصفة التي يحرر فيها المعاملات فينتفع الناس بحفظ حقوقهم ، فلا يكفي مجرد الكتابة من غير معرفة بهذه الأمور ، كما أنه لا بد أن يكون الكاتب معتبراً ثقة ليحصل الاعتماد على كتابته والطمأنينة اليها . ويستفاد من هذا أن الخط المروف صاحبه وثقته أنه معتبر معمول به ليم المقصود من الكتابة في حياة الكاتب وبعد موته .

وفيها وجوب أداء الشهادة وتعيينها على من تحملها ، وأن كتمان الشهادة من كبائر الذنوب وكما أن شهادة الزور بأن يشهد بثبوت ما ليس بثابت ، أو بالبراءة من الحق الثابت وهو كاذب من أكبر الكبائر ، فكذلك السكوت عن أداء الشهادة ، وكلا الأمرين ظلم لصاحب الحق بتفويت حقه ، وظلم أيضاً للنفس بوقوع الائم ، وظلم للظالم لاعانته على الائم والمدوان .

وفيها مشروعية الوثائق بالحقوق ، وهي أربعة : الشهادة والرهن - كما هو مذكور في هذا الموضع - والضمان والكفالة ، يؤخذ من الاعتبار على هذا المعنى ، ومن قوله (وأنا به زعيم) أى كفيل وضامن ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وتقييد الرهن بالسفر لا يدل على أنه لا يكون رهن في الحضر ، بل قيد لأجل الحاجة اليه لعدم الكاتب غالباً .

وفيها ثبوت الولاية على القاصرين - لجنون أو صغر أو سفه - لقوله (فان كان صغيراً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل) فأقامه في التصرفات في ماله مقام المالك الرشيد وعليه أن يفعل في أموالهم ما هو الأصلح ، قال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن) ولا يدفع اليهم حتى يرشدوا ، ويعرف ذلك بالاختبار والتجربة كما قال تعالى (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم) وفيها في قوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) من الفوائد التنبيه على أن كل من فعل احساناً

ومعروفاً أن عليه أن يتممه ويكمله بالتسهيل والتيسير وعدم المضارة ، وأن للمحسنين على الناس أن يشكروا لهم معروفهم وأن لا يكافوهم الضرر والمشقة جزاءاً لهم على احسانهم وترغيباً في الاحسان واستدل بقوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم ، كما أن العلم سبب للتقوى ، وأوضح من هذا قوله تعالى (يأيتها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً) أى علماً تفرقون به بين الحق والباطل ، وبين الحقائق المحتاج إليها .

وفيها أنه كما أنه من العلوم النافعة تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات والمعاملات ، فمنه أيضاً تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات ، فان الله حفظ على العباد أمور دينهم وديارهم ، وكتابه العظيم فيه تبیان كل شيء .

وفيها أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ، بل بمجرد الاستئذان لقوله « فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته » ولكن في هذه الحال تتوقف الثقة على التقوى والخوف من الله وإلا فصاحب الحق مخاطر ، فلهذا وعظ الله من عليه الحق أن يؤدي أمانته ، ويؤخذ من هذا أن من عاملك ورضى بأمانتك ووثق فيك أنه قد فعل معك معروفاً وراك موضع الثقة والأمانة ؛ فيتأكد عليك اداء الأمانة من الجهتين ، اداء لحق الله ووفاء بحق من وثق فيك ومكافأة له .

(فصل)

قال الله تعالى ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ وقال يوسف ﴿ اجعلنى على خزان الأرض إني حفيظ عليم ﴾

يؤخذ من هاتين الآيتين أنه ينبغي أن يتخير في الاجارات والجمالات والأمانات والولايات كلها - كبيرة كانت أو صغيرة - من جمع الوصفين ، القوة على ذلك العمل ، والكفاءة والحفظ وتوابع ذلك من جميع ما تقوم به الأعمال . والأمر الثاني الأمانة ، فبالأمانة تتم به الثقة ويعلم نصحه وبذله الواجب ، وبالكفاءة والقوة يحصل العمل ويتم ويتقن ، فان وجد الجامع للوصفين على وجه الكمال فليستمسك بفرزه والا اكتفى بالأمثل فالأمثل ، ونقص الأعمال كلها من الاخلال بالوصفين أو أحدهما .

(فصل في آيات الموارث)

قال الله تعالى ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين - إلى قوله - تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات ﴾ الآية . والتي في آخر السورة « يستفتونك ، قل الله يفتيكم في السكالات » إلى آخرها .

تضمنت هذه الآيات الكريمات أحكام الموارث في غاية البيان والتفصيل والايضاح وفي غاية الحكمة ، فتوصيته للعباد بأولادهم من كمال رحمته وعنايته ، وأنه أرحم بهم من والديهم ، ولذلك وصى الوالدين بالأولاد ؛ فالأولاد عند والديهم وصايا من الله وأمانات عندهم على الوالدين أن يربوهم تربية نافعة لدينهم ودنياهم ، فان فعلوا فقد قاموا بهذه الأمانة ؛ وإلا فقد ضيعوها وباءوا باثمها وخسرانها ، فذكر الله ميراث الأولاد ، وأن لهم ثلاث حالات : إما أن يجتمع الذكور والاناث فحينئذ يتقاسمون المال أو ما أبقى الفروض على عدد رؤوسهم (لذكر مثل حظ الأنثيين) سواء كانوا أولاد صلب أو أولاد ابن ويؤخذ من هذا

الحالة الثانية : ان يكون الأولاد ذكوراً فقط ، فانهم يتقاسمون متساوين ، ومن ارتفعت درجته حجب من دونه من الأولاد إذا كان الرفيع من الذكور .

الحالة الثالثة : إذا كن إناثاً ، فان كانت واحدة فلها النصف ، سواء كانت بنت صلب أو بنت ابن ، وإن كانتا اثنتين فأكثر فلها الثلثان ، ومن الحكمة في الاتيان بقوله (فوق اثنتين) التنبيه على أنه لا يزيد الفرض وهو الثلثان بزيادةهن على الثنتين ، كما زاد فرض النصف لما صرن أكثر من واحدة ، وقد نص الله على أن الأختين فرضهما الثلثان ، فالبنتان من باب أولى وأحرى فان كان البنتان بنات صلب لم يبق لبنات الابن شيء ، وصار البقية بعد فرض البنات للعاصب ، وإن كانت العالية واحدة أخذت النصف ، وباقي الثلثين وهو السدس لبنت أو بنات الابن .

هذا ميراث الأولاد قد استوعبته الآية استيعاباً ، وقد علمنا من ذلك أن لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى من أولاد الصلب وأولاد الابن وأن نزل ، وأما أولاد البنات فلا يدخلون في إطلاق اسم الأولاد في الموارث .

ثم ذكر الله ميراث الأبوين : الأم والاب . فجعل الله للأم سدساً وثلثاً ، جعل لها السدس مع وجود أحد من الأولاد مطلقاً ، منفردين أو متعددين ، أولاد صلب أو أولاد ابن ، وكذلك جعل لها السدس بوجود جمع من الاخوة والأخوات اثنتين فأكثر ، وجعل لها الثلث إذا فقد الشرطان المذكوران .

وأما ثلث الباقي في زوج أو زوجة وأبوين فثليل إنه يؤخذ من قوله (وورثه أبواه) فإذا كان معهما أحد الزوجين خرجت عن هذا فلم يكن لها ثلث كامل ، أو يقال إن الله أضاف الميراث للأبوين - وهو الاب والأم - فيكون لها ثلث ما ورثه الأبوان ، ويكون ما يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغريم . فالله أعلم .

وأما الأب فقد فرض الله له السدس مع وجود أحد من الأولاد ، فان كان الأولاد ذكوراً

لم يزد الأب على السدس وصار الأبناء أحق بالتقديم من الأب بالتعصيب بالاجماع .
وإن كان الأولاد إنثاءً واحدة أو متعدّدات ، فرض له السدس ولهن أو لها الفرض ، فإن بقي شيء فهو لأولى رجل ، وهو الأب هنا ؛ لأنه أقرب من الأخوة وبنيهم ومن الأعمام وبنيهم ، فجمع له في هذه الحال بين الفرض والتعصيب ، وإن استغرقت الفروض التركة ، لم يبق للأب زيادة عن السدس ، كما لو خلف أبوين وابنتين ؛ فلكل واحد من الأبوين السدس ، وللبنتين الثلثان
ومفهوم الآية الكريمة أنه إذا لم يكن أولاد ذكور ولا إناث ، أن الأب يرث بغير تقدير ، بل بالعصب ، بأن يأخذ المال كله إذا انفرد ، أو ما أبقى الفروض إن كان معه أصحاب فروض ، وهو اجماع ، وحكم الجد حكم الأب في هذه الأحكام إلا في العمريتين ؛ فإن الأم ترث ثلثاً كاملاً مع الجد ؛ وأما ميراث الجدة السدس عند عدم الأم فهو في السنة .

ثم ذكر الله ميراث الزوجين ، وأن الزوج له نصف ما تركت زوجته إن لم يكن لها ولد ، فإن كان لها ولد فله الربع ، وأن الزوجة واحدة أو متعدّدات لها الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له ولد ، فإن كان للزوج ولد منها أو من غيرها ذكر أو أنثى ، ولد صلب أو ولد ابن ، فلها أو لهن الثمن . .

ثم ذكر الله ميراث الأخوة من الأم ، وأنهم لا يرثون إلا إذا كانت الورثة كلاله ليس فيهم أحد من الفروع ولا الأب والجد ، فلو واحد من الأخوة من الأم أو الأخوات السدس ، وللأثنين فأكثر الثلث ، يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم ، وهذه الفروض كلها ذكر الله أنها من بعد الوصية إذا حصل الإيصال بها ، ومن بعد الدين . وقد قضى النبي ﷺ : أن الدين قبل الوصية . وقد اتفق العلماء على ذلك ، وشرط الله في الوصية أن لا تكون على وجه المضاربة بالورثة ، فإن كانت كذلك فإنها وصية إثم وجنف يجب تعديها وردّ الظلم الواقع فيها .

وأخبر تعالى أن هذه التقديرات والفرائض حدود الله قدرها وحددها ، فلا يحل مجاوزتها ولا الزيادة فيها والنقصان ، بأن يعطى وارث فوق حقه ، أو يحرم وارث أو ينقص عن حقه

ثم ذكر في آخر السورة ميراث الأخوة لغير أم وأخواتهم بأن الأنثى الواحدة لها النصف ، وللثنتين فأكثر الثلثان ، وإن اجتمع رجال ونساء فلا ذكر مثل حظ الأنثيين ، ويقال فيهم كما يقال في الأولاد إذا كانوا ذكوراً تساوا وإذا كانوا أشقاء أو لأب ، فإن وجد هؤلاء وهؤلاء حجب الأشقاء الأخوة للأب ، وإن كن نساء شقيقات وأخوات لأب واستغرق الشقيقات الثلثين لم يبق للأخوات للأب شيء ؛ فإن كانت الشقيقة واحدة أخذت نصفها وأعطيت الاخت للأب أو الأخوات السدس تكملة الثلثين .

وما سوى هذه الفروض فان الورثة من اخوة لغير أم وبنينهم وأعمام وبنينهم وولاء يدخلون في قوله ﷺ في حديث ابن عباس الصحيح : الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر . رواه مسلم ، فيقدم الاخوة ثم بنوم ثم الأعمام ثم بنوم ثم الولاء ؛ ويقدم منهم الأقرب منزلة ، فان استوت منزلتهم قدم الأقوى وهو الشقيق على الذي لأب . والله أعلم

(فصول تتعلق بالنكاح وتوابعه من الأحكام)

قال الله تعالى ﴿ وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان ختم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً)

لما منّ الباري على عباده بالنكاح قدراً وأباحه شرعاً بل أحبه ورضيه وحث عليه لما يترتب عليه من المصالح الكثيرة ، رتب عليه أحكاماً كثيرة وحقوقاً متنوعة تدور كلها على الصلاح واصلاح أحوال الزوجين ودفع الضرر والفساد ، وهي من محاسن الشريعة ، والشريعة كلها محاسن وجلب للمصالح ودرأ للمفاسد ، يقول تعالى هنا (وإن خفتم أن لا تقسطوا) أى تقوموا بحق النساء اليتامى اللاتي تحت حجوركم وولايتكم لعدم محبتكم إياهن فاعدلوا إلى غيرهن (وانكحوا ما طاب لكم من النساء) أى ينبغي أن تختاروا منهن الطيبات في أنفسهن اللاتي تطيب لكم الحياة بالاتصال بهن ، الجامعات للدين والحسب والعقل والآداب الحسنة وغير ذلك من الأوصاف الداعية لنكاحهن وفي هذه الآية الحث على الاختيار قبل الخطبة ، وأنه ينبغي أن لا يتزوج إلا الجامعة للصفات المقصودة بالنكاح ، فان النكاح يقصد لأمور كثيرة من أهمها كفاءة البيت والعائلة وحسن التدبير وحسن التربية ؛ وأهم صفة هذا النوع الدين والعقل .

ويقصد به احصان الفرج والسرور في الحياة ، وعمدة هذا حسن الأخلاق الظاهرة وحسن الخلاق الباطنة .

ويقصد به نجابة الأولاد وشرفهم ؛ وأساسه الحسب والنسب الرفيع ، ولهذا أباح الشارع بل أمر بالنظر لمن يخطبها ليكون على بصيرة من أمره (مثنى وثلاث ورباع) أى من أحب أن يتزوج اثنتين فليفعل ، أو ثلاثاً أو أربعاً فليفعل ، ولا يزيد على الأربع ، لأن الآية سيمت للامتنان فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله ، إجماعاً ، وذلك أن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة أو لا يحصل مقصوده أو مقاصده بها ، كما تقدم أن النكاح له عدة مقاصد ، فلهذا أباح الله له هذا العدد ، لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر ، ومع هذا فاذا خاف من نفسه الجور والظلم بالزيادة على الواحدة فابقصر على الواحدة أو على ملك يمينه التي لا يجب عايه لما قسم كالزوجات (ذلك) أى

الاقتصار على واحدة من الزوجات ، أو ما ملكت اليدين ؛ أدنى أن لاتعولوا أى تظلموا ونجوروا ويستغاد من هذا المعنى أن تعرض العبد للأمر الذى يخاف منه الجور والظلم وعدم القيام بالواجب ، ولو كان مباحاً لا ينبغي له أن يتعرض له ، بل يلزم السعة والعافية ، فان العافية خير ما أعطى العبد ، ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن ، وخصوصاً الصداق الذى يكون شيئاً كثيراً دفعة واحدة يشق عليهم ، حنهم على إبتاء النساء صدقاتهن ، أى مهورهن (نحلة) أى عن حال طائفة وطيب نفس ، من غير مطل ولا بخس منه شيئاً

وفيه أن المهر للمرأة ، وأنه يدفع اليها أو إلى وكيلها إن كانت رشيدة ؛ أو إلى وليها إن لم تكن رشيدة ، وأنها تملكه بالعقد لأنه أضافه اليها وأمر باعطائه لها ، وذلك يقتضى الملك (فان طبن لكم عن شيء منه) أى من الصداق (نفساً) باسقاط شيء منه أو تأخيرها أو المحاباة فى التعوض عنه (فكلوه هنيئاً مريئاً) لا تبعة عليكم فيه ولا حرج ، وهذا دليل على أن للمرأة الرشيدة التصرف فى مالها ، ولو بالتبرع ، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء إلا ما طابت نفسها به إذا كانت رشيدة ، ويؤخذ من الأمر بنكاح ما طاب من النساء تحريم نكاح الخبيثة التى لا يحل للإسلم نكاحها ، وهى الكافرة غير الكتابية ، وكذلك الزانية حتى تتوب كما نص الله على الثنتين .

وفى هذه الآية دليل على أنه لا بد فى النكاح من صداق ، وأنه يجوز فى الكثير واليسير للعموم ، وأنه لا يباح لأحد أن يتزوج بدون صداق ، وإن لم يسم فمهر المثل ، إلا النبى ﷺ فان له ذلك خاصة ، كما قال تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) وفى قوله (ولا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) دليل على اعتبار الولى فى النكاح ، وهو العاصب ويقدم منهم الأقرب فالأقرب ، فان تعذر الولى القريب والبعيد لعدم أو جهل أو غيبة طويلة ، قام الحاكم قام الولى ، فالسلطان والحاكم ولى من لا ولى لها من النساء .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً - إلى قوله - ميثاقاً غليظاً)

كان أهل الجاهلية إذا مات أحدكم ورثت زوجته عنه كما يورث ماله ، فرأى قريبه كأخيه وابن عمه أنه أحق بها من نفسها ويحجرها عن غيره ، فان رضى بها تزوجها على غير صداق أو على صداق يحبه هو دونها ، وإن لم يرض بزواجها عضلها ومنعها من الأزواج الا بمعوض من الزوج أو

منها ، وكان منهم أيضاً من يعضل زوجته التي هي في حباله فيمنعها من حقوقها ، ومن التوسعة لم لتفتدى منه ، فنهى الله المؤمنين عن هذه الأحوال القبيحة الجائرة (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها ومن يتصل به ، فيجوز في هذه الحال أن يعضلها مقابلة لها على فعلها لتفتدى منه ، فان هذا الافتداء بحق لا بظلم ثم قال (وعاشروهن بالمعروف) وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية ، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته ببذل النفقة والكسوة والمسكن اللائق بحاله ويصاحبها صحبة جميلة بكف الأذى وبذل الاحسان وحسن المعاملة والخلق ، وأن لا يعضلها بحقها ، وهي كذلك عليها ما عليه من العشرة ، وكل ذلك يتبع العرف في كل زمان ومكان وحال ما يليق به ، قال تعالى (لينفق ذو سعة من سمته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) وقوله (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) أى ينبغى لكم يا معشر الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم ولو كرهتموهن فان في ذلك خيراً كثيراً .

منها امثال أمر الله ورسوله الذى فيه سعادة الدنيا والآخرة .

ومنها أن إجباره نفسه ومجاهدته إياها مع عدم محبة زوجته تمرين على التخلق بالأخلاق الجميلة وربما زالت الكراهة وخلفتها المحبة ، وربما زالت الأسباب التي كرهها لأجلها وربما رزق منها ولداً صالحاً نفع الله به والديه في الدنيا والآخرة ، ولا بد لهذه الكراهة من أسباب من الزوجة ، فينبغى إذا كره منها خلقاً لحظ بقية أخلاقها ، وما فيها من المقاصد الأخرى ، ويجعل هذا في مقابلة هذا ، وهذا عنوان الانصاف والرأى الأصيل ، فان النزق الطائش الذى ليس عنده انصاف يلاحظ بعض أغراضه النفسية ، فاذا لم يأت على ما يريد أهدر المحاسن والمناقب الأخرى ، وهذا لا يكاد يصفوه له خل في حياته ، لا زوجة ولا صاحب ولا حبيب ، بل هو سريع التقلب أما الرجل الحازم الوفى الزكى ، فانه يوازن بين الأمور ويقدم الحق السابق وينبى بالسوابق ويكون نظره للمحاسن أرجح من نظره للمساوى .

فان وصل إلى الدرجة العالية التي لا يصل اليها الا أفراد من كمل الرجال جعل المحاسن نصب عينيه وأغضى عن المساوىء بالكافية ، وعفى عنها الله ولحق صاحب الحق ، فهذا قد كسب الأجر والراحة والخلق الذى لا يلحق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهذا الصبر المأمور به إنما هو مع الامكان ، فان كان لا بد من الفراق ، ولم يبق للصبر والامساك موضع ، فالله قد أباح الفراق ، فلهذا قال (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج) أى فلا حرج عليكم ، ولكن إذا آتيتم إحداهن أى الزوجة السابقة أو اللاحقة (قنطاراً) وهو المال الكثير فلا تأخذوا منه شيئاً ، بل وفروه لهن

ولا يمتثلون ، وهذا يدل على جواز اعطاء النساء من المهور وغيرها المال الكثير ، وأنها بذلك تملكه ، وليكن الأكل والأفضل التساهل في المهور اقتداء بالنبي ﷺ وتسهيلاً للنكاح ولطرقه وبرامة للذمم ، ثم ذكر الحكمة في تحريم أخذ الزوج ما أعطاه لزوجته ، فقال (أناخذونه بهتاناً وإنما ميناؤ كيف تأخذونه وقد أفضى بهضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وبيان ذلك أن الأنثى قبل عقد النكاح محرمة على الزوج ، وهي لم ترض بهذا الحل إلا بالمقد والميثاق الغليظ الذي عقد على ذلك العوض المشروط ، فإذا دخل عليها وباشرها وأفضى إليها وأفضت اليه وباشرها المباشرة التي كانت قبل هذه الأمور حراماً فقد استوفى العوض ، فنبت عليه العوض تاماً ، فكيف يستوفى العوض ثم يرجع على العوض ؟ لا ريب أن هذا من المنكرات القبيحة شرعاً وعقلاً وفطرة .

« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء » ثم عدد المحرمات إلى أن قال « وأحل لكم ما وراء ذلكم »

قد استوفى الباري المحرمات في النكاح في هذه الآيات في النسب والرضاع والمصاهرة . أما المحرمات بالمصاهرة ؛ فإذا تزوج الرجل امرأة ترتب على هذا الزواج أربعة أحكام : تحريم هذه الزوجة على أولاده وإن نزلوا نسباً ورضاعاً وتحريمها على آباءه وإن علوا نسباً ورضاعاً وحرمت عليه أمها في الحال ؛ وأما بنتها فإن كان قد دخل بزوجته حرمت أيضاً وصارت ربيبة لا فرق بين بنتها من زوج سابق له أو من زوج خلفه عليها .

وأما المحرمات بالنسب فتحرم الأمهات ، وهن كل أنثى لها عليك ولادة ، وهي التي تخاطبها بالأم والجددة وإن علت من كل جهة وتحرم البنات ، وهن كل أنثى تخاطبك بالابوة أو بالجدودة من بنات الابن وبنات البنات وإن نزلن ، وتحرم الأخوات شقيقات كن أو لأب أو لأم ، وبنات الأخوة وبنات الأخوات مطلقاً ، وتحرم العمات والخالات ، وهن كل أخت لأحد آباءك وإن علا أو أحد أمهاتك وإن علون . وما سوى ذلك من الأقارب حلال ، كبنات الأعمام وبنات العمات وبنات الأخوال وبنات الخالات ، ولهذا ذكر الله هذا الحل والتحريم المهم في موضعين ؛ في هذا الموضع صرح بالمحرمات السبع وقال (وأحل لكم ما وراء ذلكم) وفي سورة الاحزاب أتى بها بأسلوب آخر فقال في الحل (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هلجرن معك) أي فهن حلال ومن عداهن من الأقارب حرام .

وأما المحرمات بالرضاع فابن نضارة المحرمات بالنسب من جهة الرضعة وصاحب اللبن ، فالرضعة أم للرضيع ، وأمها جدها ، وإخوتها وأخواتها أخواله وخالاته ، وأولادها وإخوته وأخواته ، وهو عم لأولادهم أو خال ، وكذلك صاحب اللبن .

وأما الانتشار من جهة الطفل الرضيع فلا ينتشر التحريم لأحد من أقاربه إلا لذريته فقط ،

وتقييده الآية في الريبة بقوله (اللاتى فى حجورك من نساءكم) بيان لأغلب أحوالها ، وليبان أعلى حكمة تناسب حكمة التحريم ، وأنها إذا كانت فى حجرك بمنزلة بناتك لا يلىق إلا أن تكون من محارمك .

وتقييدها الآخر بقوله (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) يخرج ابن التبنى لا يخرج ابن الرضاع فى قول جمهور العلماء (والمحصنات من النساء) أى ذوات الأزواج ، فكل أنثى فى عصمة زوج أو فى بقية عدته لا تحل لغيره ، لأن الأبضاع ليست محل اشتراك ، بل قصد تمييزها التام ، ولهذا شرعت العدة والاستبراء ونحو ذلك .

وقوله (إلا ما ملكت أيمانكم) المراد بهذا الملك ملك السبى إذا سبيت المرأة ذات الزوج من الكفار فى القتال الشرعى حلت للمسلمين ، ولكن بعد الاستبراء أو العدة ؛ فزوجها الحربى الذى فى دار الحرب لم يبق له فيها حق ولا له حرمة ، فهذا حلت للمسلمين كما حل لهم ماله ودمه ، لأنه ليس له عهد ولا مهادنة .

وقوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) أى ما سوى ما نص الله على تحريمه سبع بالنسب وسبع بالرضاع وأربع بالصهر ، فما عداهن فانه حلال ، إلا أنه حرم تعالى الجمع بين الاختين ، وحرم النبی ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها ، وحرم على الأحرار نكاح المملوكات لما فيه من إرقاق الولد ، ولما فيه من الدناءة والضرر العائد للأولاد لتنازع الملاك وتنقلات الأرقاء ، لكن إذا رجحت مصلحة الإباحة فقد أباحه الله بشرط المشقة لحاجة متمعة أو خدمة ، وأن لا يقدر على الطول للحرية ، وأن تكون الأمة مؤمنة باذن أهلها ، فعند اجتماع هذه الشروط كلها يحل للحر نكاح الاماء .

وقوله ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليماً كبيراً ﴾

هذا خبر وأمر ، أى الرجال قوامون على النساء فى أمور الدين والدنيا ، يلزمونهن بحقوق الله والمحافظة على فرائضه ، ويكفونهن عن جميع المعاصى والمفاسد ، وبتقويهن بالأخلاق الجميلة والآداب الطيبة ، وقوامون أيضاً عليهن بواجباتهن من النفقة والكسوة والمسكن وتوابع ذلك . (بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) أى ذلك بسبب فضل الرجال عليهن وإفضالهم عليهن ، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة : من كون الولايات كلها مختصة بالرجال والنبوة والرسالة ، وباختصاصهم بالجهاد البدنى ووجوب الجماعة والجمعة ونحو ذلك ، وبما تميزوا به عن النساء من العقل والرزانة والحفظ والصبر والجلد والقوة التى ليست للنساء ، وكذلك

يده هي العليا عليها بالنفقات المتنوعة ؛ بل وكثير من النفقات الآخر والمشاريع الخيرية ، فان الرجال يفضلون النساء بذلك كما هو مشاهد ، ولهذا حذف المتعاق في قوله (وبما أنفقوا من أموالهم) ليبدل على هذا التعميم ، فعلم من ذلك أن الرجل كالوالى والسيد على امرأته ، وهي عنده أسيرة عانية تحت أمره وطاعته ، فليثق الله في أمرها ، وليقومها تقوياً ينفعه في دينه ودنياه ، وفي بيته وعائلته يجد ثمرات ذلك عاجلاً وآجلاً ، وإلا يفعل فلا يلومن إلا نفسه ، وهن قسمان :

قسم هن أعلى طبقات النساء وخير ما حازهن الرجال ، وهن المذكورات في قوله (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) أى مطيعات لله ولأزواجهن ، قد أدت الحثين وفازت بكنائين من الثواب ، حافظات أنفسهن من جميع الريب ، وحافظات لأمانتهن ورعاية بيموتهن ، وحافظات للعائلة بالتربية الحسنة والادب النافع في الدين والدنيا ، وعليهن بذل الجهد والاستعانة بالله على ذلك فلهذا قال (بما حفظ الله) أى إذا وفقن لهذا الأمر الجليل فليحمدن الله على ذلك ، ويعلمن أن هذا من حفظه وتوقيته وتيسيره لها ، فان من وكل إلى نفسه ، فالنفس أمارة بالسوء ، ومن شاهد منة الله وتوكل على الله وبذل مقدوره في الاعمال النافعة ، كفاه الله ما أهمه ، وأصلح له أموره ، ويسر له الخير وأجراه على عوائده الجميلة .

والقسم الثانى : هن الطبقة النازلة من النساء ، وهن بضد السابقات في كل خصلة ، اللاتى من سوء اخلاقهن وقبح تربيتهم تترفع على زوجها وتعصيه في الامور الواجبة والمستحبة ، فأمر الله بتقويمهن بالاسهل فالاسهل ، فقال (واللاتى يخافون نشوزهن فعضوهن) أى بينوا لهن حكم الله ورسوله في وجوب طاعة الأزواج ، ورغبوهن في ذلك بما يترتب عليه من الثواب ، وخوفوهن معصية الأزواج ، وذكروهن ما فى ذلك من العقاب ، وما يترتب عليه من قطع حقوقها وإباحة هجرها وضربها ، فان تقو من بالوعظ والتذكير فذلك المطلوب وحصل الانفاق الذى لا يشوبه مكدر ، فان لم يفسد التذكير فاهجروهن في المضاجع ، بأن لا ينام عندها ولا يباشرها بجماع ولا غيره لعل الهجر ينفع فيها ، وذلك بمقدار ما يحصل به المقصود فقط ، فان ألقصد بالهجر نفع المهجور وأدبه ، ليس الغرض منه شفاء النفس كما يفعله من لا رأى له إذا خالفته زوجته أو غيرها ولم يحصل مقصوده ، هجر هجراً مستمراً ، أى ببق متأثراً بذلك ، عاتباً على من لم يواته على ما يحب ، ووصلت به الحال إلى الحقد الذى هو من الخصال الذميمة ، فهذا ليس من الهجر الجميل النافع ، وإنما هو من الحقد الضار بصاحبه ، الذى لا يحصل به تقويم ولا مصلحة ، فان نفع الهجر للزوجة وإلا انتقل إلى ضربها ضرباً خفيفاً غير مبرح ، فان حصل المقصود ورجعت إلى الطاعة وترك المعصية ، عاد الزوج إلى عشرتها الجميلة ، ولا سبيل له إلى غير ذلك من أذيتها لأنها رجعت إلى الحق .

وهذا الدواء لكل عاص ومجرم إن الشارع رغبه إذا ترك أجرامه عاد حقه الخاص والعام

كما في حق التائب من الظلم وقطع الطريق وغيرها ، فكيف الزوج مع زوجته .
وفي هذه الآية ونحوها فائدة نافعة ، وهي أنه ينبغي لمن عاد إلى الحق أن لا يذكر الأمور
السالفة ، فإن ذلك أحرى للثبات على المطلوب ، فإن تذكر الأمور الماضية ربما أثار الشر فانتكس
المرض وعادت الحال إلى أشد من الأولى .

﴿ وإن ختم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا أصلاحاً يوفق الله
بينهما إن الله كان علماً خبيراً ﴾

هذه حالة أخرى غير الحالة السابقة التي يمكن الزوج معالجتها ، وهذه إذا استطار الشر بين
الزوجين ، وبلغت الحال إلى الخصام وعدم الالتئام ، ولم ينفع في ذلك وعظ ولا كلام (فابعثوا
حكما من أهله وحكما من أهلها) عدلين عاقلين يعرفان الجمع والتفريق ، ويفهمان الأمور كما ينبغي ،
فإن الحكم لا بد أن يتصف بهذه الأوصاف ، فيبحثان في الأسباب التي أدت بها إلى هذه الحال
ويسئلان كلا منهما ما ينقم على صاحبه ، ويزيلان ما يقدران عليه من المعتبة بترغيب الناقم على
الآخر بالأغضاء عن المفوات واحتمال الزلات ، وارشاد الآخر إلى الوعد بالرجوع ، وارشاد كل
منهما إلى الرضى والنزول عن بعض حقه ، فكم حصل بهذا الطريق من المصالح شيء كثير ، وإن
أمكنهما إلزام المتعصب على الباطل منهما بالحق فعلا ، ومهما وجدا طريقاً إلى الإصلاح والاتفاق
والملائمة بينهما لم يعدلا عنها ، إما بتنازل عن بعض الحقوق ، أو ببذل مال أو غير ذلك ، فإن
تعذرت الطرق كلها ورأيا أن التفريق بينهما أصلح لتعذر الملائمة فرقا بينهما بما تقتضيه الحال بعوض
أو بغير عوض ، ولا يشترط في هذا رضى الزوج ، لأن الله سماعهما حكيمين لا وكيامين ، ومن قال
إنهما وكيلان اشترط في التفريق رضى الزوج ، ولكن هذا التول ضعيف ، ولحجة الباري للاتفاق
بينهما وترجيحه على الآخر قال (إن يريدوا أصلاحاً يوفق الله بينهما) أى بسبب الرأى الميمون
والكلام اللطيف والوعد الجميل الذى يجذب القلوب ويؤثر فيها (إن الله كان علماً) بالسرائر
والظواهر مطلقاً على الخفايا ، فمن كمال علمه وحكمته شرع لكم هذه الأحكام الجليلة التي هي الطريق
الوحيد إلى القيام بالحقوق (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا
والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تخسروا وتفقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾

هذه حالة من أحوال الزوجين غير الأحوال السابقة لأن الحالتين السابقتين حالة نشوز الزوجة
وحالة وقوع الخصام واستطارة الشر بينهما ، وهذه إذا كان الزوج هو الراغب عن زوجته ، إما
عدم محبة وإما طمعاً ، فأرشد الله في هذه الحال إلى الطريق الذى تستقيم به الأمور ، وهو طريق

الصلح من المرأة أو وليها ليعود الزوج إلى الاستقامة ، بأن تسمح المرأة عن بعض حقها اللازم لزوجها على شرط البقاء معه ، وأن يعود إلى مقاصد النكاح أو بعضها ، كأن ترضى ببعض النفقة أو الكسوة أو المسكن ، أو تسقط حقها من القسم أو تنهب يومها وليتها لزوجها أو لضررتها بأذنه فمضى اتفاقاً على شيء من ذلك فلا حرج ولا بأس ؛ وهو أحسن من المقاصاة في الحقوق المؤدية إلى الجفاء أو إلى الفراق ، ولهذا قال (والصلح خير)

وهذا أصل عظيم في جميع الأشياء ، وخصوصاً في الحقوق المتنازع فيها أن المصلحة فيها خير من استقصاء كل منهما على حقه كله ، لما في الصلح من بقاء اللفة والاتصاف بصفة السامح ، وهو جائز بين المسلمين في كل الأبواب - إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً -

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه ، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح ، فذكر تعالى المقتضى لذلك فقال (والصلح خير) والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه ، فإن كان مع ذلك قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه ، وذكر المانع بقوله (وأحضرت الانفس الشح) أي جبلت النفوس على الشح ، وهو الاستئثار والتفرد في الحقوق وعدم الرغبة في بذل ما على الإنسان والحرص على الحق الذي له ، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً ؛ أي فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم وتقليله وتلطيفه وتستبدلوا به ضده ، وهو السباحة ببذل جميع الحقوق التي عليكم والاقتناع ببعض الحق الذي لك والاغضاء عن التقصير ، فمضى وفق العبد لهذا الخلق الطيب سهل عليه الصلح بينه وبين كل من بينه وبينه منازعة ومعاملة ، وتسهلت الطريق الموصلة إلى المطلوب ، ومن لم يكن بهذا الوصف تعسر الصلح أو تعذر ؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ما له كاملاً مكلاً ، ولا يهون عليه أن يؤدي ما عليه ، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر .

ثم قال (وإن تحسنوا وتتقوا) أي تحسنوا في عبادة الخالق ؛ والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ وتحسنوا إلى المخلوقين بكل احسان قولى أو فعلى ؛ وتتقوا الله بفعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات ، أو تحسنوا بفعل المأمور وتتقوا بترك المحظور (فإن الله كان بما تعملون خبيراً) فيجازيكم على قيامكم بالاحسان والتقوى ، أو على عدم ذلك بالجزاء بالفضل والعدل .

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾

يخبر تعالى أنه ليس في قدرة الأزواج العدل التام بين زوجاتهم ، فإن العدل التام يقتضى أن

يكون الداعي والحب على السواء ؛ والميل القلبي على السواء ؛ ويتقضى مع ذلك الإيمان الصادق والرغبة في مكارم الأخلاق للعمل بمقتضى ذلك ، وهذا متعذر غير ممكن ، فلذلك عذر الله الأزواج وعفا عنهم عما لا يقدرُونَ عليه ، ولكنه أمرهم بالعدل الممكن فقال (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) أى لا تميلوا إلى إحداهن عن الأخرى ميلاً كثيراً ، بحيث لا تؤدُونَ حقوقهن الواجبة ، بل افعلوا مستطاعكم من العدل ، فالنفقة والكسوة والقسم في المبيت والفراش ونحو ذلك مقدور ، فعليكم العدل فيها بينهن ، بخلاف الحب والوطء وتوابع ذلك . فالعبد لا يملك نفسه فعذره الله ، وقوله (فتذروها كالمعلقة) يعنى أن الزوج إذا مال عن زوجته وزهد فيها ولم يقم بحقوقها الواجبة ، وهى فى حباله أسيرة عنده صارت كالمعلقة التى لا زوج لها فتستريح ، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها ، وإن تصالحوا فيما بينكم وبين زوجاتكم بهجه من وجوه الصلح كما تقدم ، وبجاهدة أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحق الزوجة . وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس فيما تنازعتم به من الحقوق ، وتنفقوا الله بامتثال أمره واجتناب نهيه ، فإن الله كان غفوراً رحيماً .

﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً ﴾

يعنى إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق ، فقال (وإن يتفرقا) أى ينسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك (يغن الله كلا) من الزوجين (من سعته) أى من فضله وإحسانه العام الشامل ، فيغنى الزوج بزوجته خير له منها ، ويغنيها من فضله برزق من غير طريقه ، فانها وإن توهمت أنه إذا فارقها زوجها المنفق عليها القائم بمؤنتها ينقطع عنها الرزق ؛ فسوف يغنيها الله من فضله ، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره ، بل على المنة كفضل القائم بأرزاق الخليقة كلها وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاءاً قلبياً طامعاً فى فضله كل وقت ، فإن الله عند ظن عبده به ، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنعم (وكان الله واسعاً) أى واسع الرحمة كثير الإحسان (حكيماً) فى وضعه الأمور مواضعها .

وفى الآية تنبيه على أنه ينبغى للعبد أن يعلق رجاءه بالله وحده ، وأن الله إذا قدر له سبباً من أسباب الرزق والراحة أن يحمد الله على ذلك ويسأله أن يبارك فيه له ، فإن انقطع أو تعذر ذلك السبب فلا يتشوش قلبه ، فإن هذا السبب من جملة أسباب لا تحصى لا يتوقف رزق العبد على ذلك السبب المسمى ، بل يفتح له سبباً غيره أحسن منه وأنعم ، وربما فتح له عدة أسباب فعليه فى أحواله كلها أن يجعل فضل ربه والطعم فى بره نصب عينيه وقبلة قلبه ، ويكثر من الدعاء المقرون بالرجاء ؛ فإن الله يقول على لسان نبيه « أنا عند ظن عبدي بى فان ظن بى خيراً فله ، وإن ظن بى شراً فله » وقال « إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي »

فصل

قال الله تعالى في أحكام الطلاق والعدد ﴿ الطلاق مرتان - الى قوله - واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ وقال ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ الآيات

ذكر الله أحكام الفراق كما ذكر أحكام النكاح والدخول فيه ، تقدم أنه تعالى حث الزوج على الصبر على زوجته ما دام متيناً من الصبر ، وفي هذا ذكر الله أنه إذا كان لا بد له من الطلاق ، فعليه أن يطلق زوجته لعدتها ، أى لتستقبل عدتها ، وذلك أن يطلقها مرة واحدة في طهر لم يجامعها فيه أو يطلقها وهي حامل قد تبين حملها ، أو وهي آيسة أو صغيرة ، لأنها في هذه الأحوال كلها تبتدىء بالعدة البينة الواضحة ، فمن طلقها أكثر من واحدة ، أو وهي حائض أو نفساء . أو في طهر قد وطئ فيه ولم يتبين حملها فإنه آثم متعدد لحدود الله ، وإذا طلقها هذا الطلاق المشروع فله أن يراجعها ما دامت في العدة كما قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً) وسواء رضيت أو كرهت

وهذا الطلاق الذى يتمكن فيه العبد من الرجعة ، هو الطلاق بواحدة الى اثنتين بلا عوض ، فإن طلقها الطلقة الثالثة فلا تحمل له حتى تنقضى عدتها وتنكح زوجاً غيره نكاح رغبة لا نكاح تحليل ، ويطأها ويطلقها رغبة في طلاقها وتنقضى عدتها منه فله أن ينكحها برضاها وبقية شروط النكاح من الولي ومن الصداق وغيره ، فإن طلقها بعوض بلفظ الطلاق أو الخلع أو الفداء أو غيرها من الألفاظ ، فقد أباح الله هذا الفداء عند الحاجة ، وهى التى نص عليها بقوله (فإن خفتم أن لا يقبها حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) وسواء كان العوض بقليل أو كثير لعموم الآية ، فإذا فارقها على هذا الوجه حصل لها الفكاك منه ولم يكن له عليها رجعة إلا اذا شاءت بنكاح جديد ، وعند التراجع بين الزوجين إذا رغب كل منهما فى الآخر ، فليس لولى الانثى أن يعضلها ويمنعها أن تراجع بعلمها الأول أو الذى فارقها ، بغضاً له أو نكابة له وغضباً عليه ، أو طمعاً فى بذلها أو بذله له شيئاً من المال ؛ فكل هذا لا يحل للولى أن يفعله ، بل عليه أن يسعى فى التآليف بينها وبين زوجها ، وأقل ما عليه أن لا يعارض فى ذلك ، وإذا كان منهيّاً عن ذلك بعد الطلاق أو الفداء ونحوها ؛ فكيف فى ابتداء الأمر ، ولكن بشرط أن يكون الزوج كفؤاً وترضى المرأة فيه .

وأما اذا منعها من تزوج من ليس كفؤاً لها فى دينه أو غيره من الصفات المعتبرة شرعاً فهو محسن ، لأن منعها عما فيه ضررها احسان عليها . وهذا أحد الاسباب فى اعتبار الولي للمرأة

في النكاح . وفي قوله في الرجعة (إن يريد اصلاحاً) وفي التراجع (إن ظنا أن يقيما حدود الله) اعتبار هذا الشرط في الرجعة والتراجع ، والا فلا تراجع ولا يتراجعا للضرار وللبقاء على غير ما يحبه الله . وفي هذا أن الأفعال مبنية على مقاصدها ، وأن الأمر الذي يقصد فيه الخير والصلاح لا بد أن يجعل الله فيه بركة ، كما أن الذي يقصد به غير ذلك ولو مكن منه العبد فانه ضرر حاضر ويخشى أن تكون عواقبه ذميمة .

ويستفاد من هذا معنى كلياً نافعاً ، وهو أنه ينبغي للعبد إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور مثل الأمور التي يترتب عليها حقوق كثيرة ، ومثل الولايات الكبار والصغار والأمور المهمة أن يتأنى وينظر في نفسه وعاقبة أمره ، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بقيامه بما فيها من الحقوق تقدم اليها متوكلاً على الله ، وإلا أحجم واغتنم السلامة عن الدخول في الأمور الخطرة . وأمر تعالى الأزواج أن يمسكوا زوجاتهم بمعروف أو يسرحوهن بمعروف ، فإن أمسكها أمسكها بعشرة حسنة ، وإن فارقها فليكن على وجه الشرع بطأ نينة ، من غير مغاضبة ولا مشاتمة ولا عداوات تقع بينه وبينها ، أو بينه وبين أهلها .

ومن التسريح بالمعروف أن يعطيها شيئاً من المال تتمتع به وينجبر به خاطرها ، وتذهب عن زوجها شاكراً ، ولا يكون لهذا الفراق على هذا الوجه إلا العواقب الطيبة للطرفين .

ولما بين الباري هذه الأحكام الجليلة غاية التبیین ، وكان القصد بها أن يعلمها العباد ويعملوا بها ويقفوا عندها ولا يتجاوزوها ، فانه لم ينزلها عبثاً بل أنزلها بالعلم والصدق والحق النافع والجد نهى عن اتخاذها هزواً أى لعباً بها ، وهو التجري عليها وعدم الامتثال لواجبها ، مثل المضارة في الامساك والارسال أو كثرة الطلاق وجمع الثلاث ، وقال (واذكروا نعمة الله عليكم) عموماً باللسان حمداً وثناء وبالقلب اعترافاً وقراراً ، وبالأركان بأن يستعان بنعمه على طاعته ، وخصوصاً ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ، فإن في الكتاب والسنة من بيان الحق والهدى من الضلال والحلال من الحرام وجميع ما يحتاجه العباد في أمور دينهم ودنياهم ما يوجب للعباد أن يشكروا وشكراً كثيراً ويقوموا بحقه ويخضعوا لأحكامه ، وختم الآيات بمعموم علمه تنبيه على أن أحكامه تدشعها العليم الحكيم صالحة للعباد في كل زمان ومكان .

وقد ذكر عدة المفارقة بحسب أحوالها في كتابه ، فذكر أن المفارقة بطلاق إن كانت تمضي باستكمال ثلاثة قروء من بعد وقوع الطلاق عليها ، وأن الآيسة والتي لم تحض لصفر ونحوه عدتها ثلاثة أشهر ، وأن المفارقة بموت زوجها تربص أربعة أشهر وعشراً ، وأن الحامل من المفارقات في الحياة وبعد المات عدتها بوضع الحمل .

وفي هذه العدد وتقديرها من الاسرار والحكم والمنافع للزوجين وغيرها ما هو من آيات الله

للمتأملين المستبصرين ، وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تمتدونها فتموهن وسرحوهن سراحا جميلا) ففي هذه الآية أن المفارقة في الحياة بطلاق ونحوه ليس لزوجها عليها عدة إذا لم يدخل أو يخل بها ، بل بمجرد ما يطلقها لها الزوج في الحال .

وفي هذا أن العدة تثبت بالدخول وكذلك الخلوة كما ثبتت عن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومنهوم الآية أن الفراق بالموت تعتد له الزوجة المعقود عليها ولو قبل الدخول ، وكما يؤخذ من مفهوم هذه فانه يؤخذ من عموم قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن) الآية

وفيها أن العدة من حقوق الزوج لتمكنه من الرجعة ولحفظ فراشه ومائه من الاختلاط ، وحق لها أيضا ، فإن المعتدة نوعان : نوع حامل لها النفقة بكل حال . قال تعالى « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » ونوع غير حامل . وهي أيضا نوعان : مفارقة بائنة بموت أو فسخ أو خلع أو ثلاث أو عوض . فمؤلا . كلهن لا نفقة لهن ولا كسوة ولا مسكن الا على وجه المعروف والاحسان ، ومفارقة رجعية فما دامت في العدة فلها النفقة والكسوة والمسكن وتوابعها على الزوج وحكمها حكم الزوجة التي في حباله في كل حال الا في القسم فلا قسم لها ، لأن الله سماه بعلا لها في قوله « وبعلتهن أحق بردهن في ذلك » ولأن له أن يرجعها الى الزوجية التامة رضيت أو كرهت مادامت في العدة .

وفي قوله « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن » دليل على أمانتها على نفسها وقبول قولها في وجود الحيض وانقطاعه لأنه توعدا بكتمان ذلك ، وهذا دليل على أن قولها معتبر . وفي قوله « إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن » دليل على أنه لا يقع الطلاق الا بعد النكاح . وأن من علق طلاقا بنكاح امرأة لم ينمقد هذا التعليق ولم يقع عليها شيء إذا نكحها ، لأن النكاح لا يراد به خلاف مقصوده وهذا بخلاف تعليق عتق المملوك للغير بما سكه اياه ، فانه صحيح ويعتق إذا ملكه . لأن تملك الرقيق يقصد به العتق ، وهو مقصود شرعى صحيح .

وقوله (فتموهن) فيه الامر بتمتع المفارقة بالطلاق قبل المسيس مطلقا . وفي آية البقرة الامر بالتمتع إذا لم يسم لها مهر آفان سمى لها مهر افانه يتنصف اذا طلقها قبل الدخول ، ويكون نصف الصداق هو المتعة كما قال تعالى (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، وتمتوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ؛ وأن تعفو أقرب للتقوى) فحث على العفو في هذا الموضع الخاص لنفعه وعظم موقعه ، وقال (ولا تنسوا

الفضل بينكم) وهذا ارشاد عظيم نافع في جميع المعاملات أنه ينبغي للعبد فيها أن لا يستغنى في كل شيء ، بل يجعل الفضل محلا من عفو ومحابة وإعطاء أزيد مما في الذمة قدراً أو وصفاً ، وقبول أدنى من الحق كمية وكيفية ، فكم حصل بهذا الفضل - وإن كان طفيفاً - خير كثير وأجر كبير ومعروف وبركة وراحة فكر وطأنينة قلب .

وفي قوله (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) وهذا العموم يقتضى أن كل مطلقة لها على زوجها متعة ؛ لكن إن كانت غير مدخول بها ولم يسم لها مهر ، فالمتعة واجبة كما تقدم بحسب يسار الزوج وإعساره ، وإن كان قد سمي لها مهر ، تنصف المهر وكان النصف الحاصل لها هو المتعة فإن لم يكن الأمر كذلك كانت المتعة حقاً معروفاً وإحساناً جميلاً ، لما فيها من جبر خاطرها وقضاء نوائبها التي هي مظنة الحاجة اليها في تلك الحال ، وكون ذلك عنواناً على التيسر بالمعروف . ودفعاً للمشاعبات والعداوات التي تحدث لكثير من الناس عند الطلاق ، واحتياطاً لبراءة ذمته مما لعله لحقه لها من الحقوق ، وتسهيلاً للرجعة أو للمراجعة إذا تغيرت الحال وأحدث الله بعد ذلك أمراً ، ولها من الفوائد شيء كثير ، ومدح الله هذه الأحكام الجليلة بقوله (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) فسمى هذه الأحكام آيات لأنها تدل أكبر دلالة على عنايته واطفه بعباده ، وأنه شرع لهم من الأحكام ، الأحكام الصالحة لكل زمان ومكان ولا يصلح العباد غيرها .

فصل في آيات في الإيلاء والظهار واللعان

قال تعالى « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فإِنْ فاءوا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » وقال « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها » الآيات . وقال في اللعان « والذين يرمون أزواجهم » الآيات .

من جملة الأحكام المنتشرة المتعلقة بالزوجه أنه قد يؤلى منها أو يظهر منها ، والفرق بين الإيلاء والظهار أن الإيلاء هو الحلف بالله على ترك وطء زوجته أبداً أو مدة طويلة تزيد على أربعة أشهر إذا كان قادراً على الوطء ، فإذا فعل ذلك وحلف هذا الحلف فلا يخلو ، إما أن تطالبه الزوجة بمحقها من الوطء ، أو لا تطالبه ، فإن لم تطالبه ترك وشأنه ، فإن وطئ ، في هذه المدة فقد حنث وعليه كفارة يمين وإلا فلا كفارة عليه ، وإن طالبت بالوطء أمر بذلك وجعل له أربعة أشهر فإن فاء ورجع إلى الوطء ، فذلك هو المطلوب منه ، وهو أحب الأمرين إلى الله ، وإن أبى وامتنع ومضت الأربعة الأشهر وهو مصرّ على عدم وطئها وهي مقيمة على طلب حقها ، أجبر على أحد الأمرين إما أن يفي ويكفر كفارة يمين ، وإما أن يطلق . فإن امتنع من كل منهما طلق الحاكم عليه .

وأما الظهار . فإن يحرم زوجته ويقول لها : أنت علي كظهر أمي أو نحوه من ألفاظ التحريم العريضة . فهذا قد أتى منكرآ من القول وزوراً ؛ وكذب أعظم كذب إذ شبه من هي حلال بين من هي أعظم المحرمات وهي الأم ، ولهذا قال (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) ثم عرض التوبة فقال (وإن الله لعفو غفور) ثم ذكر طريقها بالكفارة ، فأمر المظاهر أن يعتق رقبة من قبل أن يمسيها فإن لم يجد صام شهرين متتابعين من قبل المسيس أيضاً ، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينا ، فبعد هذه الكفارة تحل له الزوجة وتحل يمينه ، وأما اللعان فإن الزوج إذا رمى زوجته بالزنا ولم يكن له على ذلك أربعة شهود ولم تعترف بل أقامت على الإنكار ، فعليه ما على من قذف المحصنات من جلد ثمانين جلدة إلا أن يلاعنها ، وذلك بأن يشهد أربع مرات أنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا ويقول في الخامسة داعياً على نفسه ؛ وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فحينئذ يترتب عليها الحد أو الحبس حتى تقر ، إلا أن تقابله بلعان يدرأ عنها العذاب ، بأن تقول أربعاً : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا ، وتزيد في الخامسة وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، فعند ذلك يحصل الفراق الأبدى بينه وبينها .

والحكمة في تخصيص الزوج بسقوط حد القذف عنه إذا لاعن أن الزوج محتاج ، وربما كان مضطراً إلى رعيها لنفي ما يلحقه من أولاد غيره ولحقه وافساد فراشه . وأما القاذف إذا كان غير زوج إذا قذف غيره بالزنا ؛ فإن الله قال في حده (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا) الآية .

فصل في آيات الحدود

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ﴾ إلى آخرها .

يؤمن الله على عباده بأنه فرض عليهم القصاص في القتلى ، أى المساواة فيه ، وأن يقتل القاتل عمداً على الصفة التى قتل عليها المقتول ، إقامة للعدل بين العباد ، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل ، حتى القاتل بنفسه ، أعانة ولى المقتول إذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل ، وأنه لايجل لهم أن يحولوا بينه وبين القاتل إذا تمت الشروط كما يفعله أهل الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين .

ثم فصل ذلك بقوله (الحر بالحر) يدخل في منطوقها وفي منطوق قوله (أن النفس بالنفس)

أن الذكر يقتل الأنثى ، كما تقتل الأنثى بالذكر ، فيكون هذا المنطوق مقدماً على مفهوم قوله (الأنثى بالأنثى) مع دلالة صريح السنة الصحيحة في قتل النبي ﷺ اليهودى بالجارية . وخرج من هذا العموم الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السنة بذلك ، مع أن في لفظ القصاص ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده ، ولأن ما في قلب الوالدين من الرحمة المافعة من صدور هذه الجريمة منها على ولدهما ما يحدث الشبهة ، إما أنه لا بد أن في عقليهما اختلالاً أو أذية شديدة أخرجته إلى قتل ولده ، أو لم يحرر أن القتل عمد محض .

وخرج من هذا العموم أن المسلم لا يقتل بالكافر لقبوت السنة بذلك ، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة ، وليس أيضاً من العدل أن يقتل ولي الله بعمدوه (والعبد بالعبد) ذكرأ كان أو أنثى تساوت قيمتهما أو اختلفت ، ودل مفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد لكونه غير مساو له . وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في العمد العدوان ، وأن الدية بدل عنه ، فلماذا قال (فمن عفى له من أخيه شيء) أى عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية ، أو عفا بعض الأولياء ، فإنه يسقط القصاص وتجب الدية وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي ، فاذا عفا عنه وجب على ولي المقتول أن يتبع القاتل بالمعروف من غير أن يشق عليه ولا بحمله ما لا يطيق بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يجرجه ، وعلى القاتل أداء اليه بلحسان من غير مطل ولا نقص ولا اساءة فعلية أو قولية ، فهل جزاء الاحسان اليه بالعمو إلا الاحسان بحسن القضاء ، وهذا مأثور به في كل ما ثبت في ذم الناس للانسان ما مور من له الحق بالاتباع بالمعروف ، ومن عليه الحق بالأداء باحسان كما قال ﷺ « رحم الله عبداً سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى »

وفي قوله (عفى له من أخيه) ترفيق وحث على العفو إلى الدية وأكل من ذلك العفو مجاناً ، وفي قوله (أخيه) دليل على أن القاتل عمداً لا يكفر ، لأن المراد بالاخوة هنا أخوة الاسلام ، فلم يخرج بالقتل عنها ، ومن باب أولى سائر المعاصي التي هي دون القتل ، فإن صاحبها لا يكفر ولكنه يستحق العقاب وينقص بذلك إيمانه إن لم يتب ، وإذا عفا أولياء المقتول أو بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصوماً منهم ومن غيرهم . فلهذا قال (فمن اعتدى بعد ذلك) أى بعد العفو (فله عذاب أليم) أى في الآخرة ، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئاً له فيجب قتله بذلك ، ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص فقال (ولكم في القصاص حياة) أى تنحى بذلك الدماء ، وتنقمع به الأشقياء ، لأن من عرف أنه إذا قتل قتل لا يكاد يصدر منه قتل وإذا رأى القاتل مقتولاً انزجر غيره بذلك ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل من انكشاف الشر ما يحصل بالقتل ، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكابة والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار . ونكر الحياة لافادة التعظيم

ولما كان هذا الحكم لا يعرفه حقيقة المعرفة إلا أهل القول الكاملة قال (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) وهذا يدل على أنه يجب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم في تدبر ما في أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة ، وإن من كان بهذا الوصف فقد استحق الثناء والمدح بأنه من ذوى الألباب الذين وجه إليهم الخطاب ، وكفى بذلك فضلاً وشرافاً ، وقوله (لعلكم تتقون) وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة أوجب له أن ينتاد لأمر الله ويخضع لشرعه طاعة لله ولرسوله .

قوله ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾

هذا حد الزاني غير المحصن من ذكر أو أنثى بجلد مائة جلدة ، جلدات تؤلمه وتجرده ولا تهلكه ، ويتعين أن يكون ذلك علناً لا سراً بحيث يشهده طائفة من المؤمنين ، لأن إقامة الحدود من الضروريات لقمع أهل الجرائم ، واشتعارها هو الذى يحصل به الردع والانتجار وإظهار شعائر الدين ، والاستتار به أو على أحد دون أحد فيه مفسد كثيرة . ووردت السنة بتغريب عام كامل عن وطنه مع الجلد ، كاتواترت السنة وأجمع المسلمون على رجم الزاني المحصن يرحم بالحجارة حتى يموت ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ﴾

السارق هو من أخذ مال غيره المحترم بغير رضاه ، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب هذه العقوبة ؛ وهو أنه يجب قطع يده اليمنى كما هي قراءة بعض الصحابة ، واليد إذا أطلقت فهي الكف إلى الكوع فقط ، فاذا قطعت حسمت وجوباً في زيت أو ودك مغلى لتفسد العروق فيقف الدم ، ولكن السنة قيدت عموم الآية الكريمة بأموال كلها ترجع إلى تحقيق السرقة للأموال .

فمنها : لا بد أن يكون المسروق نصاباً ، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوى ذلك . ومنها : لا بد أن يكون المأخوذ منه حرزاً ، وحرز كل مال ما يحفظ به عادة ، فلو سرق من مال غير محرز فلا قطع عليه ، ويؤخذ هذا من لفظ السارق ؛ فانه الذى يأخذ المال على وجه لا يمكن التحرز منه ، فان عاد السارق قطعت رجله اليسرى ، فان عاد فقبل تقطع يده اليسرى ، ثم إن عاد قطعت رجله اليمنى ، وقيل يحبس حتى يموت . وورد في ذلك آثار عن السلف مختلفة .

وقوله (جزاءاً بما كسبا) من التجري على أموال الناس (نكالا من الله) أى ترهيباً منه للسرقة ليرتدعوا إذا علموا أنهم يقطعون . وهذا نظير قوله في القتل (ولكم في القصاص حياة) والله (عزيز حكيم) أى عز وحكم ، فقطع بحكمته يد السارق نكالا للمجرمين وحفظاً للأموال .

وقد ذكر الله قبل هذا حد قطاع الطريق المحاربين في قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله) الآية . فقيل إن الامام مخير فيهم بين هذه الأمور ، وعليه أن يفعل ما تقتضيه المصلحة ويحصل به النكاية ، وقيل إن هذه العقوبة مرتبة بحسب الجريمة ، فان جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع لهم بين القتل والصلب ، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا ، قتلوا ولم يصلبوا ، وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالا ، نفوا من الأرض فلا يتركون يأوون إلى بلد ، أو يحبسون كما قاله بعضهم .

فصل في الأيمان ونحوها

قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا حاييات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، لا يؤاخذكم الله بالغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾

يقول الباري يا أيها الذين آمنوا اعملوا بمتضى ايمانكم في تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله ، فلا تحرموا ما أحل الله لكم من المطاعم والمشارب وغيرها ، فانها نعم تفضل الله بها عليكم فاقبلوها واشكروا الله عليها إذ أحلها شرعا ويسرها قدرا ، ولا تردوا نعمة الله بكفرها أو عدم قبولها أو اعتقاد تحريمها أو الخلف على عدم تناولها ، فان ذلك كله من الاعتداء ، ولهذا قال (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) بل يبغضهم ويمقتهم على ذلك (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أى كلوا من رزقه الذي ساقه اليكم ويسره لكم بأسبابه المتنوعة ، إذا كان حلالا لا سرقة ولا غصباً ، ولا حصل في معاملة خبيثة ، وكان أيضاً طيباً نافعا لا خبث فيه (واتقوا الله) في امثال أوامره واجتناب نواهيه (الذي أنتم به مؤمنون) فان الايمان لا يتم الا بذلك ، وهو يدعو الى ذلك .

ودلت الآية الكريمة أن العبد إذا حرم حلالا عليه من طعام وشراب وكسوة واستعمال وسرية ونحو ذلك ، فان هذا التحريم منه لا يحرم ذلك الحلال ، لكن إذا فعله فعليه كفارة يمين ، لأن التحريم يمين كما قل تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وهذا عام في تحريم كل طيب ، إلا أن تحريم الزوجة يكون ظاهراً فيه كفارة الظاهر السابقة .

وكما أنه ليس له أن يحلف على ترك الطيبات فليس له أن يمتنع من أكلها ولو بلا حلف تنسكا وغلوآ في الدين ؛ بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) ويشمل هذا الايمان التي حلف بها من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك ، (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان) أى بما عقدت عليه قلوبكم ، كما قال في الآية الأخرى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) فاذا عقد العبد اليقين وحث ؛ بأن فعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله ، خيّر في الكفارة بين اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، وذلك يختلف باختلاف الناس والأوقات والأمكنة ، أو كسوتهم بما يعد كسوة ، وقيد ذلك بكسوة تجزى في الصلاة ، أو تحرير رقبة صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى ، بشرط أن تكون الرقبة مؤمنة ، كما في الآية المقيدة بالايمان ، وأن تكون تلك الرقبة سائمة من العيوب الضارة بالعمل ، فتى كفّر واحد من هذه الثلاث انحلت يمينه .

وهذا من نعمة الله على هذه الأمة أنه فرض لهم تحلة أيمانهم ورفع عنهم الالزام والجناح ، فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة فعليه صيام ثلاثة أيام ، أى متتابعة مع الامكان ، كما قيدت في قراءة بعض الصحابة (واحفظوا أيمانكم) عن أن تحلفوا بالله وأنتم كاذبون ، وعن كثرة الايمان لاسيما عند البيع والشراء ، واحفظوها إذا حلقتكم ، عن الحنث فيها ، إلا إذا كان الحنث خيراً من المضى فيها كما قال تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصالحوا بين الناس) أى لا تقولوا إننا قد حلقتنا على ترك البر وترك التقوى وترك الصلاح بين الناس ، فتجعلوا أيمانكم مانعة لكم من هذه الأمور التي يحبها الله ورسوله ، بل احنثوا وكفروا وافعلوا ما هو خير وبر وتقوى ، واحفظوا أيضاً أيمانكم إذا حلقتكم وحنثتم بالكفارة ، فان الكفارة بها حفظ اليمين الذي معناه تعظيم المحلوف به ، فمن كان يحلف ويحنث ولا يكفر فما حفظ يمينه ، ولا قام بتعظيم ربه (كذلك يبين الله لكم الآيات) المبينة للحلال من الحرام الموضحة للأحكام (لعلكم تشكرون) فعلى العباد أن يشكروا ربهم على بيانه وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمون ، فان العلم أصل النعم وبه تتم .

فصل فى آيات فى الاطعمة ونحوها والصيود وتوابعها

قال الله تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً . وقد فصل لكم ما حرم عليكم . الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكركم ﴾ الآية . وبعدها « يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين

تعلونين مما علمكم الله ، فكلوا مما أمكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ، ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه .. قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فانه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فان الله غفور رحيم)

دلّت هذه الآيات الكريمات على أن الأصل في الأشياء الحلّ من طعام وشراب وغيرها ، لأن الله تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعاً ننتفع به بكل وجوه الانتفاعات ، من أكل وشرب واستعمال . وفصل لنا ما حرم علينا ، فما لم يذكر في الكتاب والسنة تحريمه فهو حلال ، وأباح لنا كل طيب ، وحرم علينا كل خبيث .

فمن الخبائث المحرمة الميتة - سوى ميتة الجراد والسّمك - وهي ما مات حتف أنفه أو ذكي ذكاة غير شرعية ، والدم المسفوح كما قيدته الآية الأخرى ، وأما الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح فانه طيب حلال (ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) بأن ذبح لغير الله من أصنام أو ملائكة أو انس أو جن أو غيرها من المخلوقات .

ومن الخبائث كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، كما صح بذلك الحديث عن النبي ﷺ .

ومن الميتة (المنخنقة) أى التى نخنق بالحبال أو غيرها ، أو نخنق فتموت (والموقوذة) وهى التى تضرب بالحصى أو بالمصا حتى تموت . ومن هذا إذا رمى صيداً فأصاب الصيد بمرضه فقتله ، (والمتردية) وهى التى تسقط من موضع عال كسطح وجبل فتموت (والنطيحة) التى تنطحها غيرها فتموت بذلك ، وما أكله ذئب أو غيره من السباع ، وكل هذه المذكورات إذا لم تدرك ذكاتها فان أدركها حية فذكاها حلت . لقوله (إلا ما ذكيتن) وسواء غلب على الظن بقاؤه أو تلفه إذا لم يذك أم لا .

ومن المحرمات الحشرات وخشاش الأرض من قارة وحية ووزغ ونحوها من المستخبنة شرعاً وطباً .

ومن المحرمات ما ذكى ذكاة غير شرعية ، إما أن الذابح غير مسلم ولا كتابى ، وإما أن يذبها فى غير محل الذبح وهى مقدور عليها ، وإما أن لا يقطع حلقومها ومريها ، وإما أن يذبها بنهر ما ينهر الدم أو بعظم أو ظفر ، وما أمر الشارع بقتله أو نهى عن قتله ، دل على تحريمه وخبئه .

وكل هذه الأشياء تحريمها فى حال السعة ، وأما إذا اضطر اليها غير باغ لأكلها قبل أن يضطر ولا متعمداً إلى الحرام ، وهو يقدر على الحلال ، فانه إذا اضطر اليها غير باغ ولا عاد فان الله غفور

رحيم . من رحمته أباح المحرمات في حال الضرورة .
ومن رحمته وسع لعباده طرق الحلال ، فأباح الصيد إذا جرح في أى موضع من بدنه ، وأباح
صيد السهام إذا رمى الرامي عند رميها ، وأباح أيضا صيد الكلاب المعلمة والطيور المعلمة والتعليم
يختلف باختلاف الحيوانات ؛ قال العلماء : تعليم الكلب أن يسترسل إذا أرسل وينزجر إذا زجر
وإذا أمسك لم يأكل من صيده لقوله (فكاوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) أى
عند إرسالها لقصد الصيد .

فصل فى جوامع الحكم والقضايا فى الأصول والفروع

قال الله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله . لتحكم بين الناس بما أراك الله ، وإن حكمت
فاحكم بينهم بالقسط ، فإن تنازعتم فى شئ ، فردوه إلى الله والرسول . يا داود إنا جعلناك خليفة فى
الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ومن أحسن من الله حكما
لقوم يوقنون ، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً)

الحكم بين الناس بالحق والقسط ، هو الحكم بما أنزل الله ، وهو الرد إلى الله ورسوله ، فإن
هذه الآيات يصدق بعضها بعضاً ، وتدل على أن الحق والعدل لا يخرج عما جاء به الرسول ، وأن
حكم الله ورسوله أحسن الأحكام على الإطلاق ، أى أعد لها وأقومها وأصلحها وأحسنها للشرور ،
واعظم أحكام توصل بها إلى تحصيل المصالح ودرء المفاسد ، وأن رد مسائل النزاع والاختلافات
الدينية والدينية إلى الله والرسول خير فى الحال وأحسن عاقبة ، وأن كلمات الله تمت وكملت من
كل وجه صدقاً فى أخبارها ، عدلاً فى أحكامها وأوامرها ونواهيها ، فكل مسألة خارجة عن العدل
إلى الظلم ، وعن الصلاح إلى الفساد ، فليست من الشرع ، وقد جاء شرع الله بحكم الأصول
والفروع موافقاً للمعقول الصحيح والاعتبار والميزان العادل .

وقد حكم الله ورسوله بأحكام متنوعة متفرعة عن هذا الأصل العظيم ؛ وتفصيل لمجمله ،
فحكم الله بأن اقرار من عليه الحق معتبر فى القليل والكثير ، كما تقدم التنبيه عليه فى آية الدين
وحكم بأن البينة على المدعى لاثبات حق ، أو المدعى براءة الذمة من الحقوق الثابتة ، وأن
البين على من أنكر ، وهاتان القاعدتان عليهما مدار جمهور القضايا ، اعتبار اقرار من عليه الحق
إذا كان جاز التصرّف ، وتكاليف المدعين كلهم بالبينات

والبينة شرعاً اسم جامع لكل ما بين الحق ، والبيان مراتب بعضها يصل إلى درجة اليقين
وبعضها كالترائن ، وشواهد الأحوال توصل إلى غلبة الظن ، والترجيحات كثيرة جداً .

وعند تساوى الترجيحات ومقادير الأشياء وكمياتها بالتوسط بينها ، إما بقسمتها منسوية وجعل الزيادة والنقص بحسب ذلك ، وإلا بالقرعة إذا تعذرت القسمة ، ومن أحكام الشارع العادلة إلغائه المعاملات الظالمة الجائرة : كأنواع الغرر والظلم والميل على أحد المتعاملين بغير حق ومن أحكامه السكينة اعتباره التراضى بين المتعاملين فى عقود المعاوضات وفى عقود التبرعات وأنه لا يحل مال امرئ مسلم أو معاهد إلا بطيب نفسه .

ومن أحكامه السكينة منع الضرر والاضرار بغير حق فى كل معاملة وخلعة وجوار واتصال . ومن أحكامه السكينة أن على العمال تكميل أعمالهم بغير نقص ، وعلى من عمل لهم تكميل أجورهم

ومن أحكامه السكينة إيجابه الوفاء بالعقود والشروط التى يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر فى أبواب العقود كلها مما لكل منهما أو لأحدهما فيه مصلحة ، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، فهذا قد أهدره الشارع وألغاه وقال : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ،

ومن أحكامه السكينة اعتبار المقاصد والنيات فى أبواب المعاملات والأعمال ، كما تعتبر فى باب العبادات ، وبهذا الأصل أبطل جميع الحيل التى يتوسل بها إلى فعل محرم أو إسقاط حق مسلم ونحوها .

ومن أحكامه السكينة أن جميع العقود اللازمة والجائرة : عقود المعاوضة وعقود التبرع ، وكذلك الفسوخ تنعقد بما دل عليها من الألفاظ التى يتعارفها المتعاقدان ، ومن الأفعال الدالة على ذلك .

ومن أحكامه السكينة أن تلف الشيء بيد الظالم كالفاسد ونحوه فيه الضمان فرط أو لم يفرط فإن ثبتت يده على وجه الظلم والعدوان ، وأن تلف الشيء تحت يد الأمين لا ضمان فيه إن لم يفرط أو يتعد .

ومن أحكامه السكينة أن الشيء المشكوك فيه يرجع فيه إلى اليقين فى العبادات والمعاملات فمن ادعى الأصل فقولته مقبول ، ومن ادعى خلاف الأصل لم يقبل إلا ببينة ، وأن الأصل بقاء ما كان على ما كان ، والأصل براءة الذمة حتى يتيقن اشتغالها ، كما أن الأصل بقاء ما كان ثابتاً فى الذمة حتى يتيقن البراءة بوفاء أو إسقاط أو سقوط ، وأن الأصل فى عقود المسلمين الصحة والسلامة حتى نعرف أنه جرى ما يفيدنها .

ومن أحكامه السكينة أن جميع الأحكام من أصول وفروع لا تتم وتكمل ويحصل مقتضاها إلا باجتماع شروطها وأركانها ومقوماتها وانتفاء موانعها ومفسداتها .

ومن أحكامه الكلية وجوب المائلة في المتلفات والمضونات بمثلها ان أمكن المثل ، وبالقيمة إن تعذر المثل .

وكذلك الاعمال ، فمن عمل لغيره عملاً بعوض لم يسم ، أو سعى تسمية فاسدة ، أو جهلت التسمية أو عاوضه معاوضة تعذر معرفة العوض فيها ، فإنه يرجع في ذلك إلى أجره المثل وعوض المثل .

ومن أحكامه الكلية وجوب العدل بين الأولاد والزوجات ، ووجوب العدل بين ذوى الحقوق الذين لازمية لواحد منهم على الآخر ، كالعول الداخل على أهل الفروض بالسوية ، وكقسمة المال بين الغرماء إذا لم يف بمحقوقهم يعطون على قدر حقوقهم إذا لم يكن لأحدهم مزية رهن ونحوه وكاشتراك الملاك في الزيادة المترتبة عليها على قدر أملاكهم ، والنقص على قدر أملاكهم إذا اعتراها نقص ، وسواء كان النقص بحق تعلق بها أو بتلف أو خسارة أو وقع ظمناً فانهم يشتركون في الزيادة والنقص على قدر أملاكهم

ومن أحكامه الكلية اثبات الخيار في كل عقد ظهر في العوض المعين أو المعوض عيب ينقصه وأنه إذا لم يمكن الرد تعين الارش واسقاط النقص ، وعلى الصحيح لا فرق بين البيوع وغيرها فان هذا من قاعدة العدل

ومن أحكامه الكلية جعل المجهول كالمعوم ، ويندرج تحت هذا الأصل الاموال التي جهل ملاكها أنه يتصدق بها عنهم أو تبذل في المصالح نيابة عنهم ، وتملك اللقطة ومن مات لا وارث له بفرض ولا تعصيب ولا رحم تركته في بيت المال للمصالح العامة جعلاً للمجهول في ذلك كالمعوم ومن أحكامه الكلية الرجوع الى العرف اذا تعذر التعيين شرعاً ولفظاً ، كالرجوع للعرف في نفقة الزوجات والاقارب والأجراء ، وكالشروط العرفية في المعاملات اذا اطردت بين الناس وكالتبض والحرز ونحوها مما لا يمد ولا يحصى

ومن أحكامه الكلية أن الأصل في العبادات الحظر ، فلا يشرع منها الا ما شرعه الله ورسوله ، والأصل في المعاملات والاستعمالات كلها الاباحة ؛ فلا يحرم منها الا ما حرمه الله ورسوله وعلى هذا جميع أحكام العبادات والمعاملات وغيرها مما لا يمكن احصاؤه ، ولهذا من شرع في عبادة لم تنقل عن الشارع فهو مبتدع ، ومن حرم من العادات شيئاً لم يرد عن الشارع فهو مبتدع

ومن أحكامه الكلية حثه على الصلح والاصلاح بين من بينهم حقوق ، وخصوصاً عند اشتباهاها أو عند تناكرهما ، واذا تعذر استيفاء الحق كله أو تعسر ، فقد شرع في ذلك كله الصلح بالعدل وسلوك الحالة المناسبة لتلك القضية بما تقتضيه الحال ، وفيه من القوائد والثمرات الطيبة ما لا يعد ولا يحصى

ومن أحكامه الكلية اعتبار العدالة في الشهود وأن يكونوا ممن يرضى من الشهداء ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فالشارع اعتبر شهادة العدل المرضى من الشهداء وأسقط شهادة الكاذب والقاذف قبل التوبة ، وأمر بالثبوت في خبر الفاسق وكذلك المجهول ، لأنه اعتبر المرضى العدل عند الناس ، فلا بد من تحقيق هذا الوصف ، وأما عدد الشهود ونصابها فذلك يختلف باختلاف المشهود به كما فصله أهل العلم .

ومن أحكامه الكلية أن من سبق إلى مباح فهو أحق به ، فيدخل في هذا السبق إلى الجلوس في المساجد والأسواق والأفنية ، ويدخل فيه السبق إلى النزول في المساكن والأوقاف التي لا تتوقف على نظر ناظر ، ويدخل في ذلك السبق إلى المباحات من الصيد البرية والبحرية وإلى ما يستخرج من البحار والمعادن ، وإلى الاحتشاش والاحتطاب وغير ذلك ، وإلى أحياء الموات وغيرها من المسائل المتنوعة الداخلة في هذا الأصل .

ومن أحكامه الكلية قبول قول الأمانة على ما في أيديهم مما هم عليه أولياء من قبل الشارع أو قبل المالك بالوكالة أو الوصاية أو النظارة للأوقاف ، فكل هؤلاء مقبول قولهم فيما يدعونه من داخل وخارج ومصرف ونحوه إذا كان ذلك ممكناً ، وهذا معنى تأمينهم وتوليهم وولايتهم . واعلم أن قبول قول هؤلاء في هذه الأمور لا يمنع محاسبتهم ، وطلب الوقوف على كيفية تلك المصارف الداخلية والخارجية ، وتبيين وجه النقص والتلف ونحو ذلك ، ليستظهر بذلك على صدقهم وكذبهم وأما تمكينهم من إطلاق سراحهم بحجة أنهم أمناء مقبول قولهم ؛ فهذا غلط على الشريعة وعلى الحقيقة ، فالشارع حاسب عماله واستدرك عليهم ، والحقيقة والوقوف عليها مطلوب باتفاق أهل الاعتبار ؛ فكم من أمين ظهرت خيانتة بغير استدراك عليه .

ومن أحكامه الكلية أن الواجب يسقط بالعجز عنه بالكلية ، وأنه إذا قدر على بعض الواجب وجب عليه ما يقدر عليه منه ، وسقط عنه ما يعجز عنه ، وهذا مطرد في العبادات والحقوق الواجبة وغيرها ، كما أن الضرورة تبيح المحظور وتقدر بقدرها .

ومن أحكامه الكلية أنه أقام البديل مقام مبداه في أحكام العبادات والمعاملات والحقوق وغيرها ؛ فمَنْ كان للشئ بدل وتمذر الأصل ، قام هذا مقامه ، وحكم له بأحكامه ، وأن النماء تابع للأصل .

ومن أحكامه الكلية أن من وجب عليه أمر من الأمور فإنه يجبر عليه بحق . وأن من أتلف شيئاً لدفع أذاه له دفعاً عن نفسه ، فلا ضمان عليه ، فإن أتلفه للاقتناع به ضمنه . وأن ما ترتب على المأذون فيه من تلف فغير مضمون ، وما ترتب على غير المأذون فإنه مضمون .

ومن أحكامه الكاية أن الاستثناءات والقيود والأوصاف الملحقه بالألفاظ تعتبر وتفيد الكلام ويرتبط بها بشرط الاتصال لفظاً أو حكماً ، ويدخل في هذا ألفاظ العقود والفسوخ والوقف والوصايا والعق والطلاق والأيمان والاقارات وغيرها

ومن أحكامه الكاية أن الشركاء في الأملاك والمنافع يلزمون بكل ما يعود إلى حصول المنافع الضرورية ودفع المضار ، ويجبر الممتنع منهما من ذلك من المصارف والتفقات والفرائب التي تالحق الأملاك هم فيها شركاء على كل منهم بقدر ملكه

ومن أحكامه الكاية أن المباشر لانتلاف الأموال أو المتسبب لذلك ضامن لها ، متعمداً كان أو ناسياً أو جاهلاً ، وأنه إذا اجتمع المباشر والمتسبب كان الضمان على المباشر إلا إن تعذر تضمينه لفقد أو امتناع أو عسر أو نحوه ، فيحال الضمان على المتسبب بغير حق

ومنها أن من أدى عن غيره ديناً واجباً بنية الرجوع ، فإنه يرجع ولو لم يأذن له في ذلك ومنها أن الوصف في الشيء الذي بيد الغير ، وذلك الغير لا يدعيه لنفسه يئنة

ومنها أن من تعجل شيئاً قبل أوانه على وجه محرم عوقب بحرمانه

ومن أحكامه الكاية أنه إذا تراخى المصالح قدم الأعلى منها ، وإن تراخى المقاسد وكان لابد من فعل أحدها ارتكب الأخف منها لدفع الأشد مفسدة ، وعلى هذا من مسائل الفقه مالا يعد ولا يحصى ، لأن الشارع شرع الشريعة لتحصيل المصالح أو تكميلها ولتقاييل المقاسد وتعطيلها بحسب الامكان

ومنها أن اطلاق التشريك في الوصايا والهبات والاقارات وإيقاع العقود والفسوخ على الأعيان وغير ذلك ؛ كل ذلك يقتضى المساواة بين من شرك بينهم في شيء من ذلك ، إلا إن دل دليل على المفاضلة بينهم ، وكذلك في الأشياء المشتبهة التي يعلم أنها لهؤلاء الأشخاص ، ولا يعلم مقدار مال كل فاتهم يتساوون فيها ، وأدلة هذه الأصول من الكتاب والسنة ظاهرة ، وهي أصول جامعة عظيمة النفع ، ينتفع بها الحاكم والمفتى وطالب العلم ، وهي من محاسن الشريعة ومن أكبر البراهين على أن ما جاء به الرسول حق من عند الله محكم الأصول متناسب الفروع عدل في معانيه تابع للحكم والصالح في مبانيه ، فلنقتصر على هذه القواعد إذ غيرها تبع لها ، وهي تغنى عن غيرها ولا يغنى عنها سواها . والله أعلم

(فصول)

ﷺ في ذكر ما قص الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم ﷺ

قد قص الله علينا في كتابه قصصاً طيبة من أخبار أنبيائه ، ووصفها بأنها أحسن القصص . وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها أصدقها وأبلغها وأنفعها للعباد ؛ فمن أهم منافع هذه القصص أن بها يتم ويكمل الايمان بالانبياء صلى الله عليهم وسلم ، فانتنا وإن كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والاجمال ، فالايان التفصيلي المستفاد من قصصهم ، وما وصفهم الله به من الصدق الكامل والأوصاف الكاملة التي هي أعلى الأوصاف ؛ وما لهم من الفضل والفواضل والاحسان على جميع نوع الانسان ، بل وصل احسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكافئين في الاعتناء بها والقيام بحقتها ، فهذا الايمان التفصيلي بالأنبياء يصل به العبد إلى الايمان الكامل ، وهو من مواد زيادة الايمان .

فمن ذلك أن في قصصهم تقرير الايمان بالله وتوحيده واخلاص العمل له والايمان باليوم الآخر وبيان حسن التوحيد ووجوبه ، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة .

وفي قصصهم أيضاً عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين في مقام التوحيد والقيام بالعبودية وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة ، ومقابلة ذلك بالطمانينة والسكون والثبات التام ، وفي مقام الصدق والاخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الاجر والثواب من الله تعالى ، لا يطلبون من الخلق أجراً ولا جزاءً ولا شكوراً إلا الأمور النافعة للخلق

وفيها أيضاً عبرة لاتفاقهم على دين واحد وأصول واحدة ودعوة إلى كل خلق جميل وعمل صالح واصلاح ، وزجرهم عن كل ما يضاد ذلك .

وفيها أيضاً من الفوائد الفقهية والاحكام الشرعية والاسرار الحكيمية شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها

وفيها أيضاً من الوعظ والتذكير والترغيب والترهيب والفرج بعد الشدة وتيسير الأمور بعد تعسرها وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدار ، وحسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق مافيه زاد للمتقين وسرور للعابدين وسلوة للمحزونين ومواعظ للمؤمنين ، فليس المقصود من قصصهم أن تكون فقط سمرّاً ، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيراً وعبراً

واعلم قبل الشروع فيها أن كثيراً من قصصهم صلوات الله وسلامه عليهم أعادها الله في كتابه مرات عديدة بأساليب مناسبة لمقاماتها ، وربما يكون في موضع منها ما ليس في المواضع

الأخر من الزيادات والفوائد ، أو يأتي بها بألفاظ غير ألفاظ القصة الأخرى والمعاني متفقة أو متقاربة ، فعلى حسب أن هذا التعليق مختصر سوف آتى بهذه القصص وأجمع القصة في موضع واحد وأحرص على مادلت عليه ألفاظ الكتاب من سياقها من أولها إلى آخرها ، وأتبع كل قصة بما يفتح الله به من الفوائد الأصولية والفروعية والأخلاق والآداب والمواضيع المتنوعة ، راجياً من الله أن يوفقني بذلك للصواب اللفظي والاخلاص الباطني ومواقفة رضاه ، وأن يجعل بذلك النفع العام انه جواد كريم

﴿ فصل في قصة آدم أبي البشر عليه الصلاة والسلام ﴾

لم يزل الله أولاً ليس قبله شيء ، ولم يزل فعالاً لما يريد ، ولا خلا وقت من الأوقات من أفعال وأقوال تصدر عن مشيئته وإرادته بحسب ما تقتضيه حكمة الله الذي هو حكيم في كل ما قدره وقضاه ، كما هو حكيم في كل ما شرعه لعباده ، فلما اقتضت الحكمة الشاملة والعلم المحيط من الله والرحمة السابغة خلق آدم أبي البشر الذين فضلهم الله على كثير من خلق تفضيلاً ، أعلم الملائكة وقال (إني جاعل في الأرض خليفة) يخلف من كان قبلهم من المخلوقات التي لا يعلمها إلا هو (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) وهذا منهم تعظيم لربهم واجلال له عن أنه ربما يخلق مخلوقاً يشبه أخلق المخلوقات الأولى ، أو أن الله تعالى أخبرهم بخلق آدم وبما يكون من مجرمي ذريته ، قال الله للملائكة (إني أعلم ما لا تعلمون) فانه محيط علمه بكل شيء ، وبما يترتب على هذا المخلوق من المصالح والمنافع التي لا تعد ولا تحصى .

فعرفهم تعالى بنفسه بكمال علمه ، وأنه يجب الاعتراف لله بسعة العلم والحكمة التي من جملتها أنه لا يخلق شيئاً عبثاً ولا لغیر حكمة ، ثم بين لهم على وجه التفصيل ، فخلقه بيده تشریفاً له على جميع المخلوقات ، قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها وطيبها وخبيثها ليكون النسل على هذه الطبائع ، فكان تراباً أولاً ثم ألقى عليه الماء فصار طيناً ، ثم لما طالت مدة بقاء الماء على الطين تغير ذلك الطين فصار حمأ مسنوناً ، طينا أسود ثم أيّسه بعدما صورده فصار كالفخار الذي له صلصلة وفي هذه الاطوار هو جسد بلا روح ، فلما تكامل خلق جسده نفخ فيه الروح فاقلب ذلك الجسد الذي كان جماداً حيواناً له عظام ولحم وأعصاب وعروق وروح هي حقيقة الانسان ، وأعدّه الله لكل علم وخير ، ثم أتم عليه النعمة ، فعلمه أسماء الأشياء كلها .

والعلم التام يستدعي الكمال التام ، وكمال الاخلاق ، فأراد الله أن يرى الملائكة كمال هذا المخلوق ففرض هذه التسميات على الملائكة وقال لهم (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) في مضمون كلامكم الأول الذي مقتضاه أن ترك خلقه أولى ، هذا بحسب ما بدا لهم في تلك الحال ،

فعمزت الملائكة عليهم السلام عن معرفة أسماء هذه المسميات وقالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) قال الله (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم) شاهد الملائكة من كمال هذا الخلق وعلمه ما لم يكن لهم في حساب ، وعرفوا بذلك على وجه التفصيل والمشاهدة كمال حكمة الله ، وعظموا آدم غاية التعظيم ؛ فأراد الله أن يظهر هذا التعظيم والاحترام لآدم من الملائكة ظاهراً وباطناً ، فقال للملائكة (اسجدوا لآدم) احتراماً له وتوقيراً وتبجيلاً وعبادة منكم لربكم وطاعة ومحبة وذلاً ، فبادروا كلهم أجمعون ، فسجدوا وكان ابليس بينهم ، وقد وجه اليه الأمر بالسجود معهم ، وكان من غير عنصر الملائكة ؛ كان من الجن المخلوقين من نار السموم ، وكان مبطناً للكفر بالله ، والحسد لهذا الانسان الذي فضله هذا التفصيل ؛ فحمله كبره وكفره على الامتناع عن السجود لآدم كفراً بالله واستكباراً ، ولم يكفه الامتناع حتى باح بالاعتراض على ربه والقدح في حكمته ، فقال (أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين) فقال الله له : (يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ استكبرت أم كنت من العالين) فكان هذا الكفر والاستكبار والاباء منه وشدة النفاق هو السبب الوحيد أن يكون مطروداً ملعوناً ، فقال الله له (فاخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين) فلم يخضع الخبيث لربه ولم يتب اليه ، بل بارزه بالعداوة وصمم التصميم التام على عداوة آدم وذريته ؛ ووطن نفسه لما علم أنه حتم عليه الشقاء الابدی أن يدعو الذرية بقوله وفعله وجنوده إلى أن يكونوا من حزبه الذين كتبت لهم دار البوار فقال (رب أنظرني إلى يوم يبعثون) فيتفرغ لاعطاء العداوات حقها في آدم وذريته .

ولما كانت حكمة الله اقتضت أن يكون الآدمي مركباً من طبائع متباينة ، وأخلاقاً طيبة أو خبيثة ، وكان لابد من تمييز هذه الأخلاق وتصنيفها بتقدير أسبابها من الابتلاء والامتحان الذي من أعظمه تمكين هذا العدو من دعوتهم إلى كل شر ، أجابه فقال (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) فقال لربه معلنا معصيته وعداوته آدم وذريته (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) قال ابليس هذه المقالة ظناً منه لأنه عرف ما جبل عليه الآدمي .

(ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) فكفنه الله من الأمر الذي يريده ابليس في آدم وذريته ، فقال الله له (اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً واستغفر من استطعت منهم بصوتك ، واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد) أي إن قدرت فاجعلهم منحرفين في تربية أولادهم إلى التربية الضارة ، وفي صرف أموالهم المصارف الضارة وفي الكسب الضار ، وأيضا شارك منهم من إذا تناول طعاماً أو شرباً أو نكاحاً ولم يذكر

اسم الله على ذلك في الأموال والأولاد ، وعدم أي مرهم أن يكذبوا بالبعث والجزاء ، وأن لا يقدموا على خير ، وخوفهم من أوليائك وخوفهم عند الاتفاق النافع بالفحشاء والبخل . وهذا من الله لحكم عظيمة وأسرار . وانك أيها العدو المبين لا تبقى من مقدورك في إغوائهم شيئاً ، فالخبيث منهم يظهر خبثه ويتضح شره ، والله لا يعاب به ولا يبالي به .

وأما خواص الذرية من الأنبياء وأتباعهم من الصديقين والاصفياء وطبقات الأولياء والمؤمنين فإن الله تعالى لم يجعل لهذا العدو عليهم تسلطاً ، بل أقام عليهم سوراً منيعاً ، وهو حمايته وكفائته وزودهم بسلاح لا يمكن عدوهم مقاومتهم بكمال الإيمان بالله وقوة توكلهم عليه (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) ومع ذلك فأعانهم على مقاومة هذا العدو المبين بأمر كثيرة: أنزل عليهم كتيبه المحتوية على العلوم النافعة والمواعظ المؤثرة والترغيب الى فعل الخيرات والترهيب من فعل الشرور ، وأرسل اليهم الرسل مبشرين من آمن بالله وأطاعه بالشواب العاجل ، ومنذرين من كفر وكذب وتولى ، بالعقوبات المتنوعة ، وضمن لمن اتبع هداه الذي أنزل به كتيبه وأرسل به رسله أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، وأنه لا خوف عليه ولا حزن يعتريه ، وأرشدهم في كتيبه وعلى السنة رسله إلى الأمور التي بها يحتمون من هذا العدو المبين ، وبين لهم ما يدعوا اليه هذا الشيطان وطرقه التي يصطاد بها الخليقة .

وكما بينها لهم ووضحها فقد أرشدهم إلى الطرق التي ينجون بها من شره وفتنه وأعانهم على ذلك اعانة قدرية خارجة عن قدرتهم لأنهم لما بذلوا المجهود واستعانوا بالمعبود ، سهل لهم كل طريق يوصل إلى المقصود .

ثم أن الله تعالى أتم نعمته على آدم فخلق منه زوجته حواء من جنسه وعلى شكله ليسكن اليها وتتم المقاصد المتعددة من الزواج والالتئام وتنبث الذرية بذلك ، وقال له ولزوجته : إن الشيطان عدو لكما فاحذراه غاية الحذر ، فلا يخرجكما من الجنة التي أسكنكما الله إياها ، وأباحكما أن تأكلا من جميع ثمارها وأن تتمتعما بجميع لذاتها إلا شجرة معينة في هذه الجنة فحرما عليهما فقال : (ولا تأكلا من هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال الله لآدم في تمتيعه بهذه الجنة (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تضج فيها ولا تضحى) فسكنما في الجنة ما شاء الله على هذا الوصف الذي ذكره الله وعدوهما يراقبهما ويراصدهما وينظر الفرصه فيهما ، فلما رأى سرور آدم بهذه الجنة ورغبته العظيمة في دوائها ، جاءه بطريق لطيف في صورة الصديق الناصح ، فقال يا آدم هل أدلك على شجرة إذا أكلت منها خلدت في هذه الجنة ودام لك الملك الذي لا يبلى ، فلم يزل يوسوس ويزين ويسول ويعد ويمنى وبلقى عليهما من النصائح الظاهرة ، وهي أكبر الفس حتى غرهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها وحرما عليهما ، فلما أكلا منها بدت لهما سوءاتهما بعد ما كانا مستورين

وطبقا بخصفان على أنفسهما من أوراق تلك الجنة ، أى يلزقان على أبدانها العارية ليكون بدل اللباس ، وسقط في أيديهما وظهرت في الحال عقوبة معصيتهما ، وناداهما ربهما (ألم أنهما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) فأوقع الله في قلوبهما التوبة التامة والانابة الصادقة (وتلقى آدم من ربه كلمات) وقال (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تنفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فتاب الله عليهما وعفى الذنب الذى أصابا ، ولكن الأمر الذى حذرهما الله منه ، وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولا منها تحتم ومضى ، فخرجا منها إلى الأرض التى حشى خيرها بشرتها وسرورها بكدرها .

وأخبرها الله أنه لا بد أن يبتليهما وذريتهما ، وإن من آمن وعمل صالحا كانت عاقبته خيراً من حالته الأولى ، ومن كذب وتولى فأخر أمره الشقاء الأبدى والعذاب السرمدى ، وحذر الله الذرية منه فقال (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقيومه من حيث لا ترونهم) وأبدلهم الله بذلك اللباس الذى نزعه الشيطان من الأبوين بلباس يوارى السوءات ، ويحصل به الجلال الظاهر فى الحياة ، ولباس أعلى من ذلك وهو لباس التقوى الذى هو لباس القلب والروح بالإيمان والاخلاص والانابة والتعلى بكل خلق جميل والتعلى عن كل خلق رذيل ، ثم بث الله من آدم وزوجه رجالا كثيراً ونساء ، ونشرهم فى الأرض واستخلفهم فيها لينظر كيف يعملون .

فوائد مستنبطة من هذه القصة أصولية وفروعية وأخلاق وآداب

فمنها أن هذه القصة العظيمة ذكرها الله فى كتابه فى مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك ، وهى من اعظم القصص التى اتفقت عليه الرسل ونزلت بها الكتب السماوية واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأولين والآخرين ، حتى نبئت فى هذه الأزمان المتأخرة فرقة خبيثة زنادقة أنكروا جميع ملجأت به الرسل ، وأنكروا وجود البارى ولم يثبتوا من العلوم إلا العلوم الطبيعية التى وصلت اليها معارفهم القاصرة .

فبناء على هذا المذهب الذى هو أبعد المذاهب عن الحقيقة شرعاً وعقلاً أنكروا آدم وحواء وما ذكره الله ورسوله عنهما ، وزعموا أن هذا الانسان كان حيواناً قرداً أو شبيهاً بالقرود حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة ، وهؤلاء اغتروا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة ، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة ، خصوصاً ما جاءتهم به الرسل ، وصدق عليهم قوله تعالى (فلما جاءهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وهؤلاء أمرهم ظاهر لجميع المسلمين ولجميع المثبتين وجود البارى ، يعلمون أنهم أضل الطوائف ،

ولكن تسرب على بعض المسلمين من هذا المذهب الدهرى بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول ، إذ فسر طائفة من العصريين سجود الملائكة لآدم أن معناه تسخير هذا العالم للآدميين وأن المواد الأرضية والمعدنية ونحوها قد سخرها الله للآدمي ، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمد من ذلك الرأي الألفى ، وأنه تحريف لكتاب الله ، لا فرق بينه وبين تحريف الباطنية والقرامطة ، وأنه إذا أولت هذه القصة إلى هذا التأويل توجه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن . وانقلب القرآن بعد ما كان تبياناً لكل شئ ، وهدى ورحمة - رموزاً يمكن كل عدو للإسلام أن يفعل بها هذا الفعل ، فيبطل بذلك القرآن وتعود هدايته اضلالاً ، ورحمته نقمة . سبحانك هذا بهتان عظيم .

والمؤمن فى هذا الموضع يكفيه لا بطل هذا القول الخبيث أن يتلو ما قصه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة ، فيعلم أن هذا مناف لما قصد الله ورسوله غاية المناقاة ، وإن زخرفه أصحابه ولو ألوه العبارات ونسبوه إلى بعض من يحسن بهم الظن ، فالمؤمن لا يترك إيمانه ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغررة أو المغرور أصحابها

ومنها فضيلة العلم وأن الملائكة لما تبين لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله وأنه يستحق الاجلال والتوقير .

ومنها أن من من الله عليه بالعلم عليه أن يعترف بنعمة الله عليه ، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسول : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، وأن يتوقى التكلم بما لا يعلم ، فإن العلم أعظم المنن وشكر هذه النعمة بالاعتراف لله بها والثناء عليه بتعليمها وتعليم الجاهل ، والوقوف على ما علمه العبد والسكوت عما لم يعلمه .

ومنها أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً ، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد ، فكبر ابليس وحسده لآدم صيره إلى ماترى ، وحرص آدم وزوجه حملهما على تناول الشجرة ، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك ، ولكن رحمة الله تكمل الناقص وتجبر الكسير وتنجى الهالك وترفع الساقط .

ومنها أنه ينبغى للعبد إذا وقع فى ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف ، ويقول ما قاله الأيوان من قلب خالص وإنابة صادقة ، فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدى بهما فنفوز بالسعادة وننجو من الهلكة ، وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعدها وعزمه الأكيد على اغوائنا بكل طريق إلا لنتعمد لهذا العدو الذى تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة ، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته وفعل الأسباب التى يخشى منها الوقوع فى شباكه ، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة والأذكار القلبية والتعوذات المتنوعة ، ومن

السلاح المهلك له من صدق الايمان وقوة التوكل على الله ومراغمته في أعمال الخير ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة .

ومنها أن فيها دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبتته لنفسه من الاسماء الحسنى والصفات كلها ، لا فرق بين صفات الذات ولا بين صفات الأفعال .

ومنها اثبات اليمين لله كما هو في قصة آدم صريحا : لما خلقت بيدي . فله يدان حقيقة ، كما أن ذاته لا تشبهها الذوات ، فصفاته تعالى لا تشبهها الصفات

﴿ قصة نوح صلى الله عليه وسلم ﴾

مكث البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على الهدى ، ثم اختلفوا وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة ، فكان قوم نوح قدماء منهم أناس صالحون فخرنوا عليهم فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوروا تماثيلهم لينسلوا بها وليتذكروا بها أحوالهم ، فكان هذا مبتدأ الشر ؛ فلما هلك الذين صورهم لهذا المعنى جاء من بعدهم وقد اضمحل العلم ، فقال لهم الشيطان : إن هؤلاء وداً وسواعاً ويعقوب ونسراً ؛ قد كان أولوكم يدعونهم ويستشفعون بهم ، وبهم يسقون الغيث وتزول الأمراض ، فلم يزل بهم حتى انهمكوا في عبادتهم على رغم نصيح الناصحين ، ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه ، فقال (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ورغبهم في خير الدنيا والآخرة فقال (يا قوم إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) فلما بادأهم بالأمر بالاخلاص لله وتسفيه آراءهم وتخوينهم بعقوبات الدنيا والآخرة قالوا (ما نراك إلا في ضلال مبين وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) وطلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين استكباراً منهم واستندكافاً على الحق وعلى الخلق ، فبين لهم أنه ليس به ضلال ، وإنما به نزول الضلالة عن الخلق ، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة ، وأن المؤمنين لا يحل طردهم ، بل حقهم الاكرام والاحترام ، وأنه لا يدعى لهم طوراً يزاحم فيه الرب فقال (ولا أقول لكم عندى خزائن الأرض ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيتهم الله خيراً) فلم يزل يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ، فلم يزدحم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً واعراضاً وتواصياً منهم على الالقمة على ما هم عليه من عبادة غير الله والتمسك بها فقال نوح (رب انهم عصون واتبعوا ما لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكرراً مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يعقوب ونسراً)

فلما رأى أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه ؛ وأنه كلما جاء قرن كان أخبث مما قبله ، قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فأجاب الله دعوته وأمره أن يصنع الفلك برعاية منه وحسن نظر وتعليم من الله له هذه الصنعة التي آمن الله بها على العباد ، وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التي حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية في جميع الأوقات مالا يعد ولا يحصى ، وأخبره الله بتختم اغراقهم وأنه لا يخاطب ربه فيهم فانهم ظالمون ، وجعل يصنع الفلك ؛ وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه فقال لهم : إن تسخروا منا اليوم فانا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم . وأوحى الله اليه أنه إذا جاء ذلك الوقت وفار التور أي جعلت الأرض كلها تنفجر عيوناً من كل جانب حتى المواضع البعيدة عن النار عادة ، وأمره أن يحمل من البهائم من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى ليبقى نسلها لأنه يتعذر حملها كلها ، والحكمة تقتضى ابقاء هذه الحيوانات التي خلقها الله مسخرة لمصالح البشر ويحمل معه جميع من آمن من رجال ونساء ، والحال أنه ما آمن معه إلا قليل ، وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك ، فلما أركب جميع من أمر بهم قال لهم : سموا الله كلما جرت وكلما رست . لأن الأسباب مهما عظمت فهي من لطف الله ، ولا تمام لها إلا بالله .

فحينئذ فجر الله الأرض عيوناً ، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير ، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض ، وساحت على الأماكِن المنخفضة ، ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة ، والسفينة تجرى بهم في موج كالجبال تضرب يميناً وشمالاً . وفي تلك الحال المزعجة رأى نوح ابنه الكافر الذي كان على دين قومه وقد اعتزل أباه حتى في هذه الحال فرآه مثل سائر قومه قد فر هارباً من المياه الجارفة ، فناداه نوح مترقفاً فقال (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) فتمادى به الغرور في تلك الحال التي تنشق فيها الغياهب إلا عن القلوب المحجوبة ؛ فقال (سأوى إلى جبل يعصمني من الماء) لم يخطر ببالهم أن المياه سترتفع فوق رؤوس الجبال ، فقال له نوح (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم الله ، ورحمته في تلك الحال متعينة في ركوب السفينة مع نوح (وحال بينهما الموج) فكان ذلك الابن من المغرقين .

فأغرق الله جميع الكافرين ونجى نوحاً ومن معه أجمعين ، وكان في ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق ، وأن من خالفه فانه مبطل ، ودليل على الجزاء في الدنيا لأهل الإيمان بالنجاة والكرامة ، ولأهل الكفر بالهلاك والاهانة .

فلما حصل هذا المقصود العظيم أمر الله السماء أن تقلع عن الماء ، والأرض أن تبلع ما فيها وغيض الماء ، أي نقص شيئاً فشيئاً ، واستوت السفينة بعد غيض الماء على الجودي ، وهو جبل

شامخ معروف في نواحي الموصل .

وهذا دليل على أن جميع الجبال قد غمرتها المياه وجاوزها الطوفان ، وحزن نوح على ابنه قتل منادياً ربه مترقياً متضرعاً يا رب (إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق) أن أحمل معي أهلي وأنت أرحم الراحمين ، فقال له ربه (إنه ليس من أهلك) أي الموعود بنجاتهم ، لأن الله قيد ذلك بقوله (إلا من سبق عليه القول) (انه عمل غير صالح) أي هذا الدعاء لابنك الذي على دين قومه بالنجاة (فلا تسأني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) وهذا عتاب منه لنوح وتعليم له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي إنما حمله عليه الشفقة الأبوية ، وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحامل له العلم والاخلاص في طلب رضا الله تعالى فقال نوح (رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سمعتهم ثم عصى أمهم منا عذاب أليم) فهبط وبارك الله في ذريته ، وجعل ذريته هم الباقين ، فكان أولاده يافث ملأ المشرق من الذرية ، وحام ملأ المغرب من النسل ، وسام ملأ ما بين ذلك ، ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومكث بعد هلاكهم ماشاء الله ، وكان من أولى العزم من المرسلين ، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة وهو أول الرسل إلى الناس ، وهو الأب الثاني للبشر ، ﷺ تسليماً .

يستفاد من هذه القصة أمور : —

منها : أن جميع الرسل من نوح إلى محمد صلى الله عليهم وسلم متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك ، فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة .

ومنها : آداب الدعوة وتمامها ، فإن نوحاً دعا قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، بكل وقت وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة ، وأنه رغبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب ، وبالتمتع بالأموال والبنين ، وادرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل ، وحذرهم من ضد ذلك ، وصبر على هذا صبراً عظيماً كغيره من الرسل ، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة ، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل المطلوب ، وأقام الآيات وبين البراهين

ومنها : أن الشبه التي قدح فيها أعداء الرسل برسالتهم من الأدلة على ابطال قول المكذبين فإن الأقوال التي قالوها ولم يكن عندهم غيرها ، ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل . فقول قوم نوح (ما نراك إلا بشراً مثلاً ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) تأمل جملتها تجدها تمويهات دالة على أنهم يبتلون

مكابرون للحقيقة ، ققولهم (ما نراك إلا بشراً مثلنا) فهل في كون الحق جاء على يد بشر شيء من الشبهة تدل على أنه ليس بحق ، ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أى مصدر يكون باطلا . وهذا قدح منهم في جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر ، ومعلوم أن هذا يبطل العلوم كلها ، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدة بعضهم من بعض وهي متفاوتة ، فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحي إلهي .

وكذلك قولهم (ما نرى لكم عايينا من فضل) أى نحن وأنتم بشر ، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا (إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) فمن الله على الرسل وخصهم بالوحي والرسالة ، مع أن انكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القدح في نعمة الله ، فإن رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر ليتمكن العباد من الأخذ عنهم ، وتيسر عليهم هذه النعمة ويسهل الله لهم طرقها ، فهؤلاء المكذبون كفروا بأصل النعمة وبالطريق المستقيم النافع الذي جاءهم به .

وكذلك قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يعرف أنه حق بنفسه لا بمن تبعه ، وأن هذا القول الذي قالوه صدر عن كبر وتيه ، والكبر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق ومن اتباعه .

وأيضاً قولهم (أراذلنا) إن أرادوا الفقر ، فالفقر ليس من العيوب ، وإن أرادوا أراذلنا في الأخلاق ، فهذا كذب معلوم بالبدية ، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة ، فهل الإيمان بالله ورسوله وطاعة الله ورسوله والالتحاق بالحق والسلامة من كل خصلة ذميمة ، هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل أم الرذيلة بضده من ترك أفرض الفروض توحيد الله وشكره وحده وامتلاء القلب من التكبر على الحق وعلى الخلق ؟ هذا والله أراذل الرذائل ، ولكن القوم مباهتون فما تقوموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .

وقولهم (بادى الرأي) أى مبادرة منهم إلى الإيمان بك يا نوح لم يشاوروا ولم يتأناؤا ويتروا لو فرض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق ، فإن الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطأنينة مالا يحتاج إلى مشاورة أحد باتباعه ، وإنما التي تحتاج إلى مشاورة هي الأمور الخفية التي لا تعلم حقيقتها ولا منفعتها ؛ أما الإيمان الذي هو اجلي من الشمس في نورها ؛ وأحلى من كل شيء ، فما يتأخر عنه إلا كل متكبر جبار أمثال هؤلاء الطغاة البغاة .

وقولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) هل في هذا الكلام شيء من الانصاف بوجه ، لأنهم يخبرون عن أنفسهم ، وكلامهم يحتمل أنه الذي في قلوبهم ، ويحتمل أنهم يقولون مالا يعتقدون وعلى كلا الأمرين فالحق يجب قبوله ، سواء أقاله الفاضل أو المفضول ، الحق أعلى من كل شيء .

وكذلك قولهم (بل نظنكم كاذبين) معلوم أن الظن أكذب الحديث ؛ ثم لو قالوا بل نعلمكم كاذبين . فهذه كل مبطل يقدر أن يقولها ، ولكن بأى شيء استدلتهم أنهم كاذبون ؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى ، فكيف وقد قابلها الرسل بالأدلة والبراهين المتنوعة التي لا تبقى ريب لأحد في بطلانها .

ومنها أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم اخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله القاصرة وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق ، كالدعوة والتعليم وتوايع ذلك ، ولذلك يبذون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول (يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله) ولهذا كان من أجل الفضائل لاتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسول في هذه الفضيلة ، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا .

ومنها أن القدح في نيات المؤمنين وفيما من الله عليهم به من الفضائل والتألى على الله أنه لا يؤتيهم من فضله من موارث أعداء الرسل ، فلهذا قال نوح لقومه حين تألوا على الله وتوسلوا في ذم المؤمنين به بذلك ؛ فقال (ولا أقول للذين تردى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم)

ومنها أنه ينبغي الاستعانة بالله وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات ، وحمد الله والاكتثار من ذكره عند النعم لا سيما النجاة من الكربات والمشقات ، كما قال تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) وقال (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، قل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) وأنه ينبغي أيضاً الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة كالمنازل في اقامات السفر وغيره ، والمنازل المستقرة كالمساكن والدور لقوله (وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) وفي ذلك كله من استصحاب ذكر الله ، ومن القوة على الحركات والسكنات ومن قوة الثقة بالله ومن نزول بركة الله التي خير ما صحبت العبد في أحواله كلها مالا غنى للعبد عنه طريقة عين .

ومنها أن تقوى الله والقيام بواجبات الإيمان من جملة الأسباب التي تنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان - وإن كان لذلك أيضاً أسباب أخر . وهى السبب الوحيد الذى ليس هناك سبب سواه فى نيل خير الآخرة والسلامة من عقابها .

ومنها أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هى للمؤمنين ، وهم الرسل وأتباعهم ، وأما العقوبات الدنيوية العامة فانها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحیوان ، وإن لم يكن لها ذنوب ، لأن الوقائع التى أوقع الله بأصناف المكذبين شملت الأطفال والبهائم ؛ وأما ما يذكر فى بعض الاسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله اهلاكم أعقم الارحام حتى لا يتبعهم فى

المعقوبة أطفالهم فهذا ليس له أصل ، وهو مناف للأمر المعلوم ، وذلك مصداق لقوله تعالى (وايقظوا
فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة)

قصه هود عليه الصلاة والسلام

بعث الله هوداً عليه الصلاة والسلام إلى قومه عاداً الأولى المقيمين بالأحقاف — من رمال
حضر موت — لما كثرت شرهم وتجبروا على عباد الله وقالوا (من أشد منا قوة) مع شركهم بالله
وتكذيبهم لرسول الله ، فأرسله الله اليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك والتجبر
على العباد ، ويدعوهم بكل وسيلة ويذكركم ما أنعم الله عليهم به من خير الدنيا والبسطة في الرزق
والقوة ، فردوا دعوته وتكبروا عن إجابته وقالوا (ما أنت إلا بشر مثلنا فاءتنا بآية إن كنت
من الصادقين) وهم كاذبون في هذا الزعم ، فانه ما من نبي إلا أعطاه الله من الآيات ما على مثله
يؤمن البشر ، ولو لم يكن من آيات الرسل إلا أن نفس الدين الذي جاءوا به أكبر دليل أنه من
عند الله لأحكامه وانتظامه للمصالح في كل زمان بحسبه وصدق أخباره ، وأمره بكل خير ونهيه
عن كل شر ، وأن كل رسول يصدق من قبله ويشهد له ، ويصدق من بعده ويشهد له .

ومن آيات هود الخاصة أنه متفرد وحده في دعوته وتسفيه أحلامهم وتضليلهم والقدح في
آلهتهم ، وهم أهل البطش والقوة والجبروت ، وقد خوفوه بآلهتهم إن لم ينته أن تمسه بجنون أو
سوء ، فتحداهم علناً وقال لهم جهاراً (إني أشهد الله واشهدوا إني برى مما تشركون من دونه
فكيدون جميعاً ثم لا تنظرون ، إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها
إن ربي على صراط مستقيم) فلم يصلوا اليه بسوء .

فأى آية أعظم من هذا التحدى لهؤلاء الأعداء الحريصين على إبطال دعوته بكل طريق ،
فلما انتهى طغيانهم تولى عنهم وحذرهم نزول العذاب ، فجاءهم العذاب معترضاً في الأفق ، وكان
الوقت وقت شدة عظيمة وحاجة شديدة إلى المطر ، فلما استبشروا وقالوا : هذا عارض ممطرنا .
قال الله (بل هو ما استعجلتم به) بقولكم فاءتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (ريح فيها عذاب أليم ،
تدمر كل شيء) فمر عليه (فسخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى
كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فأصبحوا لآيئ ربهم كما أصبح أولئك من القوم المجرمين) فبعدها
كانت الدنيا لهم ضاحكة ، والعز بليغ ، ومطالب الحياة متوفرة ، وقد خضع لهم من حولهم من
الانصار والقبائل ، إذ أرسل الله اليهم رجلاً صرصرأ في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الدنيا
وللعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عاداً
كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) ونجى الله هوداً ومن معه من المؤمنين ، إن في ذلك لآية

على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم ، ونصرهم في الحمية الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وآية على إبطال الشرك ، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها ، وآية على البعث والنشور .

(فوائد من هذه القصة)

فيها ما تقدم في قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل ؛ ومنها أن الله بحكمته يقص علينا نسباً الأمم الجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها ، لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير والله تعالى صرف فيه التذكيرات تضييقاً نافعاً ، ولا ريب أن الانقطاع البائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله اليهم رسلاً ، ولهم معهم نظير ما للعذكريين من إجابة ورد وكرام وعقوبة ، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً ، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا وما نتناقله جيلاً بعد جيل ، بل ما نشاهد آثارهم ونرى بديارهم كل وقت ونفهم لغاتهم ، وطبائعهم أقرب إلى طبائعتنا ، لا ريب أن نفع هذا عظيم ، وأنه أولى من تذكيرنا بأمة لم نسع لهم بذكر ولا خير ، ولا نعرف لغاتهم ، ولا نتصل اليها أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به ، فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل في مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقاً ، لكن الحق يتفاوت ، والمذكر والمعلم إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم والخير إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها ، ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لأقامة الحجج عليهم نفع وانفع ، وأشار البيهقي إلى هذا في آخر قصة عاد ، فقال (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات) أي نوعنا بها بكل فن ونوع (لعلهم يرجعون) أي ليكون أقرب لحصول الفائدة .

ومنها أن اتخاذ المباني الفخمة للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجهروت من الأمور المذمومة المودونة عن الأمم الطاغية كما قال الله في قصة عاد وانسكار هود عليهم ، قال (أتبنون بكل ريع آية يعيشون وتخذون مصانع لعلكم تخلدون)

وبالجملة فالبنائات للقصور والحصون والدور وغيرها من الابنية :

أما أن تتخذ مساكن للحاجة اليها ، والحاجات تتنوع وتختلف ، فهذا النوع من الأمور المباحة وقد يتوسل به بالنية الصالحة إلى الخير .

وأما أن تكون البنائات حصوناً واقية لشعور الأعداء ، وتموراً تحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين وقيمهم الشر ، فهذا النوع يدخل في الجهاد في سبيل الله ، وهو داخل في الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء .

وأما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في طرق نافعة ، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرهم .

ومنها أن العقول والأذهان والذكاء وما يتبع ذلك من القوة المادية ، وما ترتب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت وبلغت مبلغاً هائلاً ، فلها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها بالإيمان بالله ورسوله .

وأما الجاحد لآيات الله المكذب لرسل الله ، فانه وإن استدرج في الحياة وأمهل فان عاقبه وخيمة ، وسمعه وبصره وعقله لا يفنى عنه شيئاً إذا جاء أمر الله ؛ كما قال الله عن عاد (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمماً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وفي الآية الأخرى (فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيذ)

﴿ قصة صالح عليه الصلاة والسلام ﴾

كانت نمود - وهي عاد الثانية - يسكنون في الحجر وما حولها ، وكانوا أهل مواش كثيرة وأهل حروث وزروع ، وتواصلت عليهم النعم فكانوا يتخذون من السهول قصوراً مزخرفة ، ومن الجبال بيوتاً منحوتة متمنعة ، فبطروا النعم وكفروها ، وعبدوا غير الله ، فأرسل الله إليهم أخاه صالحاً من قبيلتهم ، يعرفون نسبه وحسبه ، وفضله وكأله ، وصدقه وأمانته ، فدعاهم إلى الله وإلى اخلاص الدين له ، وترك ما كانوا يعبدون من دونه ، وذكركم بنعم الله وبأيامه بالأمم المجاورة لهم ، فلم يتبعه إلا القليل .

وحين ذكركم وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد الله اشمأزوا ونفروا واستكبروا وقالوا (يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا) أي قد كنا قد تخابلنا فيك أن تفضلنا جميعاً لكمالك وكال أخلاقك ، وآدابك الطيبة .

وهذا اعتراف منهم له بهذه الأمور قبل أن يقول ما قلتي ، فأنزله عن هذه المرتبة عندهم إلا أنه دعاهم إلى عبادة الخالق من عبادة العبيد ، وإلى السعادة الأبدية ، وما ذنبه إلا أنه خالف آباءهم الضالين ، وهم كانوا أضل منهم ، ثم أقام لهم بينة عظيمة وآية وبرهاناً ونعمة على جميع القبيلة بأسرها وقال : هذه ناقة الله التي لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها وشرفها ومنافعها لكم آية على صدقي وعلى سعة رحمة ربكم فذروها تأكل في أرض الله على الله رزقها ولكم نفعها ترد الماء

يوماً فترد القبيلة بأسرها على ضرعها كل يصدر عن ضرعها قد ، بلا آنيته ، ثم تردون أنتم في اليوم الثاني ، فكشكث على هذا ما شاء الله .

وكان في مدينتهم تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة ، يصدون عن سبيل الله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وكان صالح قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كبرهم وردم الحق ؛ فأول ما فعل أولئك الملاء الأشرار أن عقدوا مجلساً عاماً ليتفقوا على عقر الناقة ، فاتفقوا ، فانتدب لذلك أشقى القبيلة ، ولهذا قول الله تعالى (إذ انبعث أشقاها) أى بعد اتفاقهم وندبهم إياه بمشوه لذلك ، فانبعث واستعد وتكفل لهم بمقرها ؛ وهم جميعهم راضون بل أمروهم ، فمقرها ، فكان هذا المقر مؤذناً بهلاك القبيلة بأسرها ، فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظراً فظيماً علم أن العذاب قد تحتم لا محالة ، لأن الجريمة قد تفاقمت ، ولم يبق حالة يرجى فيها لهم تقويم . فقال لهم صالح : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب ، ونبه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم ، ففي أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة ؛ على قتل نبيهم صالح ، وتعاهدوا وتعاقدوا وحلفوا الأيمان المغلظة ، وكنتموا أمرهم خشية من منع أهل بيته ، لأنه في بيت عز وشرف ، وقالوا : لنبيئتنا وأهلنا ، ثم إذا ظن بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائنا أننا ما شهدنا . هلك أهلنا وإنا لصادقون . فدبروا هذا المكر العظيم ، ولكنهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح . فحين كنوا في أصل جبل لينظروا الفرصة في صالح ؛ بدأ الله بعقوبتهم ، فكانوا سلفاً مقدماً لقومهم إلى نار جهنم ، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم وقتلوا أشنع قتلة ، ثم لما تمت ثلاثة أيام جاءهم صيحة من فوئتهم ورجفة من أسفل منهم فأصبحوا خائدين ، ونجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين ، وتولى عنهم وقال (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت بكم ولكن لا يحبون الناصحين)

(فوائد تتعلق بهذه القصة)

منها أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة ، وأن من كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع لأنه يكذب الحق الذى جاء به كل واحد منهم ، ولهذا يقول في كل قصة : كذبت قوم نوح المرسلين كذبت عاد المرسلين ، كذبت ثمود المرسلين

. ومنها أن عقوبات الله للأمم الطاغية عند تنهاى طغيانها وتفاقم جرائمها ، فكفرهم وتكذيبهم موجب للهلاك ، ولكن تحتم الاهلاك عند تنهاى الشرور ، ولهذا أرجى ما يكون لوقوع العقوبة بالظالمين المجرمين عند تنهاى إجرامهم ، لأن الله تعالى بالمرصاد فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ومنها أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عن بحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق ، وإلحال أنها ليست في العير ولا في النفير ، ولا لها مقام في الحجج الصحيحة الدالة على الحقائق ، فهذا أكبر ما ردد به قوم صالح لدعوته أن قالوا : أتنبأنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا . وقالت جميع الأمم المكذبة زادين لدعوة الرسل (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وهذا سبيل لا يزال معموراً بالسالكين من أهل الباطل نهجته الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل الله ، ومن المعلوم أن طريق الرسل هي طريق الهدى والحق ، فإذا بعد الحق إلا الضلال .

قصه إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم

قد ذكر الله في كتابه سيرة وأخباراً كثيرة من سيرة إبراهيم ، فيها لنا الأسوة بالأنبياء عموماً ، وبه على وجه الخصوص ؛ فإن الله أمر نبيهما وأمرنا باتباع ملتته ، وهي ما كان عليه من عقائد وأخلاق وأعمال قاصرة ومتعدية ، فقد آتاه الله رشده وعلمه الحكمة منذ كان صغيراً ، وأراه ملكوت السموات والأرض ، ولهذا كان أعظم الناس يقيناً وعلماً وقوة في دين الله ورحمة بالعباد . وكان قد بعثه الله إلى قوم مشركين يعبدون الشمس والقمر والنجوم ، وهم فلاسفة الصابئة الذين هم من أخبث الطوائف وأعظمهم ضرراً على الخلق ، فدعاهم بطرق شتى ، فأول ذلك دعاهم بطريقة لا يمكن صاحب عقل أن ينفر منها ، ولما كانوا يعبدون السبع السيارات التي منها الشمس والقمر ، وقد بنوا لها البيوت وسموها الهياكل ، قال لهم ناظراً ومناظراً : هلم ياتوم ننظر هل يستحق منها شيء ، الإلهية والربوبية (فلما جن عليه الليل قال : هذا ربي) والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة .

منها أن المناظر يقول الشيء الذي لا يعتقد له يدني عليه حجته ، وليقيم الحجة على خصمه ، كما قال في تمكسيرة الأصنام لما قالوا له (أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟) فأشهر إلى الصنم الذي لم يكسره فقال (بل فعله كبيرهم هذا) ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة ، وقد حصلت .

فمنها يسأل عايناً فهم معنى قوله (هذا ربي) أي إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي ، مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة ، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة (فلما أفل) أي غاب (قال لا أحب الآفلين) فإن من كان له حال وجود وعدم ، أو حال حضور وغيبية ، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل ، فلا يكون إلهاً ، ثم انتقل إلى القمر ، فلما رآه بازغاً (قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لا تكونن من الضالين) يريهم

صوات الله وملائمته عليه ، وقد صور نفسه بصورة موافق خيره ، ليكون لا على وجه التقليد ، بل يقصد إقامة البرهان على إلهية النجوم والقمر ، فالآن وقد أفتت ، وتبين بالبرهان العقلي مع السمعى بطلان إلهيتهم ، فأنا إلى الآن لم يستقر لي قرار على رب وإله عظيم ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا أكبر من النجوم ومن القمر ، فان جرى عليها ما جرى عليهما كانت مثلها ، فلما أفلت وقد تقرر عند الجميع فيما سبق أن عبادة من يأفل من أبطال الباطل . حينئذ أمرهم بهذا الملازم ووجه عليهم الحجة فقال (يا قوم إني برئ مما تشركون إني وجهت وجهي) أى ظاهري وباطني (للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) فهذا برهان عقلي واضح أن الخالق للعالم العلوي والسفلي هو الذي يتعين أن يقصد بالتوحيد والأخلاص ، وأن هذه الأفلاك والكواكب وغيرها مخلوقات مدبرات ليس لها من الأوصاف ما تستحق العبادة لأجلها ، فجمعوا يخوفونه آلهتهم أن تمسه بسوء ، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن آلهتهم تنفع من عبيدها وتضر من تركها أو قدح فيها ، فقال لهم مبيناً لهم أنه ليس عليه شيء من الخوف ، وإنما الخوف الحقيقي عليكم فقال (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) أحاب الله هذا الاستفهام جواباً نعم هذه القصة وغيرها في كل وقت فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى بشرك (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) فرفع الله خليله إبراهيم بالعلم وإقامة الحجة ، وعجزوا عن نصر باطلهم ، ولكنهم صمموا على الإقامة على ما هم عليه ، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير وإقامة الحجج ، فلم يزل يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا يعبدون فيها علماً وخصاً ، وأخص من دعاه أبوه آزر ، فإنه دعاه بعدة طرق نافعة ، ولكن (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم) فمن جملة مقالاته لأبيه إذ قال لأبيه (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك) انظر إلى حسن هذا الخطاب الجاذب للقلوب لم يقل لأبيه إنك جاهل لتلا ينفّر من الكلام الخشن ، بل قاله هذا القول (فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) فانتقل بدعوته من أسلوب لآخر لعله ينجع فيه أو يفيد ، ولكنه مع ذلك قال له أبوه (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً) هذا وإبراهيم لم يفض ولم يقابل أباه ببعض ماقال ، بل قابل هذه الاساءة الكبرى بالاحسان فقال (سلام عليك) أى لا أتكلم معك إلا بكلام طيب لأخاطبك فيه ولا خشونة ، ومع ذلك فلفت بآيس من هدايتك (سأستغفر لك ربى انه كان نبى حفيواً) أى

براً رحباً قد عودنى لطفه وأجرانى على عوائده الجميلة ولم يزل لدعائى مجيباً ، فلم يزل ابراهيم مع قومه فى دعوة وجدال ، وقد أغمهم وكسر جميع حججهم وشبههم ، فأراد ﷻ أن يقاومهم بأعظم الحجج وأن يصمد لبطشهم وجبروتهم وقدرتهم وقوتهم ، غير هائب ولا وجل ، فلما خرجوا ذات يوم لعيد من أعيادهم وخرج معهم ، فنظر نظرة فى النجوم فقال : إني سقيم ، لأنه خشى إن تخلف لغير هذه الوسيلة ، لم يدرك مطلوبه لأنه تظاهر بعداوتها والنهى الاكيد عنها وجاهد أهلها ، فلما برزوا جميعاً إلى الصحراء كر راجعاً إلى بيت أصنامهم فجعلها جذاذاً كلها إلا صنماً كبيراً أبقى عليه ليلزمهم بالحجة فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صباية ومحبة ، فأروا فيها أفلح منظر رآه أهلها فقالوا (من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم) أى يعيها ويدكرها بأوصاف النقص والسوء (يقال له ابراهيم) فلما تحققوا أنه الذى كسرها قالوا : فاءتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . أى بحضرة الخلق العظيم ووبخوه أشد التبويخ ثم نكسوا به ، وهذا الذى أراد ابراهيم ، ليظهر الحق بمرأى الخلق ومسمعهم ، فلما جمع الناس وحضروا ، وحضروا ابراهيم قالوا (أنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا) مشيراً إلى الصنم الذى سلم من تكسيده ، وهم فى هذه بين أمرين ، إما أن يعترفوا بالحق وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن جهاداً معروفاً أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكن أن يفعل هذا الفعل ؛ وإما أن يقولوا نعم هو الذى فعلها وأنت سالم ناج من تبعها ، وقد علم أنهم لا يقولون الاحتمال الاخير ، قال : فأسألوهم إن كانوا ينطقون . وهذا تعليق بالأمر الذى يعترفون أنه محال ، فحينئذ ظهر الحق وبان واعترفوا هم بالحق فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، أى ما كان اعترافهم ببطلان إلهيتها إلا وقتاً قصيراً ظهرت الحجة مباشرة التى لا يمكن مكابرتها ، ولكن ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التى رسخت فى قلوبهم وصارت صفات ملازمة ، إن وجد ما ينافيها ، فانه عارض يعرض ثم يزول (ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فحينئذ وبخهم بعد اقامة الحجة التى اعترف بها الخصوم على رؤوس الاشهاد ، فقال لهم (أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فلو كان لكم عقول صحيحة لم تقيموا على عبادة مالا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه من يريده بسوء ، فلما أعييتهم المقاومة بالبراهين والحجج عدلوا الى استعمال قوتهم وبطشهم وجبروتهم فى عقوبة ابراهيم فقالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . فأوقدوا ناراً عظيمة جداً فألقوه بها ، فقال وهو فى تلك الحال : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال الله للنار (يا نار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم) فلم تضره بشيء ، وأرادوا به كميذا لينصروا آلهتهم وقيموا لها فى قلوبهم وقلوب أتباعهم

الخنوع والتعظيم ، فكان مكرم وبالا عليهم ، وكان انتصارهم لآلهتهم نصراً عظيماً عند الحاضرين والغائبين والموجودين والحادثين عليهم . وانتصر الخليل على الخواص والعوام والرؤساء والمرموسين حتى ان ملكهم حاج إبراهيم في ربه بغيّاً وطنفياً ، أن آتاه الله الملك فقال إبراهيم (ربى الذى يحبى ويميت قال أنا أحبى وأميت) فالزمه الخليل بطرد دليله بالتصرف المطلق ، فقال : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ؛ فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين .

(فصل)

ثم خرج من بين أظهرهم مهاجراً وزوجته وابن أخيه لوط إلى الديار الشامية ، وفي أثناء مدة اقامته بالشام ذهب إلى مصر بزوجه ساره ، وكانت أحسن امرأة على الإطلاق ، فلما رآها ملك مصر وكان جباراً عنيداً لم يملك نفسه حتى أرادها على نفسها ، فدعت الله عليه ، فكاد أن يموت ثم أطلق ثم عاد ثانية ، وكلما أرادها دعت عليه فصرع ، ثم دعت له فأطلق ، فكفاهما الله شره ، ووهب لهما هاجر جارية قبطية ، وكانت سارة عاقراً منذ كانت شابة فوهبت هذه الجارية لابراهيم لينسرها لعل الله يرزقه منها ولداً ، فأنت هاجر باسما عيل على كبر ابراهيم ففرح به فرحاً شديداً ولكن سارة رضى الله عنها أدركتها الفيرة فخلعت أن لا يساكنها بها ، وذلك لما يريد الله . وهذا من جملة الأسباب لنهايه بها إلى موضع البيت الحرام ، وإلا فهو متقرر عنده ذلك عليه السلام فذهب بها وبابنها اسماعيل إلى مكة ، وهى فى ذلك الوقت ليس فيها ساكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره وزودهما بسقاء فيه ماء وجراب فيه تمر ووضعهما عند دوحة قريبة من محل بئر زمزم ثم قفى عنهما ، فلما كان فى الثانية بحيث يشرف عليهما ، دعا الله تعالى فقال (رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) إلى آخر الدعاء ، ثم استسلمت لأمر الله وجعلت تأكل من ذلك التمر وتشرب من ذلك الماء حتى نفدا فعمطشت ثم عطش ولدها فجعل يتلوى من العطش ، ثم ذهبت فى تلك الحال لعلها ترى أحداً أو تجد مغيثاً ، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا وتطلعت فلم تر أحداً ثم ذهبت الى المروة فصعدت عليه فتطلعت فلم تر أحداً ، ثم جعلت تتردد فى ذلك الموضع وهى مكروبة مضطرة مستغيثة بالله لها ولا بنها ، وهى تمشى وتلفت اليه خشية السباع عليه ، فاذا هبطت الوادى سمعت حتى تصعد من جانبها الآخر للابنخى على بصرها ابنها والفرج مع الكرب ، والمسر يتبعه اليسر ؛ فلما تمت سبع مرات تسمعت حس الملك فبحث فى الموضع الذى فيه زمزم فنبع الماء ، فاشتد فرح أم اسماعيل به فشربت منه وأرضعت ولدها وحمدت

الله على هذه النعمة الكبرى توجّهت على الماء اثلاً يستنج . قال النبي ﷺ « رحم الله أم
اسماعيل لو تركت ماء زمزم - أجزأكم تحوته - اسكنت زمزم عينا معينا » ثم عثر بها قبيلة من
قبائل العرب يقال لهم خزيم فزاولوا عندها وتمت عليها النعمة .

وشت اسماعيل شاباً حسناً وأعجب القابلة بأخلاقه وتعلو همته وكاله ، فلما بلغ تزوج منهم
امراً ، في أثناء هذه المدة ماتت أمه رضى الله عنها وجاء إبراهيم بغيبة اسماعيل يتصيد فدخل
على امرأته فسألها عن زوجها وعن عيشهم ، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيد وأن عيشهم عيش
الشدة ، فقال لها : إذا جاء زوجك فاقرئي مني السلام وقولي له يغير عتبة بابه . ورجم من فوره
لحكمة أرادها الله ، فلما جاء اسماعيل كأنه آتني شيئاً . فسأل امرأته فأخبرته أنه جاءهم شيخ
بهذا الوصف وأنه سأل عنك فأخبرته . وسألنا عن عيشنا فأخبرته إننا في شدة ، وأنه يقرأ عليك
السلام ويقول لا تغير عتبة بابك . فقال ذلك أبي وأنت العتبة إلحقي بأهلك . ثم تزوج اسماعيل
غيرها ، ثم جاء إبراهيم مرة أخرى واسماعيل أيضاً في الصيد . فدخل على امرأته فسألها عن اسماعيل
فأخبرته ، وسألها عن عيشهم فأخبرته أنهم في تعمق وخير . وكانت امرأة طيبة شاكرة لله وشاكرة
لزوجها ، ثم قال لها : إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يثبت عتبة بابه ، ثم رجم أيضاً
من فوره قبل مواجهة اسماعيل لحكمة أرادها الله تعالى ، فلما رجم اسماعيل من صيده قال : هل
جاءكم من أحد ؟ فقالت جاءنا شيخ بهذا الوصف . فقال : هل قال لكم من شيء ؟ فقالت سألتنا
عنك فأخبرته ، وسألنا عن عيشنا فأخبرته إننا في نعمة وأنثيت على الله فقال . فقال : قالت هو يقرأ
عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . فقال : ذلك أبي وأنتي العتبة أمرني أن أمسك .

ثم عاد إبراهيم المرة الثالثة فوجد اسماعيل يبرئ تبلاً عند زمزم ، فلما رآه قام إليه فصمعا كما يصنع
الوالد الشفيق والولد الشفيق . فقال يا اسماعيل إن الله أمرني أن أبني لهذا بيتاً يكون معبداً
للخلق إلى يوم القيامة : قال سأعينك على ذلك ، فجعلوا يرفعان القواعد من البيت ، إبراهيم يبنى
واسماعيل يذاوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا
مسلمين لك ومن ذرئتنا أمة مسلمة لك وأزنا بمناسكنا ونحب علينا أنك أنت التواب الرحيم .
ربنا وأبنت فيهم رسولاً منهم يقول عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم تلك آيت
العزيز الحكيم . فلما تم بنيانه وتتم التحليل لهذا الأثر الجليل أحره الله أن يدعو الناس ويؤذن
فيهم للحج هذا البيت . فجعل يدعو الناس وهم يقدون إلى هذا البيت من كل فج عميق ليشهدوا
منافعهم دوماً وأخرهم يؤمنوا ويؤمنوا ويؤمنوا . وفي هذا الاثناء حين تمكن حب اسماعيل
من قلبه فآراد الله أن يمتحن إبراهيم لتقديم محبة ربه وحلته التي لا تقبل المشاركة والمزاومة
فلأمره في المنام أن يذبح اسماعيل ، ورؤيا الانبياء وحى من الله . فقال لإسماعيل : إني أرى في

المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ، أى خضعا لأمر الله وانقادا لأمره ووطنا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذى لا تكاد النفوس تصبر على عشر معشاره (وتله للجبين) نزل الفرج من الرحمن الرحيم (ونادىناه يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) فحصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشاقة المزعجة ، وحصلت المقدمات والجزم المصمم وتم لها الأجر والثواب ، وحصل لها الشرف والقرب والزلفى من الله ، وما ذلك من اللطاف الرب بعزيز . قال تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم) وأى ذبح أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التى لا يشبهها عبادة ، وصار سنة فى عقبه إلى يوم القيامة يتقرب به إلى الله ويدرك به ثوابه ورضاه (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم)

فصل

ثم ان الله أتم النعمة على ابراهيم ورحم زوجته سارة على الكبر والعقم واليأس بالبشارة بالابن الجليل وهو اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب ، فحين أرسل الله لوطاً إلى قومه وتردوا عليه وحتم الله عقوبتهم ، وكان لوط عليه السلام تلميذاً لابراهيم ، ولا ابراهيم عليه حقوق كثيرة ، فمرت الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط بابراهيم بصورة آدميين ، فلما دخلوا عليه وسلموا ردع عليهم السلام ، بادروهم بالضيافة ، وكان الله قد أعطاه الرزق الواسع والكرم العظيم ، وكان بيته مأواً للأضياف ، فبالحال راغ إلى أهله بسرعة وخفية منهم ، فجاء بعجل سمين مخنوذ مشوى على الرضف فقر به اليهم فقال (ألا تأكلون) فلما رأى أيديهم لاتصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، إذ ظن أنهم لصوص (فقالوا لا نخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وكانت سارة قائمة فى خدمتهم ، وبشروه بغلام عليم ، فصرخت سارة وصكت وجهها متعجبة ومستبشرة ومترددة ومتحيرة وقالت (أألد وأنا عجوز) وقبل ذلك كنت عقيماً ، وهذا بعملى شيخاً ، إن هذا لشيء عجيب ، قلوا : أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، فبشراهما باسحاق وانه يعيش ويولد له يعقوب ويدركانه . ولهذا حمد الله ابراهيم على تمام نعمته وقال (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء)

فصل

﴿ فيها فى قصة الخليل من الفوائد ﴾

ليعلم أن جميع ما قصه الله علينا من سيرة ابراهيم الخليل ﷺ فأننا مأمورون به أمراً خاصاً

قال تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) أى الزموها (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم) الآية . فما هو عليه فى التوحيد والاصول والعقائد والأخلاق وجميع ما قص علينا من نبأه ؛ فان اتباعنا إياه من ديننا ، ولهذا لما كان هذا أمراً عاماً لأحواله كلها استثنى الله حالة من أحواله فقال (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) أى فلا تقتدوا به فى هذه الحال بالاستغفار للمشركين ، فان استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

ومنها أن الله اتخذ خليلاً ، والخلة أعلى درجات المحبة ، وهذه المرتبة لم تحصل لأحد من الخلق إلا للخليين إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

ومنها ما أكرم به الله من الكرامات المتنوعة ، جعل فى ذريته النبوة والكتاب وأخرج من صلبه أمتين هما أفضل الأمم العرب وبنو إسرائيل واختاره الله لبناء بيته الذى هو أشرف بيت وأول بيت وضع للناس ووهب له الأولاد بعد الكبر واليأس ، وملاً بذكره ما بين الخافقين وامتلات قلوب الخلق من محبته وألسنتهم من الثناء عليه .

ومنها أن الله رفعه بالعلم واليقين وقوة الحجج ، قال جل ذكره : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم « ومن شوقه الى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سأل ربه (أرني كيف تحيى الموتى . قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم) ومنها أن من عزم على فعل الطاعات وبذل مقدوره فى أسبابها ، ثم حصل مانع يمنع من أكملها أن أجره قد وجب على الله ، كما قال الله ذلك فى المهاجر الذى يموت قبل أن يصل إلى مهاجرة ، وكما ذكره الله فى قصة الذبح ، وأن الله آتم الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلما لله وأذعنا لأمره ثم رفع عنها المشقة وأوجب لها الأجر الدنيوى والأخروى .

ومنها ما فى قصصه من آداب المناظرة طرقها ومسالكها النافعة وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التى يعترف بها أهل العقول ، وإلجاؤه الخصم الألد الى الاعتراف ببطلان مذهبه وإقامة الحجة على المعاندين وإرشاد المسترشدين .

ومنها أن من نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين ، وأن عليه فى ذلك أن يحمد الله ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل عليه السلام فى قوله (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق) الى آخر الدعاء ، وقال جل ذكره فى الثناء عموماً على من يدعو الله بصالح ذريته :

(حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت اليك وإني من المسلمين) فان العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .

ومنها أن المشاعر ومواضع الأنسك من جملة الحكم فيها ، أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم ، وإيمان بالله ورسوله ، وحث على الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدينية وكل أحوال الرسل الدينية ، لقوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى)

ومنها الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس ومن جميع المعاصي القولية والفعلية تعظيماً لله وإعانة وتنشيطاً للمتعبدين فيه ومثله بقية المساجد لقوله عز وجل (وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) وقال (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)

ومنها أن أفضل الوصايا على الإطلاق ما وصى به إبراهيم بنبيه ويعقوب ، وهو الوصية بملازمة القيام بالدين وتقوى الله والاجتماع على ذلك ، وهي وصيته تعالى للأولين والآخرين ، إذ بها السعادة الأبدية والسلامة من شرور الدنيا والآخرة .

ومنها أن العامل كما عليه أن يتقن عمله ويجتهد في إيقاعه على أكمل الوجوه فعلية مع ذلك أن يكون بين الخوف والرجاء ، وأن يتضرع إلى ربه في قبوله وتكميل نقصه والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص ، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل . ومنها أن الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله ، وكذلك السعي في تحصيلها الدين هو الأصل والمقصود الذي خلق له الخلق والدنيا وسيلة ومعونة عليه لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام بالأمرين وتعليق الدعاء بالأمور الدنيوية أنه وسيلة إلى الشكر فقال (وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا)

ومنها ما اشتملت عليه قصة إبراهيم من مشروعية الضيافة وآدابها ، فان الله أخبر عن ضيفه أنهم مكرمون ، يعني أنهم كرماء على الله ، وأيضاً إبراهيم أكرمهم بضيافته قولاً وفعلًا ، فأكرام الضيف من الأيمان ، وأنه خدمهم بنفسه وبأدب بضيافتهم قبل كل شيء ، وأتى بأطيب ماله عجل حنيد سمين وقربه اليهم ولم يحوجهم إلى الذهاب إلى : لآخر وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال : ألا تأكلون ؟

ومنها مشروعية السلام وأن المبتدئ فيه هو الداخل وهو الماشي ، وأنه يجب رده ومشروعية الوقوف على اسم من يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف لقوله (قوم منكم) أي لا أعرفكم فأحب أن تعرفوني بأنفسكم ، وهذا اللطف من قوله أنكرتكم ونحوه .

ومنها الترغيب في أن يكون أهل الإنسان ومن يتولى شئون بيته حارمين مستعدين لكل

ما يراد منهم من الشئون والقيام بمهمات البيت ، فان ابراهيم في الحال بادر إلى أهله فوجد طعام ضيوفه حاضراً لا يحوج إلا الى تقديمه .

ومنها أن اتيان الولد والبشارة به من سارة وهي عجوز عقيم يعد معجزة لابراهيم وكرامة لسارة ففيه معجزة نبي وكرامة ولي ، ونظيره بشارة الملائكة لمريم بعيسى : وبشارتهم بيحيى زكريا وزوجته ، وكون زكريا جمل الله آية وجود المبشر به أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام ؛ وهو سوى لا آفة فيه إلا بالرمز والاشارة ، وكل هذا وما أشبهه من آيات الله ، وأعجب من هذا إيجاده آدم من تراب . فسبحان من هو على كل شيء قدير .

ومنها ثناء الله على ابراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم ، وقد قال (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أساليبها ، ملآن من الخير والبر والكرم ، سليم من الشبهات القاذحة في العلم واليقين ؛ ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله ، سليم من الكبر ومن الرياء والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، وسليم من الغل والحقد ، ملآن بالتوحيد والايمان والتواضع للحق وللخلق ، والنصيحة للمسلمين والرغبة في عبودية الله وفي نفع عباد الله .

ومنها ما ذكره في قصة نوح وابراهيم وموسى وهارون والياس ﴿ سلام على نوح في العالمين ، سلام على ابراهيم ﴾ يتبعها بقوله (إننا كذلك نجزي المحسنين) فوعد الباري أن كل محسن في عبادته محسن إلى عباده أن الله يجزيه الثناء الحسن والدعاء من العالمين بحسب احسانه ، وهذا ثواب عاجل وآجل ، وهو من البشرى في الحياة الدنيا ومن علامات السعادة .

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

وقصة لوط عليه السلام تبع لقصة ابراهيم ، لأنه تلميذه وقد تعلم من ابراهيم ، وكان له بمنزلة الابن ، فنبأه الله بحياة الخليل وأرسله إلى قرى سدوم من غور فلسطين ، وكانوا مع شركهم بالله يلوطون بالذكور ، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنعاء ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وحذرهم من هذه الفاحشة ؛ فلم يزدادوا إلا اعتواً وتمادياً فيما هم فيه ، ولما أراد الله هلاكهم أرسل الملائكة لذلك فرروا بطريقهم على ابراهيم وأخبروه بذلك ؛ فجعل ابراهيم يجادل في اهلاكهم - وكان رحباً حلماً - وقال : إن فيها لوطاً . قلوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله أجمعين . فقبيل يا ابراهيم اعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود . ولما ذهب الملائكة إلى لوط بصورة أضياف آدميين شباب ، ساء لوطاً ذلك وضاق بهم ذرعاً .

وقال : هذا يوم عصيب « لعله بما عليه قومه من هذه الجراءة الشنيعة ، ووقع ما خاف منه ، فجاءه قومه يهرعون اليه يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط ، فقال (يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) لعله أنه لاحق لهم فيهن ، كما عرض سليمان للمراتين حين اختصمتا في الولد فقال : اثنتون بالسكين أشقه بينكما . ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك ، وهذا مثله . ولهذا قال قومه (لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ، وانك لتعلم ما نريد) وأيضاً يريد بعض العذر من أضيافه ، وعلى هذا التأويل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسرين (هؤلاء بناتى) يعنى زوجاتهم ، يعنى لأن النبي أب لأمته ، فان هذا يمنعه أمران :

أحدهما : قوله (هؤلاء بناتى) يشير اليهن اشارة الحاضر .

ثانياً : هذا الاطلاق على زوجاتهم لا نظير له ، وأيضاً النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به ، لا للكفار ، والمحذور الذى توهموه يزول بما ذكرنا ، وأنه يعلم أنه لاحق لهم فيهن ، وإنما يريد مدافعهم بكل طريق ، فاشتد الأمر بلوط وقال (لو أن لى بكم قوة أو آوى لى ركن شديد) أى لدافعتمكم ، فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال (يا قوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد) فاستلجوا فى طغيانهم وسكرهم ، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمن بأمرهم وأنهم أرسلوا لاهلاكهم ، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط فطمس بهذه الصدمة أعينهم ، فكان هذا عذاباً معجلاً وانموذجاً لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه ، وأمروا لوطاً أن يسرى بأول الليل بأهله ويلج فى السير حتى يخلف ديارهم وينجو من مرة العذاب ، فخرج بهم فما أصبح الصباح حتى خافوا ديارهم وقلب الله عليهم ديارهم فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين الذين يعملون عملهم ببيعد .

وفى هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح ، وأنها توجب العقاب الشديد ، وأن من ابتلى بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح ، فاستحسن ما كان قبيحاً ونفر من الطيب ، وذلك دليل على انحراف الأخلاق

وفى قصة ابراهيم جواز التعريض ، أما قصة ابراهيم فى قوله (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) وأما لوط فى قوله (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) والتعريض يكون فى الأقوال ويكون فى الأفعال ، وهو أن يقصد المتكلم أو العامل لعمل أمر من الأمور التى لا بأس بها ويوم السامع والرائى أمراً آخر ليستجلب منفعة أو يدفع مضرة .

ومنها أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد فى أقواله وأفعاله ، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين ويفرج الكرب عن المكروبين ويأمر بالخير وينهى عن الشر ، هذا هو الرشيد

حقيقة، فلهذا قال لوط : أليس منكم رجل رشيد . أى فيأمر بدروف وينهى عن منكر ويدفع أهل الشر والبغى .

ومنها الحث على السعى فى الاعوان على أمور الخير ودفع الشر ، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشر فإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند الله ، ولهذا قال لوط (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) وأكثر الأنبياء يبعثهم الله فى أشرف قومهم ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل والتمسك من الدعوة مالا يحصل لو لم يكن كذلك ؛ واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بمعز) وكذلك نبينا محمد بعث فى أشرف بيت فى قريش وأعزه ؛ وقد رماه قومه بالعداوة البايغة وعقدوا المجالس المتعددة فى ابطال قوله ودينه ، بل وفى كيفية الفتك به ، ومن الأسباب التى أوقفهم عند حدهم خوفهم من قبيلته ، وانظر إلى حالته فى تضيقهم عليه بالشعب وانحياز قبيلته معهم - مسلمهم وكافرهم - ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيم ، إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرق دمه فى القبائل فيعجز قومه عن الأخذ بثأره ولكنهم يمحرون ويمكرون والله خير الماكرين .

﴿ قصة شعيب عليه السلام ﴾

نَبَأَهُ اللهُ وأرسله إلى أهل مدين ، وكانوا مع شركهم يبخسون المكاييل والموازين ، ويفشون فى المعاملات وينقصون الناس أشياءهم ، فدعاهم إلى توحيد الله ونهاهم عن الشرك به وأمرهم بالعدل فى المعاملات ، وزجرهم عن البخس فى المعاملات ، وذكّرهم الخير الذى أدره الله عليهم ، والأرزاق المتنوعة ، وأنهم ليسوا بحاجة إلى ظلم الناس فى أموالهم ، وخوفهم العذاب المحيط فى الدنيا قبل الآخرة ، فأجابوه ساخرين وردوا عليه منهكين فقالوا (يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لآنت الحليم الرشيد) أى فنحن جازمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون ، وجازمون على أننا نفعل فى أموالنا ما نريد من أى معاملة تكون فلا ندخل تحت أوامر الله وأوامر رسله ، فقال لهم (يا قوم ، أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً) أى أغناينى الله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أى مانيتكم عن المعاملات الخبيثة وظلم الناس فيها ، إلا وأنا أول تارك لها مع أن الله أعطانى ووسع علىّ وأنا محتاج إلى المعاملة ولكنى متقيد بطاعة ربى ، إن أريد فى فعلى وأمرى لكم إلا الإصلاح أى أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

ثم خوفهم أخذت الأمم التي حولهم في الزمان والمكان فقال (ولا يجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) ثم عرض عليهم التوبة ورجعهم فيها فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود) فلم يقد فهم . فقالوا (ما نفقه كثيراً مما تقول) وهذا لعنادهم وبغضهم البليغ للحق (وإنا لترك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) قال (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، إن ربى بما تعملون محيط) ثم لما رأى عتوهم قال (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) وارتقبوا إني معكم رقيب . فلما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) فأرسل الله عليهم حراً أخذباً فغاسهم حتى كادوا يخنقون من شدته ، ثم فى أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظلمت فتنادوا إلى ظلماتها غير الظليل ، فلما اجتمعوا فيها التهمت عليهم ناراً فأحرقتهم وأصبحوا خامدين معذبين مذمومين مدونين فى جميع الأوقات .

وفى قصة شعيب فوائد متعددة : —

منها أن ينحس المكاييل والموازين خصوصاً ، وينحس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة .

ومنها أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعى والحاجة إليها أعظم ، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب ، والكبر من الفقير أقبح من الغنى ، والسرقه ممن ليس به محتاج أعظم من وقوعها من المحتاج . لهذا قال شعيب لقومه (إني أراكم بخير) أى بنعم كثيرة ، فأى أمر أوجبكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة .

ومنها قوله (بقية الله خير لكم) فيه الحث على الرضا بما أعطى الله والاكتفاء بحلاله عن حرامه ، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس .

ومنها فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد الله ، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب : أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنك الحليم الرشيد » وقال تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ومن هنا تعرف حكمة الله ورحمته فى أنه فرض علينا الصلوات تتكرر فى اليوم والليلة لعظم وقعها وشدة نفعها وجميل آثارها ، فله على ذلك أنم الحمد .

ومنها أن العبد فى حركات بدنه وتصرفاته وفى معاملاته المالية داخل تحت حجر الشريعة ، فما أبيع له منها فله ، وما منعه الشرع تعين عليه تركه ، ومن يزعم أنه فى ماله حر له أن يفعل

ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة ، فهو بمنزلة من يرى أن عمل بدنه كذلك ، وأنه لا فرق عنده بين الكفر والايمان ، والصدق والكذب ، وفعل الخير والشر الكل مباح . ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الاباحيين الذين هم شر الخليقة ، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا . لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة ؛ وأباح لهم سواها ، فردوا عليه أنهم أحرار في أموالهم لهم أن يفعلوا فيها ما يريدون ، ونظير هذا قول من قال : إنما البيع مثل الربا ، فن سوى بين ما أباحه وبين ما حرمه الله فقد انحرف في فطرته وعقله بعد ما انحرف في دينه .

ومنها أن الناصح للخلق الذى يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله : أنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له ، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين . لقول شعيب (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه)

ومنها أن الأنبياء جميعهم بعثوا بالاصلاح والصلاح ، ونهوا عن الشرور والفساد ؛ فكل صلاح واصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء ، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ فإنه أبدى وأعاد في هذا الأصل ووضع للخلق الأصول النافعة التى يجرون عليها فى الأمور العادية والدنيوية كما وضع لهم الأصول فى الأمور الدينية ، وأنه كما أن على العبد السعى والاجتهاد فى فعل الصلاح والاصلاح ، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك ، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلك ولا على تكميله إلا بالله لقول شعيب (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب) .

ومنها أن الداعى إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك ، وأن لا يحفظه أذى الخلق ولا يصد عنه شيء من دعوته ، وهذا الخلق كاله للرسل صلوات الله عليهم وسلم ، فانظر إلى شعيب عليه السلام وحسن خلقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعون الأقوال السيئة ويقابلونه بالمقابلة الفعلية ، وهو ﷺ يحلم عليهم ويصفح ويتكلم معهم كلام من لم يصدر منهم له وفى حقه إلا الإحسان ويهون هذا الأمر أن هذا خلق من ظفر به وحازه فقد فاز بالخط العظيم ، وأن لصاحبه عند الله المقامات العالية والنعم المقيم ، ويهونه أنه يعالج أمماً قد طبعوا على أخلاق ازلهم وقلعها أصعب من قلع الجبال الرواسى ، ومرنوا على عقائد ومذاهب يذبلوا فيها الأموال والأرواح وقدموها على جميع المهمات عندهم ، أفنظن مع هذا ان أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القول بأن هذه مذاهب باطلة وأقوال فاسدة ، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء كلاً والله إن هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التى دعت اليها الرسل ، يذكرون بنعم الله وأن الذى تفرد بالنعم يتمين أن يفرد بالعبادة ، ويذكر لهم من تفاصيل النعم ما لا يعد ولا يحصى ،

ويذكرون بما في مذاهبهم من الزيف والفساد والاضطراب والتناقض المنزل للعقائد الداعى إلى تركها ، ويذكرون بما بين أيديهم وما خلفهم من أيام الله ووقائعه بالأمم المكذبة للرسل ، المنكرة للتوحيد ، ويذكرون بما في الايمان بالله وتوحيده ودينه من المحاسن والمصالح والمنافع الدينية والدنيوية الجاذبة للقلوب المسهلة لكل مطلوب ، ومع هذا كله فيحتاج الخلق إلى الاحسان اليهم وبذل المعروف ، وأقل ذلك الصبر على أذاهم وتحمل ما يصدر منهم ولين الكلام معهم ، وسلوك كل سبيل حكمة معهم ، والتنقل معهم في الأمور بالاكتفاء ببعض ما تسمح به أنفسهم ليستدرج بهم إلى تكميله ، والبداة بالأمم فالأمم ، وأعظمهم قياماً بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الاطلاق محمد ﷺ .

﴿ قصة موسى وهارون عليهما السلام ﴾

قد ذكر الله لموسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام سيرة طويلة ، وساق قصصه في مواضع من كتابه بأساليب متنوعة واختصار أو بسط يليق بذلك المقام ، وليس في قصص القرآن أعظم من قصة موسى ، لأنه عالج فرعون وجنوده ، وعالج بنى اسرائيل أشد المعالجة ، وهو أعظم أنبياء بنى اسرائيل ، وشريعته وكتابه التوراة ، هو مرجع أنبياء بنى اسرائيل وعلمائهم وأتباعه أكثر أتباع الانبياء غير أمة محمد ﷺ ، وله من القوة العظيمة في اقامة دين الله والدعوة اليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره ، وقد ولد في وقت قد اشتد فيه فرعون على بنى اسرائيل فكان يذبح كل مولود ذكر يولد من بنى اسرائيل ويستحيى النساء للخدمة والامتهان ، فلما ولدت أمه خافت عليه خوفاً شديداً ، فان فرعون جعل على بنى اسرائيل من يرقب نساهم ومواليدهم ، وكان ييتها على ضفة نهر النيل فألهمها الله أن وضعت له تابوتاً إذا خافت أحداً ألقته في النهر وربطته بحبل لثلاث تجرى به جرية الماء ومن لطف الله بها أنه أوحى لها أن لا تخافى ولا تحزننى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ، فلما ألقته ذات يوم انفلت رباط التابوت ، فذهب الماء بالتابوت الذى في وسطه موسى ، ومن قدر الله أن وقع في يد آل فرعون وجىء به الى امرأة فرعون آسية فلما رأت أمه أحبته حباً شديداً ، وكان الله قد ألقى عليه المحبة في القلوب وشاع الخبر ووصل إلى فرعون فطلبه ليقتله ، فقالت امرأته لا تقتلوه قرة عين لى ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولداً ، فنجى بهذا السبب من قتلهم ، وكان هذا الأثر الطيب والمقدمة الصالحة من السعى المشكور عند الله ، فكان هذا من أسباب هدايتها وإيمانها بموسى بعد ذلك .

أما أم موسى فانها فرغت وأصبح فؤادها فارغاً ، وكاد الصبر أن يغلب فيها إن كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأختة قصيه ونحسى عنه ، وكانت امرأة

فرعون قد عرضت عليه المراضع فلم يقبل ثدى امرأة ، وعطش وجعل يتلوى من الجوع وأخرجوه الى الطريق لعل الله أن ييسر له أحداً ، فحانت من أخته نظرة اليه وبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بشأنها ، فلما أقبلت عليه وفهمت منهم أنهم يطلبون له مرضعاً قالت لهم : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؛ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا نحزن . ثم ذكر الله في هذه السورة قصة مفصلة واضحة ، وكيف تنقلت به الأحوال ، قراءتها كافية عن شرح معناها لوضوحها وتفصيلاتها ، والله تعالى ما فصل لنا إلا ما ننتفع به ونعتبر ، ولكن في قصته من العبر والفوائد شيء كثير نذبه على بعضها .

﴿ ذكر الفوائد المستنبطة نصاً و ظاهراً أو تعميماً أو تعايلاً من قصة موسى ﷺ ﴾

منها : لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها ، ثم تلك البشارة من الله لها برده إليها ، التي لولاها لقصى عليها الحزن على ولدها ، ثم رده إليها بالجلالة إليها قدراً بتحريم المراضع عليه وبذلك وغيره يعلم أن الطواف الله على أوليائه لا تتصورها العقول ، ولا تعبر عنها العبارات ، وتأمل موقع هذه البشارة وأنه أنجاه ابنها ترضعه جهراً وتأخذ عليه أجراً وتسمى أمه شرعاً وقدراً وبذلك اطمان قلبها وازداد إيمانها ، وفي هذا مصداق لقوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون ، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة وآثاره الطيبة .

ومنها : أن آيات الله وعبره في الأمم السابقة ؛ إنما يستفيد منها ويستنير بها المؤمنون ؛ والله يسوق القصص لاجلهم ، كما قال تعالى في هذه القصة (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون)

ومنها : أن الله إذا أراد شيئاً هياً أسبابه وآتى به شيئاً فشيئاً بالتدريج لا دفعة واحدة .
ومنها : أن الأمة المستضعفة ولو بلغت في الضعف ما بلغت لا ينبغي أن يستولى عليها الكسل عن السعي في حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور ، خصوصاً إذا كانوا مظلومين ، كما استنقذ الله بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملائته منهم ، وممكنهم في الأرض وملكهم بلادهم .

ومنها : أن الأمة ما دامت ذليلة مهورة لا تطالب بحقوقها لا يقوم لها أمر دينها كما لا يقوم لها أمر دنياها .

ومنها : أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله ، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف .

ومنها : أن الإيمان يزيد وينقص لقوله (ولتكون من المؤمنين) والمراد بالإيمان هنا زيادته وزيادة طمأنينته .

ومنها : أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المقلقات والخاوف ، فانه كما يزداد به إيمانه وثوابه فانه يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب ، ويبقى رأيه وأفكاره ثابتة ، وأما من لم يحصل له هذا الثبات ، فانه لقلقه وروعته يضعف فكره ويذهل عقله ولا ينتفع بنفسه في تلك الحال .

ومنها : أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق ، وأن وعد الله نافذ لا بد منه ، فانه لا يعمل فعل الأسباب التي تنفع ، فان الأسباب والسعي فيها من قدر الله ، فان الله قد وعد أم موسى أن يردّه عليها ، ومع ذلك لما التقطه آل فرعون سعت بالأسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال .

ومنها : جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليفها للرجال إذا انتفى المحذور ، كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين .

ومنها : جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع ، كما فعلت أم موسى ، فان شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه

ومنها : أن قتل الكافر الذي له عهد بمقد أو عرف لا يجوز ، فان موسى ندم على قتله القبطى واستغفر الله منه وتاب اليه .

ومنها : أن الذى يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين المفسدين فى الأرض ، ولو كان غرضه من ذلك الارهاب ، ولو زعم أنه مصلح حتى يرد الشرع بما يبيح قتل النفس

ومنها : أن اخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شريع به لا يكون نهيمة ، بل قد يكون واجباً ، كما ساق الله خبر ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسمى محذراً لموسى على وجه الثناء عليه .

ومنها : إذا خاف التلف بالقتل بغير حق فى اقامته فى موضع ، فلا يلتقى بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك ، بل يفر من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى

ومنها : إذا كان لا بد من ارتكاب إحدى مفسدتين تدين ارتكاب الأخف منهما الاسلام دفعاً لما هو أعظم وأخطر ، فان موسى لما دار الامر بين بقاءه فى مصر ولكنه يقتل أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التى لا يعرف الطريق اليها ، وليس معه دليل يده غير هداية ربه ، ومعلوم أنها أرجى للسلامة لا جرم آثرها موسى .

ومنها : فيه تنبيه لطيف على أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به إذا لم يترجح عنده أحد القولين ، فإنه يستهدى ربه ويسأله أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه ، فإن الله لا يخيب من هذه حاله ، كما جرى لموسى لما قصد تلقاء مدين ولا يدري الطريق المعين إليها قال (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) وقد هداه الله وأعطاه ما رجاه وتمناه .

ومنها : أن الرحمة والاحسان على الخلق ، من عرفه العبد ومن لا يعرفه ، من أخلاق الأنبياء ، وأن من جملة الاحسان الاعانة على سقى الماشية ، وخصوصاً اعانة العاجز ، كما فعل موسى مع ابنتي صاحب مدين حين سقى لهما ، لما رآهما عاجزتين عن سقى ماشيتهما قبل صدور الرعاة

ومنها : أن الله كما يحب من الداعي أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة ، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره وعدم قدرته على تحصيل مصالحه ودفع الأضرار عن نفسه كما قال موسى (رب إني لمأ أنزلت إلى من خير فقير) لما في ذلك من اظهار التضرع والمسكنة والافتقار لله الذي هو حقيقة كل عبد .

ومنها : أن الحياء والمكافأة على الاحسان لم يزل دأب الأمم الصالحين .

ومنها : أن العبد إذا عمل العمل لله خالصاً ثم حصل به مكافأة عليه بنير قصده فإنه لا يلام على ذلك ولا يخل باخلاصه وأجره ، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين عن معرفته الذي لم يطلبه ولم يستشرف له على معاوضة

ومنها جواز الاجارة على كل عمل معلوم في نفع معلوم أو زمن مسمى ، وأن مرد ذلك إلى العرف ، وأنه تجوز الاجارة وتكون المنفعة البضع ، كما قال صاحب مدين (إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين) الآية . وأنه يجوز للانسان أن يخاطب الرجل لابنته ونحوها ممن هو ولى عليها ولا نقص في ذلك ، بل قد يكون نفعاً وكلاً ، كما فعل صاحب مدين مع موسى

ومنها قوله (ان خير من استأجرت القوي الأمين) هذان الوصفان فيما تمام الأعمال كلها ، فكل عمل من الولايات أو من الخدمات أو من الصناعات أو من الأعمال التي القصد منها الحفظ والمراقبة على المال والأعمال إذا جمع الانسان الوصفين ، أن يكون قوياً على ذلك العمل بحسب احوال الأعمال ، وأن يكون مؤتمناً عليه ، ثم ذلك العمل وحصل مقصوده ونمرته ، والخلل والنقص سببه الاخلال بها أو بأحدهما .

ومنها من أعظم مكارم الاخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومغامل وغيرهم ، ومن ذلك تخفيف العمل عن العامل لقوله (وما أريد أن أشق عليك ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين) وفيه أنه لا بأس أن يرغب العامل في معاملته بالمعاوضات

والاجارات بأن يصف نفسه بحسن المعاملة بشرط أن يكون صادقاً في ذلك .
ومنها جواز عقد المعاملات من اجارة وغيرها بغير اشهاد لقوله (والله على ما نقول وكيل)
وتقدم أن الاشهاد تنحفظ به الحقوق ، وتقل المنازعات ، والناس في هذا الموضع درجات متفاوتة
وكذلك الحقوق

ومنها الآيات البينات التي أيد الله بها موسى من انقلاب عصاه التي كان يعرفها (حية تسمى)
ثم عودها سيرتها الأولى ، وأن يده إذا أدخلها في جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء من غير سوء
للناظرين ؛ ومن رحمة الله وحمايته لموسى وهارون من فردوز ومائه ، ومن انفلاق البحر لما ضرب به موسى بعصاه
فصار اثني عشر طريقاً وسلكه هؤلاء فنجوا ، وقوم فرعون فهلكوا ، وغير ذلك من الآيات
المتتابعات التي هي براهين وآيات لمن رآها وشاهدها ، وبراهين لمن سمعها ، فانها نقلتها معظم مصادر
اليقين ، الكتب السماوية ، ونقلتها القرون كلها ، ولم ينكر مثل هذه الآيات إلا جاهل مكابر
زنديق ، وجميع آيات الانبياء بهذه المثابة .

ومنها أن آيات الانبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه الله من الآيات ومن تغيير الأسباب أو
منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب أخر أو وجود موانع تعوقها هي من البراهين العظيمة على
وحدانية الله ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير ،
وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل الله في هذه المخلوقات من الأسباب
المجسوسة والنظامات المعهودة ، وإنك لا تجد لسنة الله تبديلاً ولا تمويلاً ؛ فان سنن الله في جميع
الحوادث السابقة واللاحقة قسماً :

أحدهما : وهو جمهور الحوادث والكائنات والأحكام الشرعية والقدرية وأحكام الجزاء .
لا تتغير ولا تتبدل عما يعهده الناس ويعرفون أسبابه ؛ وهذا القسم أيضاً مندرج في قدرة الله
وقضائه ، ويستفاد من هذا العلم بكال حكمة الله في خلقه وشرعه ، وأن الأسباب والمسببات من
سلك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها ونعراتها ؛ ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه
ناقص لم يحصل له الثمرات التي رتب على الأعمال شرعاً ولا قدرأ ، وهذه توجب للعبد أن يجهد
ويجتهد في الأسباب الدينية والدينية النافعة مع استعانته بالله والثناء على ربه في تيميرها وتيسير
أسبابها وآلاتها وكل ما تتوقف عليه

القسم الثاني : حوادث معجزات الانبياء التي تواترت تواتراً لا يتواتر مثله في جميع الأخبار
وتناقلتها القرون كلها ، وكذلك ما يكرم الله به عباده من اجابة الدعوات وتفريج الكربات وحصول

المطالب المتنوعة ودفع المكارِه التي لا قدرة للعبد على دفعها ، والفتوحات الربانية والالهامات الالهية والانوار التي يقدفها الله في قلوب خواص خلقه فيحصل لهم بذلك من اليقين والطمأنينة والعلوم المتنوعة مالا يدرك بمجرد الطلب وفعل السبب ، ومن نصره للرسول وأتباعهم وخذلانه لاعدائهم وهو مشاهد في كثير من الأوقات ، فهذا القسم ليس عند الخلق اهتداء إلى أسباب هذه الحوادث ولا جعل لهم في الأصل وصول إلى حقيقتها وكنهها ، وإنما هي حوادث قدرها الرب العظيم الذي هو على كل شيء قدير بأسباب وحكم وسنن لا يعقلها الخلق ، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول إليها بوجه من الوجوه ، وبيننا آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم وأتباعهم ، الأولون منهم والآخرين ، وبها يعرف عظمة الباري ، وأن نواصي العباد بيده ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ويعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل ، كما يعرف أيضاً بالقسم الأول ، وكما أنه لا سبيل إلى العباد في هذه الدار إلى ادراك كنه صفات اليوم الآخر وكنه ما في الجنة والنار ، وإنما يعلمون منها ما علمتهم به الرسل ونزلت به الكتب ، ولا سبيل إلى أهل هذا الكون الارضى للوصول إلى العالم السماوى ، ولا سبيل لهم إلى إحياء الموتى وإيجاد الأرواح في الجمادات ، فكذلك هذا النوع العظيم من حوادث الكون ، وإنما أطلنا الكلام على هذه المسألة وإن كانت تستحق من البسط أكثر من هذا الأمرين .

أحدهما : أن الزنادقة المتأخرين الذين أنكروا وجود الباري وأنكروا جميع ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية من أمور النيب ، ولم يثبتوا من العلوم إلا ما وصلت إليه حواسهم وتجاربهم القاصرة على بعض علوم الكون ، وأنكروا ما سوى ذلك ، وزعموا أن هذا العالم وهذا النظام الموجود فيه لا يمكن أن يغيره مغير ، أو يغير شيئاً من أسبابه ، وأنه وجد صدقة من غير إيجاد موجد ، وأنه آله تمشي بنفسها وطبيعتها ، ليس لها مدبر ولا رب ولا خالق ، وهؤلاء جميع أهل الأديان يعرفون مكابرتهم ومباهاتهم لأنهم كما عدوا الدين بالكيفية فقد اختلت عقولهم الحقيقة ، إذ أنكروا أجلى الحقائق وأوضحها ، وأعظمها براهين وآيات ، وتاهوا بعقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة ، هؤلاء أمرهم معلوم ولكن ..

الأمر الثانى : أن بعض أهل العلم العصريين الذين يتظاهرون بنصر الاسلام ، والدخول مع هؤلاء الزنادقة في الجدل عنه يريدون بلجهادهم أو اغترارهم أن يطبقوا السنن الالهية ، وأمور الآخرة على ما يعرفه العباد بحواسهم ويدركونه بتجاربهم ، فخرقوا لذلك المعجزات ، وأنكروا الآيات البينات ، ولم يستفيدوا إلا الضرر على أنفسهم وعلى من قرأ كتاباتهم في هذه المباحث ، إذ ضعف إيمانهم بالله بتحريفهم لمعجزات الأنبياء تحريفاً يؤول إلى إنكارها وإنكارهم هذا النوع العظيم من قضاء الله وقدره ، وضعف إيمان من وقف على كلامهم ممن ليست له بصيرة ولا عنده من

العلوم الدينية ما يبطل هذا النوع ، ولم يحصل ما زعموه من جلب الماديين إلى الهدى والدين ، بل زادوهم إغراء ، في مذاهبهم ، لما رأوا أمثال هؤلاء يحاولون ارجاع النصوص الدينية ومعجزات الانبياء ، وأمور الغيب إلى علوم هؤلاء القاصرة على التجارب والمدرجات بالحواس ، فباعظم المصيبة وباشدة الجرم المزوق ، ولكن ضعف البصيرة والاعجاب بزنادقة الدهريين أوجب الخضوع لأقوالهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ومنها : أن من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إماماً في الشر وداعياً إليه ؛ كما أن من أعظم نعم الله على العبد أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً ، قال تعالى في فرعون ومثله (وجعلناهم أئمة يهدون إلى النار) وقال (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا)

ومنها : ما في هذه القصة من الدلالة على رسالة محمد ﷺ إذ أخبر بهذه القصة وغيرها خبراً مفصلاً مطابقاً وتأسيساً موافقاً ، قصه قصاً صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين ، وهو لم يحضر في شيء من تلك المواضع ولا درس شيئاً عرف به أحوال هذه التفصيلات ، ولا جالس وأخذ عن أحد من أهل العلم ، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم ، ووحى أنزله عليه الكريم المثاني لينذر به العباد أجمعين . ولهذا يقول في آخر هذه القصة (وما كنت بجانب الطور ، وما كنت بجانب الغربي إذ أوحينا إلى موسى ، وما كنت ثابراً في أهل مدين) الآية . وهذا نوع من أنواع براهين رسالته ومنها : ذكر كثير من أهل العلم ؛ انه يستفاد من قوله تعالى عن جواب موسى لربه لما سأله عن العصا فقال (وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي) الآية ، استحباب استحباب العصا لما فيه من هذه المنافع المعينة والمحملة في قوله (مأرب أخرى) وانه يستفاد منها أيضاً الرحمة بالبهائم والاحسان إليها والسعي في إزالة ضررها .

ومنها : أن قوله جل ذكره (أقم الصلاة لذكرك) أي إن ذكر العبد لربه هو الذي خلق له العبد وبه صلاحه وفلاحه ، وأن المقصود من إقامة الصلاة إقامة هذا المقصود الأعظم ، ولولا الصلاة التي تتكرر على المؤمنين في اليوم والليلة لتذكروهم بالله ، ويتعاهدون فيها قراءة القرآن والثناء على الله ودعائه والخضوع له الذي هو روح الذكر ، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين . وبما أن الذكر هو الذي خلق الخلق لأجله ، والعبادات كلها ذكر لله ، فكذلك الذكر يبين العبد على القيام بالطاعات وإن شئت ، ويهون عليه الوقوف بين يدي الجبابرة ، ويخفف عليه الدعوة إلى الله ، قال تعالى في هذه القصة (كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً) وقال (اذهب أنت وأخوك بآبائي ولا تنيا في ذكري) . ومنها : إحسان موسى ﷺ على أخيه هارون إذ طلب من ربه أن يكون نبياً معه ، وطلب المعاونة على الخير والمساعدة عليه إذ قال (واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه في أمري) الآيات .

ومنها : أن الفصاحة والبيان مما يمين على التعليم وعلى إقامة الدعوة ، لهذا طلب موسى من ربه أن يحل عقدة من لسانه ليفتقها قوله ، وأن اللثغة لأعيب فيها إذا حصل الفهم للكلام ، ومن كمال أدب موسى مع ربه أنه لم يسأل زوال اللثغة كلها ؛ بل سأل إزالة ما يحصل به المقصود .

ومنها : أن الذي ينبغي في مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم : الرفق والكلام اللين الذي يحصل به الإفهام بلا تشويش ولا غلظة ، وهذا يحتاج إليه في كل مقام ، لكن هذا أهم المواضع . وذلك لأنه الذي يحصل به الغرض المقصود ، وهو قوله (لعله يتذكر أو يخشى)

ومنها : أن من كان في طاعة الله مستمعيناً بالله واثقاً بوعده الله راجياً ثواب الله ، فإن الله معه ومن كان الله معه فلا خوف عليه ، لقوله تعالى (لا تخافا) ثم علله بقوله (إنني معكما أسمع وأرى) وقال تعالى (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

ومنها : أن أسباب العذاب منحصرة في هذين الوصفين (إنا قد أوحى اليك أن العذاب على من كذب وتولى) أى كذب خبر الله وخبر رسله ، وتولى عن طاعة الله وطاعة رسله ، ونظيرها قوله تعالى (لا يصلاحها إلا الأشقي الذي كذب وتولى)

ومنها : أن قوله تعالى (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) استوعب الله بها الأسباب التي تدرك بها مغفرة الله

أحدها : التوبة ، وهو الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ، وهي توجب ما قبلها من الذنوب صغارها وكبارها .

الثاني : الإيمان ، وهو الاقرار والتصديق الجازم العام بكل ما أخبر الله به ورسوله ، الموجب لأعمال القلوب ، ثم تتبعها أعمال الجوارح ، ولا ريب أن مافي القلب من الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر الذي لا ريب فيه ، أصل الطاعات وأكبرها وأساسها ، ولا ريب أنه بحسب قوته يدفع السيئات ، يدفع ما لم يقع فيمنع صاحبه من وقوعه ، ويدفع ما وقع بالاثبات بما ينأفقه وعدم اصرار القلب عليه ، فإن المؤمن ما في قلبه من الإيمان ونوره لا يجامع المعاصي .

والثالث : العمل الصالح ، وهذا شامل لأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان والحسنات يذهبن السيئات .

الرابع : الاستمرار على الإيمان والهداية والازدياد منها ، فمن كمل هذه الأسباب الأربعة فليبشر بمغفرة الله العامة الشاملة . ولهذا آتى فيه بوصف المبالغة فقال (وإني لغفار) ولنكتف من قصة موسى بهذه الفوائد ، مع أن فيها فوائد كثيرة للتعاملين .

(قصة يونس صلى الله عليه وسلم)

وهو من أنبياء بنى إسرائيل العظام ، بعثه الله إلى أهل نينوى - من أرض الموصل - فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه ، ثم كرر عليهم الدعوة فأبوا ، فوعدهم العذاب وخرج من بين أظهرهم ولم يصبر الصبر الذي ينبغي ، ولكنه أبق مفاضباً لهم . وهم لما ذهب نبيهم ألقى في قلوبهم التوبة إلى الله والانابة بعد ما شاهدوا مقدمات العذاب ، فكشف الله عنهم العذاب . والظاهر أن يونس علم انكشاف العذاب عنهم واستمر في ذهابه عنهم ، ولهذا قال تعالى (إذ ذهب مفاضباً) وقال تعالى (إذ أبق إلى الفلك المشحون) فركب في سفينة موقرة من الركاب والأحمال ، فلما توسطوا البحر شارفت على الفرق ودار الأمر بين أن يبقوا جميعاً فيها فيهلكوا وبين أن يلقوا بعضهم بمقدار ما تخف السفينة فيسلم الباقيون ، فاختاروا الأخير لعدولهم وتوفيقهم فاقترعوا فأصاب القرعة أناساً منهم ، ومنهم يونس عليه السلام ، وهذا قال (فكان من المدحضين) أى المغلوبين في القرعة ، فألقوا فابتلعه حوت في البحر ابتلاعاً ، لم يكسر له عظماً ولم يمضغ له لحماً فلما صار في جوف الحوت ، فى تلك الظلمات نادى (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فأمر الله الحوت أن تلقه بالعراء . فخرج من بطنها كالتفرخ الممعوطة من البيضة فى غاية الضعف والوهن ، فلطف الله به وأنبت عليه شجرة من يقطين فأظلمت بظلمها الظليل حتى قوى واشتد ، وأمره الله أن يرجع إلى قومه فيعلمهم ويدعوهم ، فاستجاب له أهل بلده مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فتنعموا إلى حين .

وفى هذه القصة عتاب الله ليونس (ص) اللطيف وحبه فى بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة وكرامة ليونس . ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه فكثرة أتباع الأنبياء من جملة فضائلهم .

وفى استعمال القرعة عند الاشتباه فى مسائل الاستحقاق والحرمان إذا لم يكن مرجح سواها ، وفى عمل أهل السفينة هذا العمل دليل على القاعدة المشهورة أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذى هو أكبر منه ، ولا ريب أن القاء بعضهم وإن كان فيه ضرر ، فعطب الجميع إذا لم يلق أحد أعظم .

وفى أن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه وقد تعرف إلى ربه فى حال الرخاء ، أن الله يشكر له ذلك ويعرفه فى حال الشدة بكشفها بالكفاية أو تخفيفها ، ولهذا قال فى قصة يونس (فلو لا أنه كان من المسيحين للبت فى بطنه إلى يوم يبعثون)

وفى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم : دعوة أخى ذى النون ما دعى بها مكروب إلا فرج الله عنه (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)

وفيهما أن الإيمان ينجي من الأهوال والشدائد لقوله تعالى (وكذلك ننجي المؤمنين) أى إذا وقعوا فيها لا يمانهم .

﴿ قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ﴾

وكانا من أعظم أنبياء بنى اسرائيل ، وجمع الله لهما بين النبوة والحكمة والملك العظيم القوى أما داود عليه السلام فكان من جملة العسكر الذين مع طالوت الذى اختاره أحد أنبياء بنى اسرائيل ملكا على بنى اسرائيل لشجاعته وقوته وعلمه فى السياسة ونظام الجيوش ، كما قال تعالى (وزاده بسطة فى العلم والجسم) ولما برزوا لجالوت وجنوده وصبر عسكر طالوت واستعانوا بالله تفوق داود عليه السلام على الجميع بالشجاعة العظيمة ، فباشر بنفسه قتل ملكهم جالوت وحصلت الهزيمة على بقيتهم ونصر الله بنى اسرائيل ذلك النصر . نبأ الله داود وأعطاه الحكمة والملك القوى ، كما قال تعالى (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وكان قد أعطاه الله قوة فى العبادة وبصيرة ، ووصفه الله بهذين الوصفين اللذين بهما كمال العبد فقال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الابدى إنه أواب) فوصفه بالثبوت العظيمة على ما أمر الله ، وبأنه أواب لكمال معرفته بالله ، وكان الله تعالى قد سخر له الطير والجبال تسبح الله معه ، وكان قد أعطى من حسن الصوت ورخامته ما لم يؤت أحد من العالمين . وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما ، وكان إذا لاقى العدو رأى الخلق من شجاعته ما يجب الناظرين ، وقد ألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع الواقية فى الحروب ، وهو أول من صنع الدروع السردية ذوات الخلق التى يحصل فيها الوقاية وهى خفيفة الحمل ، وقد عاتبه الله بسبب ذنب أذنبه بأن أرسل اليه ملكين بصورة خصمين ، فدخلوا عليه وهو فى محرابه ففرغ منهم ، لأنهم دخلوا عليه فى وقت لا يدخل عليه فيه أحد وتسوروا المحراب وقالوا (لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط) ثم قص عليه أحدهما القصة فقال : إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة - والمراد بها المرأة - ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب ، أى صار خطابه أقوى منى فقلبنى . فقال داود عليه السلام : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وعلم داود أنه هو المراد بهذه القضية فانقبه لذلك (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزافى وحسن مأب) فحى الله عنه الذنب وعاد بعد التوبة أحسن مما كان قبل ذلك ، حصل له القرب العظيم من ربه وحسن العاقبة ، وقال الله له (يا داود إنا جعلناك

خليفه في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (الآية .
 وأما سليمان بن داود عليه السلام فإن الله أعطاه النبوة وورث أباه علمه ونبوته وملكه ، وزاده
 الله ملكاً عظيماً لم يحصل لأحد قبله ولا بعده ، سخر الله له الريح تجري بأمره وتدبيره برحاء ، أى
 بسهولة حيث أراد ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وسخر الله له الجن والشياطين والعفاريت يعملون
 له الأعمال الفخمة بحسب إرادته ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ،
 وقصور راسيات ، وتذهب وتجيى بأمره إلى حيث أراد ، وسخر له من الجنود من الانس والجن
 والطيور ، فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب ، وعلمه الله منطق الطير وسائر الحيوانات ،
 فكانت مخاطبه ويفهم ما تكلم به ، ولهذا خاطب الهدهد وراجعته تلك المراجعة ، وسمع النملة إذ
 نادى في قومها (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون)
 فخذرت وأمرت بما يقى من الخطر واعتذرت عن سليمان وجنوده ، فلماذا ابتسم سليمان ضاحكاً من
 قولها وقال (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه
 وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين)

ومن حسن نظامه وحزمه أنه يتفقد الجنود بنفسه ، مع أنه قد جعل لهم مدبرين ، فان قوله
 (فهم يوزعون) دليل على ذلك ، حتى أنه تفقد الطيور لينظر هل هى لازمة لمراكزها فقال (مالى
 لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر
 له الأرض وبعد ماؤها ، فان هذا خلاف اللفظ القرآنى ، فان الله لم يقل وطلب الهدهد ، بل قال :
 (وتفقد الطير) ثم توعدته لمخالفته لأمره ، ولما كان ملكه مبنياً على كمال العدل استثنى فقال
 (لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فبكث غير بعيد فقال : أحطت
 بما لم تحط به وجنتك من سبأ بنياً يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها
 عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدم عن
 السبيل فهم لا يفتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون
 وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) ففى هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه
 المعلومات العظيمة . أخبر سليمان عن ملك الديار الجانية وأن ملكتهم امرأة ، وأنها قد أعطيت
 من كل شئ ، يحتاج الملك اليه وأن لها عرشاً عظيماً ، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فهم أيضاً دينهم ،
 وأنهم مشركون يعبدون الشمس ، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار ، هذا من الأدلة على أن
 الحيوانات تعرف ربها وتسبحه وتوحده ، وتحب المؤمنين وتدين ربهما بذلك ، وتبغض الكفار
 المكذبين ، وتدبر الله بذلك ، فقال له سليمان (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب

بكتابي هذا فألقه إليهم ثم نول عنهم فانظر ماذا يرجعون) فذهب بالكتاب فألقاه في حجر المرأة ملكة سبا ، فلما قرأته عظمتة جداً وأرعبت منه فزعاً وجمعت رؤساء قومها فقالت (يا أيها الملأ) إني ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو عليّ واءتوني مسلمين) كتاب مختصر جامع فيه المقصود كله ، قالت (يا أيها الملأ أفتوني في أمرى) أى أشيروا عليّ ، وهذا من حزمها وحسن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها (ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) قالوا (نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) أى مستعدون لما تقولين حرباً وسلاماً ، وأرجعنا الأمر إلى ما نختارين ، فمن عزمها وحزمها وبعد نظرها عدلت عن الحرب واختارت السلم ، لكن بصورة حازمة ، فقالت سأهدى له هدية حاضرة (فناظرة بم يرجع المرسلون) إن كان من الملوك الذين ليس لهم هم إلا الدنيا ، فربما أن الهدية كسرت سورته وفلت عزيمته وسالمناوسالمناه من بعيد ، وإن كان غير ذلك بأن لنا الأمر . فأرسلت أناساً ذوى عقل وحزم وخبرة ومعرفة ، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال (أتمدون ببال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) فبين لهم أنه لا غرض له في الدنيا ، وإنما غرضه إقامة الدين ودخول عباد الله في الاسلام ، ثم وصى الرسل واستغنى بذلك عن الكتاب ، وقال للرسول (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وعلم سليمان أنهم سينقادون ويسلمون ، فقال لأهل مجلسه (أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين) وسليمان بالديار الشامية وبينه وبينها مسافة شهرين ذهاباً وشهرين إياباً : ثم قال الذى عنده علم من الكتاب (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين إنه رجل صالح قد أعطى الاسم الأعظم الذى إذا دعى الله به أجاب ، وأنه دعى الله فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه ، ويحتمل أن الذى عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التى سخرها الله لسليمان ؛ أسباب يحصل بها تقريب المواصلات وجلب الأشياء البعيدة .

وعلى كل فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم ، ولهذا لما رآه مستقراً عنده حمد الله على ذلك ، قال (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم) فقال لمن حوله « نكروا لها عرشها » أى غيروا فيه وزيدوا وأنقصوا « ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » وكان قد مدح له رأيها وعقلها فأحب أن يقف على الحقيقة ، فلما جاءت قيل (أهكذا عرشك ؟) وعرض عليها ، فلما رآته عرفته ورأت ما فيه من التكبر فأنكرته فقالت مرددة للاحتمالين (كأنه هو) لم تقل هو لما فيه من التغيير ،

ولم تنف أنه هو لما كانت تعرفه ، فأنت بلفظ صالح للأمرين ، فعرف سليمان رجاحة عقلها .
(وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) إن كان هذا من كلام سليمان فعناه أننا أخبرنا عن
عقلها وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحققناها لما سبرناها ، وإن كان الكلام كلام ملكة سبأ ،
فإنها تقول (وأوتينا العلم) عن ملك سليمان ، وأنه ملك نبوة ورسالة وقوة هائلة من قبل هذه الحالة
(وكنا مسلمين) مدعين لما قاله سليمان بعدما تحققنا أمره ، فكانه قيل مع عقلها هذا ورأيها
السديد فكيف كانت تعبد غير الله ، وكيف اجتمع العقل وعبادة من لا ينفع ولا يضر ، وإنما
يضر من عبده .

حاصل الجواب قوله (وصدها ما كانت تعبد من دون الله أنها كانت من قوم كافرين) أى
العقائد التى نشأت عليها ، والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل وتذهب لب اللبيب حتى
يقوض له من الأسباب المباركة ما يبين له الحق ويمنّ عليه باتباعه .

وكان له صرح من قوارير أجرى تحته الأنهار ، فكان من ينظر اليه يظنه ماء يجرى ، لأن
الزجاج شفاف ، فلما قيل لها ادخلى الصرح . فرأته لجة وكشفت عن ساقبها . قال إنه صرح ممر
من قوارير . قالت (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) فأسلمت لله واتبعتها
قومها ، فيقال إن سليمان تزوجها ، والله أعلم

ولما كانت الشياطين زمن سليمان قد سخرهم الله له وبلغه أنهم باجتماعهم بالانس يعلمونهم
السحر فجمعهم وتوعدهم وأخذ كتبهم ودفعها ، فلما توفى سليمان جاءت الشياطين للناس وقالوا :
إن ملك سليمان مشيد على السحر ، واستخرجوا الكتب التى دفنها ، وأشادوا من إغوائهم للناس
أنها مأخوذة من سليمان ، وأن سليمان ساحر ، وروج ذلك طائفة من اليهود ، فبرأ الله سليمان من
هذا الأمر وبين أن السحر من العلوم المضارة فقال تعالى (واتبوا ما تنزلوا الشياطين على ملك
سليمان وما كفر سليمان) أى بتعليم السحر والرضاء به (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس
السحر) الآية ، وهذا من عظمة القرآن أنه يأمر الخلق بالإيمان بجميع الرسل ويذكرهم بأوصافهم
الجميلة وينزههم عما قاله الناس فيهم مما ينافى رسالتهم

وكان الله قد ابتلى سليمان وألقى على كرسيه جسداً ، أى شيطاناً عتاقاً له على بعض الهفوات
وارجاعاً له إلى كمال الخضوع لربه ، ولهذا قال تعالى (ثم أناب) إلى الله بقلبه ولسانه وبدنه
بظاهره وباطنه فقال (رب اغفرلى وهب لى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب)
فاستجاب الله له دعاءه وأعطاه ما طلبه من مغفرة الذنب ، وأعطاه جميع ما طلب كما تقدم
وقد أثنى الله على داود وسليمان بالعلم والحكم ، وخص سليمان بزيادة الفهم فقال (وداود

وسليمان إذ يحكم في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم) أى دخلت الغنم بستانهم لئلا فرغت زرعه وأشجاره ؛ فحكم داود بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث ، لظنه أن الذى تلف من الحرث يقابل قيمتها ، ثم رفعت القضية إلى سليمان ، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقى والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نفشها ، ويدفع له صاحب الغنم الغنم ينتفع بذرهما ولبنها ودهنها وضوفها ومغلاها مقابلة ما كان يصدد أن ينتفع بحرثه في هذه المدة ، فكان هذا الحكم من سليمان أقرب إلى الصواب وأنفع لصاحب الغنم والحرث ، فلماذا قال تعالى (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما)

ونظير هذه القضية حكم داود وسليمان بين المرأتين اللتين خرجتا ومع كل واحدة ابنها فعدا الذئب على ابن الكبرى ، فادعت الكبرى على الصغرى أن الذئب أكل ابن الصغرى ، وأن الذى سلم من الذئب ابنها ، والمرأة الصغرى أنكرت وقالت : بل الذئب أكل ابن الكبرى فتعاجلا إلى داود فلم ير لكل منهما بينة إلا قولها . رأى أن يحكم به للكبرى اجتهاداً ورحمة بها لكبرها ، وأن الصغرى فى مستقبل عمرها سيرزقها الله ولداً بدله ، ثم رفعت القضية إلى سليمان فقال لهما : ائتوني بالنسكين أشقه بينكما . فرضيت الكبرى . وقالت الصغرى لما دار الأمر بين تافه أو بقاءه بيد غيرها وهو أهون الأمرين عليها : هو ابنها يا نبي الله ، فعلم سليمان بهذا الأمر الطيبي الذى هو من أقوى البينات أنه ليس ابناً للكبرى لكونها رضيت بشقه واتلافه ، وأن دعواها على الأخرى إما حماها عليه الحسد ، وأنه ابن الصغرى حين فزع من شقه إلى التنازل عن دعواها ، فتضى به سليمان للصغرى ، ولا ريب أن استخراج الصواب فى القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال ، من الفهم الذى يخص الله به من يشاء .

فصل فى بعض الفوائد المستنبطة من قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها أن الله يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله لتثبيت قواده وتطمين نفسه ، ويدكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وانايتهم ما يشوق إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذى تنافسوا فى قربه والصبر على أذى تومهم ، ولهذا ذكر تعالى فى أول سورة (ص) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به ، قال بعدها (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيدى أنه أواب) الآيات ومنها أن قوله (ذا الأيدى أنه أواب) مدح عظيم من الله لهذين الوصفين ، قوة القلب والبدن على طاعة الله والانابة باطنياً وظاهراً إلى الله المستلزمة لمحبهه وكمال معرفته ، وأن هذين الوصفين للأنبياء على وجه الكمال ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب اتباعهم ، والثناء من الله عليهما يقتضى الحث

على جميع الأسباب التي تضمن على القوة والالانة ؛ وأن يكون العبد رجاعاً إلى الله في حال السراء والضراء ، وفي جميع الأحوال .

ومنها ما أكرم الله به نبيه داود (ص) من حسن الصوت ورخامته ، وأن الجبال والطيور تسبح الله معه وتجاوبه ، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية

ومنها أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب وفي الخصومات والمشاحنات . كما قال تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)

ومنها كمال اعتناء المولى بأنبيائه وأصفياه عندما يقع منهم بعض الهفوات بفطنة إياهم وابتلائهم بما يزول عنهم المحذور حتى يعودوا أكل من أحوالهم الأولى كما جرى لداود وسليمان

ومنها أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن الله . فإن الله أمر بطاعتهم مطلقاً ، ومقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك ؛ وقد يجرى منهم أحياناً بعض مقتضيات الطبيعة من المخالفات ، ولكن الله تعالى يبادرهم بلطفه ويتداركهم بالتوبة والالانة

ومنها أن داود في أغلب أوقاته ملازماً محرابه لخدمة ربه وله وقت يجلس فيه لحوائج الخلق فقد أتم القيام بحق الله وحق عباده .

ومنها أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الناس ، خصوصاً الحكام والرؤساء ، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ، ومن غير الباب فزع منهم ، واشتد عليه ذلك ؛ ورآه غير لائق بالحال

ومنها أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله مالا ينبغي .

ومنها كمال حلم داود ، فانه ما غضب منها حين جاءه بنير استندان ولا انتهرهما ولا وبخهما

ومنها جواز قول المظلوم لمن ظلمه أنت ظلمتني أو يا ظالم ونحوه أو يا باغي لقوله (بنى بعضنا على بعض)

ومنها أن المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشتمز ، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه ، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح ، فإن داود لم يشتمز من قول الخصمين (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) بل حكم بالحق الصرف

ومنها أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب والمعاملين وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي ، وبغى بعضهم على بعض ، وأنه لا يرد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبر بالايثار والعمل الصالح ، وأن هذا من أقل شيء في الناس

ومنها إكرام الله لداود وسليمان بالزلى عنده وحسن المآب ، فلا يتوهم أحد أن ماجرى منهما منقضى لدرجتهم عند الله ، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين ، أنه إذا غفر لهم وازال عنهم أثر الذنوب ، أزال الآثار المترتبة عليها حتى ما يقع في قلوب الخلق ، وما ذلك على فضل الكريم بعزير ومنها أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية تولاه رسل الله وخواص خلقه ، وأن على القائم بها الحكم بالحق وأن لا يتبع الهوى ، فالحكم بالحق يقتضى العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية ادخالها في الأحكام الشرعية الكلية ، فالجاهل بواحد من هذه الأمور لا يحل له الاقدام على الحكم بين الناس

ومنها أن سليمان يعد من فضائل داود ومن منن الله عليه ، قال تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب) وهذا أعظم تزكية وأكبر فخر لسليمان ومنها كثرة خير الله وفضله على عبيده الأخيار يمن عليهم بالخلق الجميلة والأعمال الصالحة ، ثم يثنى عليهم بها ويرتب عايتها من الثواب أنواعاً متنوعة ، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها ومنها أن سليمان قدم محبة الله على محبة كل شئ ، وأتلف الخليل التي ألهته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب

ومنها أن كل ما أشغل العبد عن طاعة مولاه فهو مشغوم فليفارقه وليقبل على ما هو أنفع له ومنها أنه يؤخذ من أن سليمان لما أتلف الخليل الجياد - التي ألهته عن طاعة الله - سخر الله له الريح والشياطين : أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

ومنها أن تسخير الشياطين وتسخير الريح على الوجه الذى سخرت لسليمان لا تكون لأحد بعد سليمان ، ولهذا لما رأى النبي (ص) أن يأخذ الشيطان الذى تغلت عليه ليلة فبر بطفه في سارية المسجد قال : ذكرت دعوة أخى سليمان فتركته

ومنها أن سليمان كان ملكاً نبياً مباح له أن يفعل ما يريد ، ولكنه لكانه لا يريد إلا الخير والعدل ، وهذا بخلاف النبي العبد ، فانه لا يكون له ارادة مستقلة ، بل ارادته تابعة لمراد الله منه فلا يفعل ولا يترك إلا تبعاً للأمر ، كحال نبينا محمد ﷺ

ومنها أن الله أعطى سليمان ملكاً عظيماً ، فيه أمور لا يمكن أن تدرك بالأسباب ، وإتمامه من تقدير الملك الوهاب ، مثل تسخير الريح تبعاً لأمره ، وتسخير الشياطين ، وكون جنوده من الانس والجن والطير ، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة برسامها للجهات توصل منه الاخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات ؛ وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قص الله علينا نبأه في هذه القصة ، وكذلك الذى عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد اليه طرفه ، وهذه آيات أنبياء ، فلماذا مهما بلغ الخلق في الترقى في علوم الطبيعة

والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أعطيه سليمان
ومنها أنه ينبغي للملوك والرؤساء أن يسألوا عن أحوال الأمراء والرؤساء والرجال المتعيزين
ولا يكتفوا بمجرد السؤال ، بل يختبرونهم ويختبرون معرفتهم للأمور وعقولهم ؛ كما فعل سليمان
مع ملكة سبأ امتحنها ليستدل على كمال عقلها ودرجته ولم يكتف بالسؤال ، وهذا فيه للملوك فوائد
عظيمة ، وهم محتاجون لهذا أشد الحاجة ، وتام الملك أن يدير دفته الرجال الكاملون

﴿ قصة أيوب عليه الصلاة والسلام ﴾

كان أيوب من أنبياء بني اسرائيل ومن الأصفياء الكرام ، وقد ذكره الله في كتابه وأثنى
عليه بالخصال الحميدة عموماً ، وبالصبر على البلاء خصوصاً ، فان الله تعالى ابتلاه بولده وأهله وماله ،
ثم بجسده ، فأصابه من البلاء ما لم يصب أحداً من الخلق ، فصبر لأمر الله ولم يزل منيباً لله .
ولما تطاول به المرض العظيم ، ونسيه الصاحب والحليم نادى ربه (أنى مسنى الضر وأنت
أرحم الراحمين) فقيل له (اركض برحلك) فركض ، فنبتت بركضته عين ماء بارد ، فقيل له :
اشرب منها واغتسل : ففعل ذلك فأذهب الله ما فى باطنه وظاهره من البلاء ، ثم أعاد الله له أهله
وماله وأعطاه من النعم والخيرات شيئاً كثيراً ؛ وصار بهذا الصبر قدوة للصابرين وسلوة للمبتلين
وعبرة للمعتبرين ، وكان فى مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارة الرحيمة فى بعض شئ ، فحلف
أن يجلدوها مائة جلدة فخفف الله عنه وعنهما ، وقيل له : خذ بيدك ضغناً حزمة حشيش أو حلف أو
شماريح أو نحوها فيها مائة عود فا ضرب به ولا تحنث ، أى ينحل بذلك بيمينك . وفى هذا دليل على أن
كفارة اليمين لم تشرع لأحد قبل شريعتنا ؛ وأن اليمين عندكم بمنزلة النذر الذى لا بد من وفائه ،
وفى هذا دليل على أن من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضغفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك ، لأن
القرض التشكيل ليس الاتلاف والاهلاك

﴿ قصة الخضر مع موسى ، ومحلها فى أثناء قصص موسى ﴾

وذلك أن موسى عليه السلام قام ذات يوم فى بنى اسرائيل مقاماً عظيماً ، هلمهم فيه علوماً جمة ،
وأعجب الناس بكمال علمه ، فقال له قائل : يابى الله ، هل يوجد أو هل تعلم فى الأرض أحداً أعلم
منك ؟ فقال لا ، بناءً على ما يعرفه ، وترغيباً لهم فى الاخذ عنه ، فأخبره الله أن له عبداً فى مجمع
البحرين عنده علوم ليست عند موسى وإلهامات خارجة عن الطور المعهود ، فاشتاق موسى إلى
لقيه رغبة فى الازدياد من العلم ، فطلب من الله أن يأذن له فى ذلك وأخبره بموضعه ونزودا حوتاً
وقيل له : إذا قدت الحوت فهو فى ذلك المكان ، فذهب فوجده ، وكان ما قص الله من نبلهما فى

سورة الكهف (وإذ قال موسى لفته لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حنبا - إلى قوله -
ذلك تأويل ما لم نسطع عليه صبرا)

وفي هذه القصة من الفوائد والأحكام والتواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله
ونذكر المهم منه

فمنها ما اشتملت عليه القصة من فضيلة العلم وشرفه ومشروعية الرحلة في طلبه ؛ وأنه أم
الأمور ، فإن موسى رحل في طلبه مسافة طويلة ولقي في ذلك النصب ، وترك الإقامة عند بني
إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم ، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك

ومنها البدأة في العلم بالأمم فالأمم ؛ فإن زيادة علم الإنسان بنفسه أم من ترك ذلك اشتغالا بالتعليم
فقط ، بل يتعلم ليعلم

ومنها جواز أخذ الخادم في السفر والحضر لكفاية المؤن وطلب الراحة ، كما فعل موسى
صلى الله عليه وسلم

ومنها أن المسافر يطلب العلم أو الجهاد أو غيرهما من أسفار الطاعة ، بل وكذلك غيرهما إذا
انقضت المصلحة الأخبار بمطلبه وأين مراده ، فإنه أكمل من كتمه ؛ فإن في إظهاره من فوائد
الاستعداد له عدته ، وإتيان الأمر على بصيرة والإعلان بالترغيب لهذه العبادة الفاضلة لقول موسى
(لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حنبا) ولما غزا ﷺ تبوك أخبر الناس بمقصده ، مع
أنه كان في الغالب إذا أراد غزوة ورى بنيرها تبعا لمصلحة في الحاليتين

ومنها إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان ، وكذلك النقص ، لقول فتى موسى (وما أنسانيه
إلا الشيطان أن أذكره)

ومنها جواز أخبار الإنسان عما يجده مما هو مقتضى الطبيعة البشرية من نصب أو جوع أو عطش
إذا لم يكن على وجه التسلط وكان صدقا لقوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا)

ومنها أنه ينبغي أن يتحلى الإنسان خصالا في كفايته كذا ليم له أمره الذي يريد
ومنها استحباب اطعام الإنسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعا لأن ظاهر قوله (آتنا غداءنا)
أنه للجميع . ومنها أن المونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالأمر الشرعي ، وأن ما وافق رضا
الله يعان عليه مالا يعان على غيره لقوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) والاشارة إلى السفر
للمحاور لمجمع البحرين ، وأما الأول فلم يشك منه مع طولوه

ومنها أن ذلك العبد الذي لقيامه ليس نبيا ، بل هو عبد صالح عالم ملهم ، لأن الله ذكره بالعلم
وآله ودية الخامة والأوصاف الجميلة ، ولم يذكر معها أنه نبي أو رسول ، وأما قوله في آخر القصة
(وما أنسانيه عن أمرى) فإنه لا يدل على أنه نبي ، وإنما يدل على الإلهام والتحديث ، وذلك يكون

تغير الأنبياء ، قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) (وأوحونا إلى أم موسى) الآية .
ومنها أن العلم الذي يعلمه الله للعبد نوعان : علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجده ، وعلم إلهي
لدى يهبه الله لمن يمن عليه من عباده ، لقوله (وعلمناه من لدنا علما) فالخضر أعطى من هذا النوع
الحظ الأوفر . ومنها التأدب مع المعلم والتألف في خطابه لقول موسى (هل أتبعك على أن تعلمن مما
علمت رشداً) فأخرج الكلام بصورة الملائمة والمشاورة ، وأنتك هل تأذن لي أم لا ؟ وإظهار
حاجته إلى المعلم وأنه يتعلم منه ومشتاق إلى ما عنده ، بخلاف حال أهل الكبر والجفاء الذين
لا يظهرون حاجتهم إلى علم المعلم ، فلا أنفع للمتعلم من إظهار الحاجة إلى علم المعلم وشكره على تعليمه
ومنها تواضع الفاضل للتعليم من هو دونه ، فإن موسى بلا ريب أفضل من الخضر
ومنها تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يشتهر فيه من مهر فيه ، وإن كان دونه في العلم درجات ،
فإن موسى من أكابر أولى العزم من الرسل الذين منحهم الله وأعطيهم من العلوم ما لم يعط سواهم ،
ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده ، فلماذا اشتد حرصه على التعلم منه
ومنها أنه يتعين إضافة العلم وغيره من الفضائل إلى فضل الله ورحمته ، والاعتراف بذلك
وشكر الله عليه لقوله (تعلمن مما علمت رشداً)

ومنها أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير ، وكل علم فيه رشد وهداية لطريق الخير
وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة إلى ذلك ، فإنه من العلم الدافع ، وما سوى ذلك فاما أن يكون
ضاراً أو ليس فيه فائدة لقوله (أن تعلمن مما علمت رشداً)

ومنها أن من ليس له صبر على صحبة العالم ، ولا قوة على الثبات على طريقة التعلم ، فإنه ضار
ليس بأهل لتلقي العلم ، فمن لا صبر له لا يدرك العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل
أمر سعى إليه ، فإن الخضر اعتذر عن موسى أنه لا يصبر على علمه الخاص

ومنها أن مما يعين على الصبر على الأشياء إحاطة العبد بها علماً وبمنافعها ونمائها وتناجها ،
فمن لا يدرك هذه الأمور يصعب عليه الصبر لقوله (وكيف يصبر على ما لم تحط به خبراً)
ومنها الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة إلى الحكم على الأشياء حتى يعرف ما يراد منه
وما هو المقصود .

ومنها مشروعية تأليف إجماع الأمور المستقبلية على مشيئة الله لقوله (سيجدني إن شاء الله
صابراً ولا أعصى لك أمراً) وإن العزم على الشيء ليس بمنزلة فعله ، فموسى عزم على الصبر
ولكن لم يفعل .

ومنها أن المعلم إذا رأى من المصلحة أن يجبر المتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض
الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها ، فإن المصلحة تنبع ، كما إذا كان فهمه قاصراً أو نهياً

عن التدقيق الشديد أو الأسئلة التي لا تتعلق بالموضوع . ومنها جواز ركوب البحر إذا لم يكن في ذلك خطر .

ومنها أن الناسي غير مؤاخذ ، لافي حق الله ولا في حق العباد ، إلا إن ترتب على ذلك اتلاف مال ، ففيه ضمان حتى على الناسي لقوله (لا تؤاخذني بما نسيت)

ومنها أنه ينبغي العبد أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم المعنوية وما صححت به أنفسهم ولا ينبغي له أن يكثرهم مالا يطيقون أو يشق عليهم أو يرهقهم ، فإن هذا داع إلى النفور ، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر .

ومنها أن الأمور تجري على ظاهرها ، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في كل شيء ، فإن موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام بحسب أحكامها العامة ، ولم يلتفت إلى الأصل الذي أصلاه هو والخضر أنه لا يسأله ولا يعترض عليه حتى يكون الخضر هو المبتدئ . ومنها فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة ، وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف ، وبراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما ؛ فإن قتل الغلام الصغير شر ، ولكن بقاءه حتى يبلغ ويقتن أبويه عن دينهما أعظم شراً ؛ وبقاء الغلام من دون قتل وإن كان في ظاهر الحال أنه خير ، فالخير ببقاء أبويه على دينهما خير من ذلك ، فلذلك قتله الخضر بعدما ألهمه الله الحقيقة ، فكان إلهامه الباطني بمنزلة البيّنات الظاهرة في حق غيره

ومنها القاعدة الكبيرة الأخرى ، وهي أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة يجوز بلا إذن ، حتى ولو ترتب عليه اتلاف بعض المال ، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فسلم من غضب الملك الظالم ، ونحت هاتين القاعدتين من الفوائد مالا حصر له . ومنها أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر ، لقوله (يعملون في البحر) ومنها أن القتل من أكبر الذنوب .

ومنها أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته وما يتعلق به ، لقوله (وكان أبوهما صالحا) وأن خدمة الصالحين وعمل مصالحهم أفضل من غيرهم لأنه علل أفعاله بالجدار بقوله (وكان أبوهما صالحا)

ومنها استعمال الأدب مع الله حتى في الألفاظ ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله (فأردت أن أعيبها) وأما الخير فأضافه إلى الله لقوله (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) وقال إبراهيم (وإذا مرضت فهو يشفيني) وقالت الجن (وإنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) مع أن الكل بقضاء الله وقدره . ومنها أنه ينبغي للعبد أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته ، بل ينبغي له

بذلك حتى لا يجرد للصبر محلاً ، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكد كسرها ، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة

﴿ قصة ذو القرنين ﴾

وكان ذو القرنين ملكاً صالحاً ، وقد أعطاه الله من القوة أسباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره ، فذكر الله من حسن سيرته ورحمته وقوة ملكه وتوسعه في المشارق والمغارب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله ، ولهذا قال (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) أى من بعض أخباره ، ومن المعلوم أن ما قصه الله في كتابه هو أحسن وأنفع ما يقص على العباد ، فأخبر أنه أعطاه من كل شيء سبباً يحصل به قوة الملك وعلم السياسة وحسن التدبير والسلاح الخاضع للأمم وكثرة الجنود وتسهيل المواصلات وجميع ما يحتاجه ، ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التي أعطىها ، فما كل أحد يعطى الأسباب النافعة ، ولا كل من أعطىها يتبناها ويعمل بها .

أما ذو القرنين فإنه تم له الأمر أن أعطى سبباً فأتبع سبباً ، فغزا بجموشه الحرارة أدنى أفريقيا وأقصاها حتى بلغ البحر المحيط الغربي فوصل إلى محل إذا غربت الشمس (وجدها تغرب في عين حمئة) أى رآها في رؤية العين كأنها تغرب في البحر ، والبحر لونه أسود كالحمئة ، والقصد أنه وصل إلى حيث منتهى الخلف والحافر من بلاد أفريقيا ، ووجد في ذلك المحل وتلك الاقطار قوماً منهم المسلم والكافر ، والبر والفاجر ، بدليل قوله (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) إما أن القائل له نبي من أنبياء الله أو أحد العلماء ، أو ان المعنى أنه بسبب قدرته كان مخيراً قدرأ ، وإلا فمن المعلوم أن الشرع لا يسوى بين الأمرين المتفاوتين في الاحسان والاساءة فقال (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً) وهذا يدل على عدله وأنه ملك صالح وعلى حسن تدبيره (ثم أتبع سبباً) أى ثم عمل بالأسباب التي أوتىها بعدما أخضع أهل المغارب رجع بفتح الارض قطراً قطراً حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطئ البحر المحيط الهادى . وهذا منتهى ما وصل اليه الفاتحون (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) أى لاستر لهم عن الشمس ، لاثياب ينسجونها ويابسونها ، ولا بيوت يبنونها ويأوون اليها ، أى وجد هؤلاء القوم الذين في أقصى المشرق بهذه الصفة والوحدة بمنزلة الوحوش التي تأوى إلى الغياض والغيران والاسراب منتظمين عن الناس ، وكانوا في ذلك الوقت على هذه الحالة التي وصف الله ، والمقصود من هذا أنه واصل إلى ما لم يصل اليه أحد ، ثم كر راجعاً واتبع سبباً ، يمكنه من مناهج البلاد

وتخضع العباد قاصداً نحو الشمال (حتى إذا بلغ بين السدين) أى بلغ محلاً متوسطاً بين السدين الموجودين منذ خلق الله الأرض ، وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصلة من تلك الفجوة ، وهى الريع إلى البحار الشرقية والغربية وهى فى بلاد الترك ، على هذا اتفق المفسرون والمؤرخون وإنما اختلفوا : هل هى سلاسل جبال القفقاس أم دون ذلك فى أذربيجان ، أم سلاسل جبال التاي أم الجبال المتصلة بالسور الصينى فى بلاد منغوليا وهو الظاهر ، وعلى الاتوال كلها ، فوجدت عند تلك الفجوة التى بين سلاسل هذه الجبل توما لا يكادون يفقهون قولاً ، من بعد لغتهم ونقل فهمهم للغات الأهم (فقالوا إذا القرنين إن يأجوج ومأجوج يفسدون فى الأرض) وهم أمم عظيمة من نسل يافث بن نوح من العناصر التركية وغيرهم ، كما هو مذكور مفصل من أحوالهم ومشروع من صفاتهم (فهل نجعل لك خرجاً على أن تحمل بيننا وبينهم سداً ؟ قال ما مكنى فيه ربى) من القوة والأسباب والافتقار خير فأعينونى بقوة ، أى إن هذا بناء عظيم يحتاج فى الإعانة عليه إلى مساعدة قوية فى الأبدان (أجعل بينكم وبينهم ردماً) ولم يقل سداً ، لأن الذى بنى فقط هو تلك الثنية والريع الواقع بين السدين الطبيعيين ، أى بين سلاسل تلك الجبال ، فدبرهم على كيفية آلائه وبنائانه فقال (آتوني زبر الحديد) أى اجمعوا الى جميع قطع الحديد الموجودة من صغار وكبار ولا تدعوا من الموجود شيئاً ، اركوه بين السدين ، ففعلوا ذلك حتى كان الحديد ثلوا عظيمة موازنة للجبال ، ولهذا قال (حتى إذا ساوى بين الصدفين) أى الجباين المكتنفين لذلك الردم قال (انفخوا حتى إذا جعله نارا قل : آتوني أفرغ عليه قطراً) أى أمر بالنحاس فأذيب بالنيران وجعل يسيل بين قطع الحديد فالتحم بعضها ببعض وصارت جبلاً هائلاً متصلاً بالسدين ، فحصل بذلك المقصود من عيث يأجوج ومأجوج ، ولهذا قال (فما استطاعوا أن يظهروه) أى يصعدوا ذلك الردم (وما استطاعوا له نقباً . قال هذا رحمة من ربى) أى ربى الذى وقنى لهذا العمل الجليل والاثر الجليل ، فرحمكم إذ منعكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذى لا قدرة لكم عليه (فاذا جاء وعد ربى جعله دكا .) أى هذا العمل والحيلولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مؤقت إلى أجل ، فاذا جاء ذلك الاجل قدر الله للخلق من أسباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة ما يمكن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكم أيها المجاورون ، بل ومن وطء مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها ، كما قال تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) أى من كل مكان مرتفع ، سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء (ينسلون) أى يسرعون فيها غير مكترئين ولا حاجز يحجزهم ، فافظة من كل حدب يشمل جميع المواضع والأقطار ؛ سهاها وصعبها ، منخفضة ومرتفعة ؛ وإنما نص الله على المرتفعات لأن السهول والاماكن المنخفضة من طلب أولى وأحرى ، وقد ورد فى صفاتهم أحاديث فى الصحيحين تؤيد ما فى هذه الآيات من صفاتهم

وأورد أصحاب السير والتواريخ الأول من صفاتهم وحيثانهم آثاراً لا خطام لها ولا زمام شويشت أفكار أكثر الناس ومنعهم من الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية وتطبيقها على الواقع ، فعليك بلزوم ما دل عليه الكتاب والسنة ودع ما سوى ذلك ، فان فيه الهدى والرشد والنور .

﴿ قصة عيسى وأمه ، وزكريا ويحيى عليهم السلام ﴾

كانت زوجة عمران - وهو من أكابر بني إسرائيل ورؤسائهم وذوى المقامات العالية عندهم - نذرت حين ظهر حملها أن تحرر ما فى بطنها لبيت المقدس ، يكون خادماً لبيت الله معداً لعبادة الله ظناً أن الذى فى بطنها ذكر ، فلما وضعها قالت معتذرة إلى الله شاكية اليه الحال (رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأُنثى) أى ان الذكر الذى له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس (وإني سميتها مريم ، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) فحفظتها الله من عدوها هى وذريتها . وكان هذا أول حفظ وحماية من الله لها ولهذا استجاب الله لها فى هذه الدنيا (فتقبلها ربها بقبول حسن) أى أن الله جبر أمها وصار لها عند ربها من القبول أعظم مما للذكور (وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا) فجمع الله لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية ، حيث قدر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بني إسرائيل فى ذلك الوقت فان أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها لأنها ابنة رئيسهم ، فانزعوا وألقوا أقلامهم ، فأصاب القرعة زكريا راحة به وبمريم ، فكفلها أحسن كفالة ، وأعانها على كفالتها بكرامة عظيمة منه ، فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصديقات ، وعكفت على عبادة ربها ولزمت محرابها ، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا ، قل أنى لك هذا ؟ فانه ليس لها كافل غير زكريا . قالت (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) أى رزقه تعالى بأنى بطرق معهودة وبطرق أخرى ، والله على كل شىء قدير .

حين رأى هذه الحالة ذكره ذلك لطف ربه ورجاه إلى رحمته ، فدعا الله أن يهب له ولداً يرثه علمه ونبوته ويقوم بعده فى بني إسرائيل ، فى تعليمهم وهدايتهم (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله) أى بعيسى عليه السلام (وسيداً) أى عظيماً عند الله وعند الخلق لما جعله الله عليه من الأخلاق الحميدة والعلوم العظيمة ، والأعمال الصالحة (وحسوراً) أى ممنوعاً بمصصة الله وحفظه وقايعه من موقعة المامى ، فوصفه الله بالتوفيق لجميع الخيرات والحماية من السيئات والزلات وهذا غاية كمال العبد ، فتعجب زكريا من ذلك وقال (أنى يكون لى ولد وامرأى عاقر وقد بلغت من الكبر عتياً . قال كذلك قال ربك هو على هين .

وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) وهذا أعجب من حملها وهي عاقر على كبرك ، فمن فرحه ورغبته العظيمة في طمأنينة قلبه قال (رب اجعل لى آية) تدلنى على وجود الولد ، قال (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) (واذكر ربك بالمشى والابكار) وهذه آية كبرى ، يمنع من الكلام الذى هو أسهل ما يقدر عليه الانسان ، وهو سوى فلا يقدر أن يكلم أحداً إلا بالإشارة ومع ذلك لسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه وتحميده ، فحينئذ تمت له البشارة من الله وعرف أنه لا بد أن يكون ، فولدت زوجته يحيى ، وأنشأه الله نشأة عجيبة ، فتعلم وهو صغير ، ومهر فى العلم وهو صغير ، ولهذا قال (وآتيناه الحكم صبياً) حتى قيل إن الله أيضاً نبأه وهو صغير ، وكما أعطاه الله العلم العظيم فقد منّ عليه بأكمل الصفات فقال (وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) ومضمون هذا وصفه بالقيام بحقوق الله وحقوق والديه وحقوق الخلق ، وإن الله سيحسن له العواقب فى أحواله كلها وأما مريم فانها انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . متجدة لعبادة ربها (فانتخدت من دونهم حجاباً) لئلا يشغلها أحد عما هى بصدد ، فأرسل الله لها الروح الأمين جبريل فى صورة بشر سوى من أكل الرجال وأجلهم فظنت أنه يريد بها بسوء ، فقالت (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) فتوسلت بالله فى حفظها وحمايتها ، وذكرته وجوب التقوى على كل مسلم يخشى الله فكان هذا الورع العظيم منها فى هذه الحالة التى يخشى منها الوقوع فى الفتنة ، ورفع الله بذلك مقامها ونعنها بالمعة الكاملة ، وأنها أحصنت فرجها ، فقال لها جبريل (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً . قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا) به وبك وبالناس (وكان امرأ مقضياً) فلا تعجبى مما قدره وقضاه (فحملته فانتبذت) أى ابتعدت به عن الناس (مكاناً قصياً) خشية الاتهام والأذى منهم (فأجاءها) أى ألبأها المحاض أى الطلق (إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) لما تعرفه مما هى متعرضة له من الناس ، وأنهم لا يصدقونها ، ولم تدر ما الله صانع لها (فنادها) الملك (من تحتها) وكانت فى مكان مرتفع ، وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين (أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً) أى نهراً جارياً (وهزى اليك بجذع النخلة) من دون أن تحوجك إلى صعود (تساقط عليك رطباً جنياً) أى طرياً ناضجاً (فسكلى) من الرطب (واشربى) من السرى (وقرى عيناً) بولادة عيسى ، وليذهب روعك وخوفك (فلما ترين من البشر أحداً قلولى إني نذرت للرحمن صوماً) أى سكوتاً ، وكان مبهوداً عندهم أنهم يتعبدون بالصمت فى جميع النهار ، ولهذا فسر به قوله (فلن أكلم اليوم إنسياً) فاطمأن قلبها وزال عنها ما كانت تجد .

ثم لما تعالت من نفاسها وأصلحت شأنها وقويت بعد الولادة (أتت به قومها نحملة) علناً غير هائبة ولا مبالية ، فلما رآه قومها وقد علموا أنه لا زوج لها جزموا أنه من وجه آخر فقالوا (يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه) كما أمرت بذلك . فقالوا منكرين عليها مقالها لهم (كيف نكلم من كان في المهد صبياً) فقال وهو في تلك الحال له أيام يسيرة بعد ولادته (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أبناً كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بالذي ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) فكان هذا الكلام منه في هذه الحال من آيات الله وأدلة رسالته ، وأنه عبد الله لا كما يزعمه النصارى ، وحصل لآمه البراءة العظيمة مما يظن بها من سوء ، لأنها لو أتت بألف شاهد على البراءة وهي على هذه الحال ما صدقها الناس ، ولكن هذا الكلام من عيسى وهو في المهد جلى كل ريب يقع في القلوب ، فاقسم الناس فيه بعد هذا ثلاثة أقسام :

قسم آمنوا به وصدقوه في كلامه هذا وفي الاقياد له بعد النبوة ، وهم المؤمنون حقيقة
وقسم غلوا فيه وهم النصارى ، فقالوا فيه المقالات المعروفة ونزلوه منزلة الرب ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً

وقسم كفروا به وجفوه - وهم اليهود - ورموا أمه بما برأها الله منه ، ولهذا قال تعالى (فاختلف الأحزاب من بدم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم)

ولما أرسله الله إلى بني اسرائيل ، آمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، وجعل يريهم الآيات والمعائب ، فكان يصور الطين فيمنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، ويبرىء الأكمة والأبرص ، ويحيى الموتى باذن الله وينبئهم عن كثير مما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، ومع ذلك فتكالبت عليه أعداءه وأرادوا قتله ، فالتقى الله شبهه على واحد من الحواريين أصحابه أو من غيرهم ، ورفع الله اليه وطهره من قتلهم ، فأخذوا شيعه فقتلوه وصلبوه وباءوا بالاثم العظيم والجرم الجسيم ، وصدقهم النصارى أنهم قتلوه وصلبوه ، ونزعه الله من هذه الحالة فقال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وقد قام عيسى في بني اسرائيل فبشر وأعلن برسالة محمد ﷺ ، فلما جاءهم محمد الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم قالوا (هذا سحر مبين) كما قالوا في عيسى (فقال الذين كفروا منهم إن هذا الا سحر مبين)

وفي هذه القصة من الفوائد أمور :

منها أن النذر ما زال مشروعا في الأمم السابقة ؛ والنبي ﷺ قال فيه كلمة جامعة للصحيح

النافذ منه وللباطل فقال « من نذر أن يطعم الله فليطعمه ؛ ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه »
ومنها أن من نعمة الله على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار ، فإن المربي والكافل
له الأثر الأعظم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه ، ولهذا أمر الله المربين بالتربية الطيبة المشتعلة
على الحث على الأخلاق الجميلة ، والترهيب من مساوىء الأخلاق

ومنها إثبات كرامات الأولياء فإن الله كرم مريم بأمور: يسر لها أن تكون في كفالة زكريا
بعد ما حصل الخصام في شأنها ، وأكرمها بأن كان رزقها يأتيها من الله بلا سبب ؛ وأكرمها بوجود
عيسى وولادتها إياه وبخطاب الملك لها بما يطمئن قلبها ، ثم بكلامه في المهد ، فهذه الأخيرة جمعت
كرامة ولى ومعجزة نبي

ومنها الآيات العظيمة التي أجراها الله على يد عيسى بن مريم : من إحياء الموتى ، وإبراء
الأكف والأبرص ونحوها

ومنها ما أكرم الله به عيسى بأن جعل له حواريين وأنصاراً في حياته وبعد مماته في بث
دعوته والنصر لدينه ، ولذلك كثر تابعوه ، ولكن منهم المستقيم ؛ وهو الذي آمن به حقيقة ،
وآمن بجميع الرسل ، ومنهم المنحرف ، وهم الذين غلوا فيه ، وهم جمهور من يدعى أنه من أتباعه
وهم أبعد الناس عنه

ومنها أن الله أنمى على مريم بالكمال بالصدقية ، وأنها صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت
من القانتين ، وهذا وصف لها بالعلم الراسخ والعبادة الدائمة والخشوع لله ، وأنه اصطفاها وقصلاها
على فساء العالمين .

ومنها أن إخبار النبي ﷺ بهذه القصة وغيرها مفصلة مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات
نبوته لقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) الآية

﴿ قصة يوسف ويعقوب عليهما الصلاة والسلام ﴾

هذه القصة من أعجب القصص ، وذكرها الله جميعاً ، وأفرد لها بسورة مطولة بمفصلة تفصيلاً
واضحاً ، قراءتها تغني عن التفسير ، فإن الله ساق فيها حالة يوسف من ابتداء أمره إلى آخره ، وما
بين ذلك من التقلبات واختلاف الأحوال ، وقال فيها (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين)
فلندكر ما يستنبط من هذه القصة العظيمة من الفوائد ، فنقول مستعينين بالله

ذكر ما فيها من الفوائد :

منها أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها ، لما فيها من أنواع التقلبات من حال إلى
حال ، من محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومنة ، ومن ذل إلى عز ، ومن أمن إلى خوف

وبالعكس ، ومن ملك إلى رق وبالعكس ؛ ومن فرقة وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس ، ومن سرور إلى حزن وبالعكس ، ومن رخاء إلى جسد وبالعكس ، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس ، ومن وصول إلى عواقب حميدة ، فتبارك من قصها وجمعها عبرة لأولى الألباب

ومنها ما فيها من أصول تعبير الرؤيا المناسبة ، وأن علم التعبير علم مهم يعطيه الله من يشاء من عباده ، وأن أغلب ما تبني عليه المناسبات وضرب الأمثال والمشابهة في الصفات .

فوجه مناسبة رؤيا يوسف : أنه رأى الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له ، أن هذه زينة للسماء ، وفيها مذاقها ، فكذلك الأنبياء والعلماء والأصفياء زينة الأرض ، وهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بالأنوار السماوية ، ولأن أباه وأمه أصل ، واخوته فرع عنها ، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرمًا من الفرع ، فلذلك كانت الشمس أمه أو أبوه ، والقمر الآخر منها ، والكواكب اخوته ، ومن المناسب أن الساجد محترم لمن سجد له ، والمسجود له معظم يحترم ، فدل ذلك على أن يوسف يصير معظماً محترماً لأبويه واخوته ، ولا ينم هذا إلا بمقدمات تقتضى الوصول إلى هذا : من علوم وأعمال واجتباء من الله ، فلهذا قال (وهكذا يجتبيك ربك) الآية

ومنها المناسبة في رؤيا الفتيين ، حيث عبر رؤيا من رأى أنه يعصر خمرًا ، أن الذي يعمل هذا العمل يكون في العادة خادماً لغيره ، وأيضاً العصر مقصود لغيره والخادم تابع لغيره ويؤول أيضاً إلى السقى الذي هو خدمته ، فلذلك أوّله بما يؤول إليه ، وأما تعبيره لرؤيا من رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، بأنه يقتل ويصلب مدة حتى تأكل الطير من مخ رأسه الذي هو يحمل .

وعبر رؤيا الملك بالبقرات والسنبلات : بأنها السنين الخصبة والمجدبة ، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أمور الرعية ومصالحها ، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد ، فهذه نسبتة إذ رأى هو الرؤيا ، وكذلك السنون بخصبها وجدها تنتظم أمور المعاش أو تختل ، والبقرة هي آلة حرث الأرض واستخراج منلها ، والمفل هو الزرع ؛ فرأى السبب والمسبب ، فرؤيته السبع السنان من البقر ثم السبع العجاف ، والسبع السنبلات الخضر ، ثم السبع اليابسات . أى لا بد أن تقدم السبع السنين الخصبات ، ثم تتلوها المجدبات ، وتأكل ما حصل فيها من غلال ، ولا تبقى إلا شيئاً يمحصونه عنها وإلا فهي بصدد أكلها كلها .

فإن قيل من أين أخذ قوله « ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » فإن بعض المفسرين قال هذه زيادة من يوسف في التعبير بوحي أوحى إليه فالجواب : ليس الأمر كذلك وإنما أخذها من رؤيا الملك ، فإن السنين المجدبة سبع فقط ،

فدل على أنه سيأتي بعدها عام عظيم الخصب كثير البركات يزيل الجذب العظيم الحاصل من السنين المجبة الذي لا يزيلها عام خصب عادي ، بل لا بد فيه من خصب خلاف العادة ، وهذا واضح وهو من مفهوم العدد .

ومنها ما فيها من الأدلة والبراهين على نبوة نبينا محمد ﷺ حيث قص عليه هذه القصة المفصلة المبسوطة الموافقة للواقع التي أنت بالمقصود كله ، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس احداً كما هو معلوم لقومه ، وهو بنفسه أُمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولهذا قال (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)

ومنها أنه ينبغي للعبد البعد عن أسباب الشر وكتمان ما نخشى مضرته ، لقول يعقوب ليوسف (لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيذاً)

ومنها ذكر الانسان بما يكره على وجه الصدق والنصيحة له أو لغيره لقوله (فيكيدوا لك كيذاً) ومنها أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به ويتصل من أهل بيته وأقاربه وأصحابه فانه لا بد أن يصلهم ويشملهم منها جانب لقوله (وبتم نعمته عليكم وعلى آل يعقوب) أي بما يحصل لك ، ولهذا لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين والسرور وزوال المكروه وحصول المحبوب ما ذكر الله في آخر القصة

ومنها أن النعم الكبيرة الدينية والدنيوية لا بد أن يتقدمها أسباب ووسائل إليها ؛ لأن الله حكيم وله سنن لا تتغير ، قضى بأن المطالب العالية لا تنال إلا بالأسباب النافعة ، خصوصاً العلوم النافعة وما يتفرع عنها من الأخلاق والأعمال ، فلماذا عرف يعقوب أن وصول يوسف إلى تلك الحالة التي يخضع له فيها أبوه وأمه وإخوته ، مقام عظيم ومرتبة عالية ، وأنه لا بد أن ييسر الله ليوسف من الوسائل ما يوصله إليها ، ولهذا قال (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك) الآية

ومنها أن العدل مطلوب في جميع الأمور الصغار والكبار ، في معاملة السلطان لرعيته ، ومعاملة الوالدين للأولاد ، والقيام بحقوق الزوجات وغير ذلك في المحبة والايثار ونحوها ، وأن القيام بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب ، وفي الاخلال بذلك تفسد الاحوال ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر ، لهذا لما قدم يعقوب عليه السلام يوسف في المحبة ، وجعل وجهه له جرى منهم على أيهم وأخيهم من المكروه ما جرى

ومنها الحذر من شؤم الذنوب ، فكم من ذنب واحد استتبع ذنوباً كثيرة وتسلسل الشر المؤسس على الذنب الأول ؛ وانظر إلى جرم إخوة يوسف ، فلم لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه الذي هو من أعظم الجرائم ، احتالوا على ذلك بعدة حيل ، وكذبوا عدة مرات ، وزوروا

على أيهم في القميص والدم الذي فيه ، وفي صفة حالهم حين أتوا عشاء بيكون ، ولا بد أن الكلام في هذه القضية تسلسل وتشعب ، بل ربما أنه اتصل إلى الاجتماع بيوسف ، وكلما بحث في هذا الموضوع فهو بحث كذب وزور مع استمرار أثر المصيبة على يعقوب ، بل وعلى يوسف ، فليحذر العبد من الذنوب ، خصوصاً الذنوب المتسلسلة ، وضد ذلك بعض الطاعات تكون طاعة واحدة ، ولكن يتسلسل نفعها وبركتها حتى تستتبع طاعات من الفاعل وغيره ، وهذا من أعظم آثار بركة الله للعبد في عمله وعمله .

ومنها أن العبرة للعبد في حال كمال النهاية ، لا ينتقص البداية ، فان أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح ، والاعتراف التام ، والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة ، وإذا سمح العبد بحق الله أولى بذلك وهو خير الراحمين الغافرين ، ولهذا في أصح الآوال إن الله جعلهم أنبياء لمحو ما سبق منهم وكأنه ما كان ولقوا (وما أنزل على إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط) وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم ، ومما يؤيد هذا أن في رؤيا يوسف أنهم هم الكواكب التي فيها النور والهداية ، وهي من صفات الانبياء ، فان لم يكونوا أنبياء فأنهم علماء عباد

ومنها ما من الله به على يوسف من العلم والحلم والاخلاق السكاملة والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به ، ونعم ذلك بأن أخبرهم أنه لا يثرب عليهم بعد هذا العفو ، ثم بره العظيم بأبيه وأمه وإحسانه على إخوته ، وإحسانه على عموم الخلق ، كما هو بين في سيرته وقصته .

ومنها أن بعض الشر أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما فان إخوة يوسف لما قالوا (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً) الآية . وقال قائل منهم (لا تقتلوه وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) كان قوله أحسن منهم وأخف ، وبسببه خف عن إخوته الانتم الأكبر ، وهو من جملة الاسباب التي قدر الله ليوسف في وصوله إلى الغاية التي يريد

ومنها أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الاموال ولم يعلم المتعاملون أنه على غير وجه الشرع فلا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال ، فان يوسف باعه إخوته بيعاً محرماً عليهم ، واشترته السيارة بناءً على أنه عبد لإخوة يوسف البائسين ، ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه بها ، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً وممهاً الله سيدياً ، وكان عندهم بمنزلة الرقيق المكرم ، ومعنى الله شراء السيارة وشراؤه في مصر معاملة لما ذكرنا

ومنها الحذر من الخلوة بالنساء الاجنبيات ، وخصوصاً اللاتي يخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضاً

من المحبة التي بخشي ضررها ، فان امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف وحبا
الشديد له الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن العاويل .
ومنها أن الهم الذي هم به يوسف ثم تركه الله ولبرهان الايمان الذي وضعه الله في قلبه مما يرقيه
إلى الله زلنى ، لأن الهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء ، وهو طبيعة طبع عليها الآدمي ،
فاذا حصل الهم بالمعصية ولم يكن عند العبد ما يقاوم ذلك من الايمان والخوف من الله وقع الذنب ،
وإن كان العبد مؤمناً كاملاً الايمان ، فان الهم الطبيعي إذا قابله ذلك الايمان الصحيح القوي منعه
من ترتب أثوه ، ولو كان الداعي قوياً ، ولهذا كان يوسف من أعلى هذا النوع ، قال تعالى (لولا
أن رأى برهان ربه) بدليل قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)
لاستخلاص الله إياه وقوة إيمانه واخلاصه ، خلصه الله من الوقوع في الذنب ، فكان ممن خاف
مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ومن أعلى السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ،
فذكرهم الله منهم رجلا دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله . فهم لما كان لا معارض
له استمرت في مراودته ، وهمه عارض عرض ثم زال في الحال يبرهان ربه .

ومنها أن من دخل الايمان قلبه ثم استنار بمعرفة ربه ونور الايمان به ، وكان مخلصاً لله في كل
أحواله ؛ فان الله يدفع عنه يبرهان إيمانه واخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي
ما هو جزاء آلايمانه واخلاصه ، لأن الله علل صرف هذه الامور عن يوسف بقوله (إنه من عبادنا
المخلصين) على قراءة من قرأها بكسر اللام ؛ ومن قرأها بالفتح ، فان من أخلاصه الله واجتباها فلا بد
أن يكون مخلصاً ، فالمعنيان متلازمان

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا ابتلى بالوقوع في محل فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية
ما يمكنه ليتمكن من التخلص من ذلك الشر ، كما فر يوسف هارباً للباب ، وهي تمسك بثوبه
وهو مدبر عنها .

ومنها أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه في الدعاوى ، وذلك أن الشاهد الذي شهد ؛ أى حكم
على يوسف وعلى المرأة انتبر القرينة فقال (إن كان قيمه قد من قبل) إلى آخر القضية ،
وصار حكمه هذا موافقاً للصواب ، ومن القرائن وجود الصواع في رجل الاخ ؛ وقد اعتبر
هذا وهذا .

ومنها ما عليه يوسف من الجمال الباهر ظاهراً وباطناً ، فان جماله الظاهر أوجب لامرأة العزيز
ما أوجب من الحب المفرط والمراودة المستمرة ؛ ولما لامها النساء دعتهن واعتدت لهن متكئاً
وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وقالت : اخرج علينا ، فلما رأيته أكبرنه وقطن أيديهن وقلن
حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم)

وأما جماله الباطن فهو العفة العظيمة منه ، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع السوء منه ، ولكن الإيمان ونوره والاخلاص وقوته لا يشد عنهما فضيلة ولا تنجمعهما رذيلة ، وقد بينت امرأة العزيز للنساء من يوسف الأمرين ؛ فانها لما أرتهن جماله الظاهر الذى اعترفن أن هذا الجمال لا يوجد فى آدميين قالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وقالت بعد ذلك (الآن حصص الحق أنا وراودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين)

ومنها أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية ، فهكذا إذا ابتلى العبد بأحد أمرين ، إما أن يلجأ إلى فعل المعصية ، وإما أن يعاقب عقوبة دنيوية ، فعليه أن يختار العقوبة الدنيوية التى فيها الثواب من هذا الوجه بعدة أمور : ثواب من جهة اختياره الإيمان على السلامة من العقوبة الدنيوية ، وثواب من جهة أن هذا من باب التخليص للمؤمن والتصفية ؛ وهو يدخل فى الجهاد فى سبيل الله ، وثواب من جهة المصيبة التى نالته والألم الذى أصابه ، فسبحان من ينعم ببلائه ويلطف بأصفيائه ، وهذا أيضاً عنوان الإيمان وعلامة السعادة

ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى ربه ويحتسب بحماه عند وجود أسباب المعصية ويعبراً من حوله وقوته لقول يوسف (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) فالعبد الموفق يستعين به على دفع المعاصى وأسبابها ، كما يستعين به عند فعل الطاعات والخيرات والله كافى المتوكلين .

ومنها أن العلم والعقل الصحيح يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر ، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى ضد ذلك لقوله (أصب إليهن وأكن من الجاهلين) أى الجاهلين بالأمور الدينية ، والجاهلين بالحقائق النافعة والحقائق الضارة

ومنها أنه كما على العبد عبودية لربه فى حال رخائه ، فعليه عبودية فى حال الشدة ، فيوسف عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا من يتصل به من أهل السجن ودعا الفقيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك ، ومن كمال رأيه وحكمته أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حين احتاجا إليه فى تعبير رؤياهما وقالاه (إنا نراك من المحسنين) رأى ذلك فرصة ، فدعاها إلى الله قبل أن يعبر رؤياها ليكون أقرب إلى حصول المطلوب ، وبين لها أن الذى أوصله إلى هذه الحال التى رآها فيها من السكال والعلم وإيمانه وتوحيده وتركه لملة المشركين ، وهذا دعاء لها بالحال ثم دعاها بالمقال ؛ وبرهن لها على حسن التوحيد ووجوبه ، وعلى قبح الشرك ونحرمة

منها . ومنها أنه يبدأ بالآم فالآم ، وأنه إذا سئل المفتى وكان السائل حاجته فى غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلم ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله ، فان هذا علامة على فصيح المعلم وفطنته

وحسن إرشاده وتعليمه ، فان يوسف لما سأله الفتيان عن رؤياهما ، وكانت حاجتهما إلى التوحيد والایمان أعظم من كل شيء قدمها

ومنها أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه بفعله أو الاخبار بحاله ، وأن هذا لا يكون نقصاً ولا شكوى إلى المخلوق ممنوعة ، فان هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستمانة الناس بعضهم ببعض فيها . ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج منهما (اذكرني عند ربك)

ومنها أنه يتعين على المعلم والداعى إلى الله استعمال الاخلاص التام في تعليمه ودعوته ، وأن لا يجعل ذلك وسيلة إلى معاوضة في مال أو جاه أو نفع ، وأن لا يمتنع من التعليم إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم ، فان يوسف قد وصى أحد الفتيتين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسى فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلاً مستغثاً عن تلك الرؤيا ، فلم يمنعه يوسف ولا ونحه ، بل ولا قال له لم لم تذكرني عند ربك وأجابه جواباً تاماً من جميع الوجوه .

ومنها أنه ينبغى للمستأول إذا أجاب السؤال أن يدل السائل على الامر الذي ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه ، فان هذا من كمال نصحه وجزالة رأيه وحسن إرشاده ، فان يوسف لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك ، بل دلهم مع ذلك وأشار عليهم بما يصنعونه في تلك السنين المخصبات من الاكثار من الزراعة وحسن الحفظ والحباية ومنها أنه لا يلام العبد على دفع التهمة عن نفسه بل ذلك مطلوب كما امتنع يوسف من الخروج من السجن حتى تتبين لهم برائته مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن .

ومنها فضيلة العلم ، علم الشرع والاحكام ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم التدبير والتربية ، وعلم السياسة ، فان يوسف عليه السلام إنما حصلت له الرفعة في الدنيا والآخرة بسبب علمه المتنوع ، وفيه أن علم التعبير داخل في الفتوى ، فلا يحل لأحد أن يجزم بالتعبير قبل أن يعرف ذلك ، كما ليس له أن يفتى في الاحكام بغير علم ، لأن الله مماهاا فتوى في هذه السورة

ومنها أنه لا بأس أن يخبر الانسان عما في نفسه من الصفات السكاملة من العلم وغيره إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب ولم يقصد به الرياء لقول يوسف (اجعلني على خزائن الارض انى حفيظ عليم) وكذلك لا تدم الولاية إذا كان المتولى لها يقوم بما يقدر عليه من اقامة الشرع وإيصال الحقوق إلى أهلها ، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلاً وأعظم كفاءة من غيره ، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة أو كان موجوداً من هو أمثل منه أو مثله ، أو لم يرد بها اقامة أمر الله بل أراد الترائس والمأكلة المالية

ومنها أن الله واسع الجود والكرم ، يهود على عبده بخير الدنيا والآخرة ، وأن خير الآخرة
له . بل إن لائق لها : الإيمان بكل ما أوجب الله الإيمان به . والتقوى به . هي اعتدال الأوامر
الشرعية واجتناب النواهي ، وأن خير الآخرة خير من ثواب الدنيا وملكمها ، وأنه ينبغي للعبد
أن يدعو نفسه ويشوقها لثواب الله ولا بدعها فحزن إذا رأت لذات الدنيا ورياساتها وهي عاجزة
عنها ، بل يسلبها بالثواب الآخروي ليخف عليها عدم حصول الدنيا ، لقول يوسف (ولاجر
الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون)

ومنها أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم لا بأس به ،
بل ذلك مطلوب ، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين الخصبات للاستعداد به
للسنين المجربات ، وقد حصل به الخير الكثير .

ومنها حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها ، فنهض
بالزراعة حتى كثرت الفلال جداً ، فصار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها عندما
فقدوا ما عندهم ، لعلمهم بوفورها في مصر ، ومن عدله وتدبيره وخوفه أن يتلاعب بها التجار أنه
لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله ، وظاهر
حالها هذا أنه لا يعطى أهل البلد إلا أقل من ذلك بكثير لحضورهم عنده .

ومنها مشروعية الضيافة ، وأنها من سنن المرسلين واکرام الضيف ، لقول يوسف (ألا ترون
أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين)

ومنها أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم ، فإن يعقوب قال
لأولاده (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) وقال (بل سولت لكم أنفسكم
أمرا) فهم في الاخيرة ، وإن لم يكونوا مفرطين ؛ فقد جرى منهم ما أوجب لايهم أن يقول
ما قال من غير لوم عليه

ومنها أن استعمال الاسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاهه أو الرافعة لها بعد نزولها غير
ممنوع ، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء الله وقدره ، فإن الاسباب أيضاً من القضاء والقدر ؛ لقول
يعقوب (يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) الآية

ومنها جواز استعمال الحيل والمكائيد التي يتوصل بها إلى الحقوق ، وأن العلم بالطرق الخفية
الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد ، وأما الحيل التي يراد بها إسقاط واجب أو فعل محرم
فإنها محرمة غير نافذة .

ومنها أنه ينبغي لمن أراد أن يومم غيره بأمر لا يجب بيبانه له أن يستعمل المعارض القولية
والفعلية المانعة له من الكذب ، كما فعل يوسف حين ألقي الصواع في رحل أخيه ثم استخرجها

منه موهماً أنه سارق ، وليس في ذلك تصريح بسرقة ، وإنما استعمل المعارض ، ومثل هذا قوله (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل من سرق متاعنا ومنها أنه لا يجوز أن يشهد إلا بما علمه وتحققه برؤية أو سماع لقولهم (وما شهدنا إلا بما علمنا) وقوله (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)

ومنها هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام ، إذ قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ويحزنه أشد الحزن ، فتم لهذه الفرقة مدة طويلة ويعقوب لم يمارق الحزن قلبه ، وابتضت عيناه من الحزن فهو كظيم ، ثم ازداد به المرحين اتصل فراق الابن الثاني بالأول ، وهو في ذلك صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله ، وقد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا ريب أنه وفي بما وعد به ، ولا ينافي ذلك قوله (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) فان الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين ، ولا ريب أن الله رفعه بهذه المحنة درجات عالية ومقامات سامية ، لا تقال إلا بمثل هذه الأمور .

ومنها أن الفرج مع اشتداد الكرب ، فانه لما تراكت الشدائد المتنوعة وضاق العبد ذرعاً بحملها ، فرجها فارج الهم كاشف الهم مجيب دعوة المضطرين ، وهذه عوائده الجميلة ، خصوصاً لأولياته وأصفائه ، ليكون لذلك الوقع الأكبر والمحل الأعظم ، وليجمل من المعرفة بالله والمحبة له ما يوازن ويرجح بما جرى على العبد بلا نسبة

ومنها جواز اخبار العبد بما يجحد وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما على غير وجه التسخط لقول يعقوب (يا أسنى على يوسف) وقول إخوة يوسف (مسنا وأهلنا الضر) وأقرم يوسف

ومنها فضيلة التقوى والصبر ، وإن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر ، وإن عاقبة أهلها أحسن العواقب لقوله (قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين)

ومنها أنه ينبغي للعبد إذا أنعم عليه بنعمة بعد ضدها أن يتذكر الحالة السابقة ليعظم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره لله تعالى ، ولهذا قال يوسف (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي)

ومنها ما في هذه القصة من اللطاف المتنوعة المسهلة للبلاء منها رؤيا يوسف السابقة ، فان فيها روحاً ولطفاً بيوسف ويعقوب ، وبشارة بالودول إلى تأويلها ، ولطف الله بيوسف إذ أوحى اليه وهو في الحب لتبليغهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ، وتنقلاته من حال إلى حال ، فان فيها

الطافاً ظاهرة وخفية ؛ ولهذا قل في آخر الامر (إن ربي لطيف لما يشاء) يلطف به في أحواله الداخلية ، ويلطف له في الأمور الخارجية ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر ومنها أنه ينبغي للعبد أن يلج دائماً على ربه في تثبيت إيمانه وأن يحسن له الخاتمة وأن يجعل خير أيامه آخرها ، وخير أعماله خواتمها ، فان الله كريم جواد رحيم .

❦ قصة أصحاب الكهف ❦

وهم فتية وفقهم الله وألهمهم الايمان وعرفوا ربهم وأنكروا ما علمه قومهم من عبادة الأوثان وقاموا بين أظهرهم معلنين فيما بينهم عقيدتهم ، خائفين من سطوة قومهم فقالوا (ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً) أى إن دهونا غيره (شططا) أى زوراً وبهتاناً وظلماً (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) فلما اتفقوا على هذا الأمر ، وعرفوا أنهم لا يمكنهم اظهار ذلك لأنهم سألوا الله أن يسهل أمرهم فقالوا (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهبنا لنا من أمرنا رشداً) فأووا إلى غار يسره الله غاية التيسير ، واسع الفجوة ، بابه نحو الشمال لا تدخله الشمس ، لا فى طلوعها ولا فى غروبها فناموا فى كهفهم بحفظ الله ورعايته ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً ، وقد ضرب الله عليهم نطاقاً من الرعب على قريتهم من مدينة قومهم ، ثم انه فى الغار تولى حفظهم بقوله (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) وذلك لئلا تبلى الارض أجسادهم ، ثم أيقظهم بعد هذه المدة الطويلة (لهنساءلوا بينهم) ولتقفوا فى آخر الامر على الحقيقة (فقال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابشروا أحكم بورقكم هذه إلى المدينة) إلى آخر القصة .

ففيها آيات بينات وفوائد متعددة :

منها أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت هجبية فليست من أعجب آيات الله ، فان الله آيات هجبية وقصصاً فيها عبرة للمعتبرين .

ومنها أن من أوى الى الله أواه الله ولطف به وجعله سبيلاً لهداية الضالين ، فان الله لطف بهم فى هذه النومة الطويلة ابقاءً على ايمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقهلم ، وجعل هذه القومة من آياته التى يستدل بها على كمال قدرة الله وتنوع احسانه ، وليعلم العباد أن وعد الله حق

ومنها الحث على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيها ، لأن الله بعثهم لأجل ذلك ، وبيحسبهم ثم يعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها ومنها الأدب فيمن اشبه عليه العلم أن يرده الى طائه ، وان يقف هنذا يعرف

ومنها صحة الوكالة فى البيع والشراء وصحة الشركة فى ذلك ، لتوهم (فابشروا أحكم بورقكم

هذه إلى المدينة فليأتكم برزق منه) الآية . ومنها جواز أكل الطهيبات والتخير من الأطعمة ما يلائم الانسان ويوافق ، إذا لم نخرج الى حد الاسراف المنهى عنه ، لقوله (فلينظر أيها أركي طعاماً فليأتكم برزق منه)

ومنها الحث والفحز والاستخفاف والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال السكتان الذي يدرأ عن الانسان الشر .

ومنها بيان رغبة هؤلاء الفتية في الدين ، وفرارهم من كل فتنة في دينهم ، وتركهم لأوطانهم وهوائهم في الله

ومنها ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه ، وأن هذه الطريقة طريقة المؤمنين

ومنها أن قوله (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) فيه دليل على أن هؤلاء القوم الذين بعثوا في زمانهم ، أناس أهل تدين ، لأنهم عظموم هذا العظيم حتى عزموا على اتخاذ مسجد على كهفهم ، وهذا وإن كان ممنوعاً - وخصوصاً في شريعتنا ، فالمقصود بيان أن ذلك الخوف العظيم من أهل السكف وقت إيمانهم ودخولهم في النار أبدلهم الله به بعد ذلك أمناً وتعظيماً من الخلق ، وهذه هوائد الله فيمن تحمل المشاق من أجله أن يجعل له العاقبة الحميدة

ومنها أن كثرة البحث وطوله في المسائل التي لا أهمية لها لا ينبغي الانهماك به لقوله (فلا تمار فيهم إلا صراً ظاهراً)

ومنها أن سؤال من لا علم له في القضية المسئول فيها أو لا يوثق به منهى عنه لقوله (ولا تستفت فيهم منهم أحداً)

﴿ قصة خاتم النبيين وإمام المرسلين ومن أنزل عليه القرآن هدى ورحمة للمؤمنين ﴾

اعلم أن سيرة نبيينا محمد ﷺ أعظم هون على معرفة تفسير كتاب الله ، والقرآن إنما كان ينزل تبعاً لمناسبات سيرته وما يتوله للخلق وجواب ما يقال له وما يحصل به تحقيق الحق الذي جاء به وإبطال المذاهب التي جاء لإبطالها ، وهذا من حكمة انزاله مفرداً ، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله (كذلك أنشئت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) وقال (وكلا نهر عايك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق) فلنشر من سيرته ﷺ على الأحوال المناسبة لنزول الآيات المعينات ، أو لجنس النوع من علوم القرآن ليكون هو نافي هذا المقام .

فأول مقاماته في انزال القرآن عليه أنه كان قبل البعثة قد بغضت اليه عبادة الأوثان ،

وبفض اليه كل قول قبيح وفعل قبيح ، وفطر ﷺ فطرة مستعدة منيئة لقول الحق علماً وعملاً والله تعالى هو الذى طهر قلبه وزكاه وكلمه ، فكان من رغبته العظيمة فيما يقرب إلى الله أنه كان يذهب إلى غار حراء الأيام ذوات العدد ويأخذ معه طعاماً يطمم منه المساكين ويتعبد ويتحنث فيه ، فقلبه في غاية التعلق بربه ، ويفعل من العبادات ما وصل اليه علمه في ذلك الوقت الجاهل الخالي من العلم ، ومع ذلك فهو في غاية الاحسان إلى الخلق ، فلما تم عمره أربعين سنة وتمت قوته العقلية وصلح لتلقى أعظم رسالة أرسل الله بها أحداً من خلقه ، تبدى له جبريل ﷺ فرأى منظراً هاله وأزعجه ، إذ لم يتقدم له شيء من ذلك ، وإنما قدم الله له الرؤيا ، التي كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح

فأول ما أنزل الله عليه (اقرأ باسم ربك) فجاء بها جبريل وقال له : اقرأ . فأخبره انه ليس بقارىء - أى لا يعرف أن يقرأ - كما قال تعالى (ووجدك ضالاً فهدى) وتفسيرها الآية الأخرى (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) فغطه جبريل مرتين أو ثلاثاً ليبيته لتلقى القرآن العظيم ، ويتجرد قلبه وسمته وظاهره وباطنه لذلك فنزلت هذه السورة التي فيها نبوته ، وأمره بالقراءة باسم ربه ، وفيها تصديق نعمه على الانسان بتعليمه البيان العلمى والبيان اللفظى والبيان الرمضى ، فجاء بها إلى خديجة ترعد فرائضه من الفرق وأخبرها بما رآه وما جرى عليه ، فقالت خديجة رضى الله عنها : أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، أى ومن كانت هذه صفته ، فلها تستدعى نعماً من الله أكبر منها وأعظم ، وكان هذا من توفيق الله لها ولنبيه ، ومن تهوين القلب الذى أصابه .

وبهذه السورة ابتدأت نبوته ثم فتر عنه الوحى مدة ليشتاق اليه وليكون أعظم لموقعه عنده وكان قد رأى الملك على صورته فآزعج ، فجاء إلى خديجة أيضاً ترعد فرائضه فقل « دثرونى » فأنزل الله عليه (يا أيها المدثر ، قم فأندر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) الآيات فكان في هذا : الأمر له بدعوة الخلق وإنذارهم ، فشمروا ﷺ عن عزمه وصمم على الدعوة إلى ربه مع علمه أنه سيقاوم بهذا الأمر البعيد والقريب ، وسيبقى كل ممانعة من قومه ومن غيرهم وشدة ، ولكن الله أيدى وقوى عزمه وأيده بروح منه وبالدين الذى جاء به ، وجاءته سورة الضحى في فترة الوحى لما قال المكذبون : إن رب محمد قلاء . قال (والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما تلى) إلى آخرها .

وهذا اعتناء عظيم من الله برسوله ، ونفى لكل نقص ؛ وبشارة بأن كل حالة له أحسن مما قبلها وخير منها ، وأن الله سيعطيه من النصر والاتباع والعز العظيم وانتشار الدين ما يرضيه .

فكان أعظم مقامات دعوته: دعوته إلى التوحيد الخالص والنهي عن ضده ، دعى الناس لهذا ، وقرره الله في كتابه وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبين وجوب التوحيد وحسنه ، وتعيينه طريقاً إلى الله وإلى دار كرامته ، وقرر ابطال الشرك والمذاهب الضارة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن ، وهي أغلب السور المكية ، فاستجاب له في هذا الواحد بعد الواحد على شدة عظامته من قومه ، وقاومه قومه وغيرهم وبغوا له العوائل ، وحرصوا على اطفاء دعوته بمجدهم وقولهم وفعلهم ، وهو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين ، ولكنهم يكابرون ويحسدون آيات الله ، كما قال تعالى (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) . ولهذا لما كان استماعهم للقرآن على وجه الكفر والجحود والكذب وتوطئ نفوسهم على معاداته أخبر الله تعالى أنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وأنهم لا يسمعون بسبب ما أسوا من هذا الأصل الخبيث المانع لصاحبه من كل خير وهدى ، وهذا مما يعلم به حكمة البارئ في اضلال الضالين ، وأنهم لما اختاروا لأنفسهم الضلال ورغبوا فيه ، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم وتركهم في طغيانهم يعمهون ، وأنهم لما ردوا نعمة الله عليهم حين جاءتهم ، قلب الله أفئدتهم وأصم أسماعهم وأعمى أبصارهم وأفندتهم ، وهذا الوصف الذي أشرنا اليه قد ذكره الله في كتابه عنهم ، وهو يعينك على فهم آيات كثيرة يخبر الله فيها بضلالهم وانسداد طرق الهداية عليهم ، وعدم قبول محالهم وقلوبهم للهدى ، والذنب ذنبهم وهم السبب في ذلك ، قال تعالى (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) وبضده تعرف الحكمة في هدايته للمؤمنين ، وأنهم لما كانوا منصفين ليس غرضهم إلا الحق ، ولا لهم قصد إلا طلب رضا ربهم ، هداهم الله بالقرآن ، وازدادت به علومهم ومعارفهم وإيمانهم وهدايتهم المتنوعة . قال تعالى (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) . وهذا الوصف الجميل للمؤمنين هو الأساس لهدايتهم وزيادة إيمانهم وانقيادهم وبه يفتح لك الباب في فهم الآيات في أوصاف المؤمنين وسرعة انقيادهم للحق أصوله وفروعه .

ومن مقامات النبي ﷺ مع المكذبين له أنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالنبي هي أحسن ، ويدعوهم أفراداً ومتفرقين ، ويذكرهم بالقرآن ويتلوهم في الصلاة وخارجها ، وكانوا إذا سمعوه صموا آذانهم ، وقد يسبون ويسبون من أنزله ، فأنزل الله على رسوله آيات كثيرة في هذا المعنى بين حالهم مع سماع القرآن وشدة نفورهم كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ، وأن شياطينهم ورؤساءهم في الشر فكروا وقدروا ونظروا فيما يقولون عن القرآن ويصفونه به لينفروا عنه الناس ، حتى قر قرار رئيسهم الوليد بن المغيرة الذي سماه الله وحيداً فقال : إن هذا الاسحر يؤثران هذا إلا قول البشر ، ولكن أبى الله إلا أن يملو هذا الكلام كل كلام ويزهق هذا الحق

كل باطل ، وكانوا من إفسكم يقولون في القرآن الأقوال المتناقضة ، يقولون إنه ححر ، إنه حكهانة ، إنه شعر ، إنه كذب انه أساطير ، فجمعوا القرآن عشرين ، كل هذا أثر البغض الذي أحرق قلوبهم ، حتى قالوا فيه مقالة المجانين ، وكلما قالوا قولاً من هذه الأقوال ، أنزل الله آيات يبطل بها ما قالوا ، ويبين زورهم وافتراءهم وتناقضهم .

وكان من الأدلة والبراهين على رسالة محمد ﷺ وأن القرآن من عند الله مقابلة المكذبين له فان من نظر اليها علم انها سلاح عليهم ، وأكبر دليل على أنهم مقاومون للحق ساعون في ابطاله وأنهم على الباطل الذي ليس له حظ من العقل ، كما ليس له حظ من الدين ، وكانوا أيضاً يقولون في النبي ﷺ الأقوال التي ليس فيها دلالة على ما كانوا يعتقدون ، وليس فيها نقص بالنبي ﷺ يقولون : لو أن محمداً صادق لأنزل الله ملائكة يشهدون له بذلك ، ولاغناء الله من المشي في الأسواق وطلب الرزق كما يطلبه غيره ، ولجعل له كذا وكذا مما توحى اليه عقولهم الفاسدة ، ويندكرها الله في القرآن في مواضع متعددة ، تارة يصورها للعباد فقط ، لأن من تصورها عرف بطلانها وأنها ليست من الشبه القاذحة ، فضلاً عن الحجج المتبرة ، وتارة يصورها ويندكرها ما يبطلها من الأمور الواضحة ، وهذا كثير في القرآن .

ومن مقاماتهم مع النبي ﷺ أنهم يصمون أشد الصم أن يكف عن عيب آلهتهم والظن في دينهم ويحبون أن يتاركهم ويتاركوه ، لعلهم أنه إذا ذكر آلهتهم ووصفها بالصفات التي هي عليه من النقص ، وأنه ليس فيها شيء من الصفات بوجب أن تستحق شيئاً من العبادة ، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك ويعترفون به ، فلا أحب اليهم من التزوير وابقاء الأمور على علاتها من غير بحث عن الحقائق ، لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانث ظهر للخلق بطلان ما هم عليه وهذا الذي منه يفرون ، وهذا المقام أيضاً ذكره الله في آيات متعددة ، مثل قوله (ودوا لو تذهن فيدهنون) ونحوها من الآيات . وأما قوله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) فهذا إذا ترتب على السب المذكور سبهم لله ، فانه يترك لما يترتب عليه من الشر .

ومن مقاماتهم المذعومة مع النبي ﷺ أنهم كانوا يقترحون الآيات بحسب أهوائهم ويقولون إن كنت صادقاً فأتنا بعذاب الله ، أو بما تعدنا ، أو أزل عنا جبال مكة واجعل لنا فيها أنهاراً وعميونا . وحتى يحصل لك كذا وكذا مما ذكره الله عنهم فنجيبهم الله عن هذه الأقوال بأن رسوله ﷺ قد أيدته الله بالآيات والله أعلم بما ينزل من آياته ، وأعلم بما هو أنفع لهم ، وأنه قد حصل المقصود من بيان صدقه وقامت الأدلة والبراهين على ذلك . فقول الجاهل اللاحق لو كان كذا وكذا جهل منه وكبر ومشاهدة محضة ، وتارة يخبرهم أنه لا يمنعه من الايمان بها إلا الابقاء عليهم

وأنها لوجاءت لا يؤمنون ، فعند ذلك يعاجلهم الله بالعقاب . وتارة يبين لهم أن الرسول إنما هو نذير مبين ، ليس من الأمر شيء ، ولا من الآيات شيء . أن هذا من عند الله ، فطلبهم من الرسول محض الظلم والعدوان ، وهذه المعاني في القرآن كثيرة بأساليب متعددة .

وأحياناً يقدحون في الرسول قدحاً يترضون فيه على الله ، وأنه لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، ومحمد ليس كذلك ، وانك يا محمد لست بأولى بفضل الله منا ؛ فلا شيء تفضل علينا بالوحي ، ونحوه من الأقوال الناشئة عن الحسد ، فيجيبهم الله بذكر فضله ، وأن فضله يؤتاه من يشاء ، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته والحل اللائق بها ، ويشرح لهم من صفات رسوله التي يشاهدونها رأي عين ما يملكون هم وغيرهم أنه أعظم رجل في العالم ، وأنه ما وجد ولن يوجد أحد يقاربه في الكمال ، مؤيداً ذلك بالأدلة المحسوسة والبراهين المسلمة ، وقد أبدى الله هذه المعاني وأعادها معهم في مواضع كثيرة .

ومن مقاماته **صلى الله عليه وسلم** مع المؤمنين الرأفة العظيمة والرحمة لهم والمحبة العامة والقوام معهم في كل أمورهم ، وأنه لهم أرحم وأرأف من آبائهم وأمهاتهم ، وأخفى عليهم من كل أحد ، كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم - لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يقلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (فما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك - فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) فلم يزل يدعو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله ، ويقرر ذلك بالبراهين والآيات المقنوعة ، ويحذر من الشرك والشُرور كلها منذ بعث إلى أن استكمل بعد بعثته ، نحو عشر سنين وهو يدعو إلى الله على بصيرة .

ثم أمرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته ، وعرج به إلى فوق السموات السبع ، وفرض الله عليه الصلوات الخمس بأوقاتها وهيئاتها ، وجاءه جبريل على أثرها فعلمه أوقاتها وكيفياتها ، وصلى به يومين ، اليوم الأول صلى الصلوات الخمس في أول وقتها . واليوم الثاني في آخر الوقت ، وقال : الصلاة ما بين هذين الوقتين ؛ فرضت الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين ، ولم يفرض الأذان في ذلك الوقت ولا بقية أركان الإسلام ، وانتشر الإسلام في المدينة وما حولها . ومن جملة الأسباب أن الأوس والخزرج كان اليهود في المدينة جيراناً لهم ، وقد أخبروهم أنهم ينتظرون نبياً قد أظلم زمانه ، وذكروا من أوصافه ما دلهم عليه ؛ فبادر الأوس والخزرج لما اجتمعوا بالنبي (ص) في مكة وتيقنوا أنه رسول الله ، وأما اليهود فاستولى عليهم الشقاء والحسد ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . وكان المسلمون في مكة في أذى شديد من

قريش فأذن لهم النبي ﷺ في الهجرة أولاً إلى الحبشة ، ثم لما أسلم كثير من أهل المدينة صارت الهجرة إلى المدينة .

وحين خاف أهل مكة من هذه الحال اجتمع ملائمتهم ورؤسائهم في دار الندوة يريدون القضاء التام على النبي ﷺ ، فاتفق رأيهم أن ينتخبوا من قبائل قريش من كل قبيلة رجلاً شجاعاً فيجتمعون ويضربونه بسيوفهم ضربة واحدة . قالوا لأجل أن يتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن مقاومة سائر قريش فيرضون بالدية ، فهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، فجاء الوحي إلى النبي (ص) وعزم على الهجرة ، وأخبر أبا بكر بذلك وطلب منه الصحبة فأجابه إلى ذلك وخرج في تلك الليلة التي اجتمعوا على الإيقاع به ، وأمر علياً أن ينام على فراشه وخرج هو وأبو بكر إلى الغار ، فلم يزالوا يرصدونه حتى برق الفجر ، فخرج إليهم على فقالوا : أين صاحبك ؟ قال لا أدري .

ثم ذهبوا يطلبونه في كل جهة وجعلوا الجماعات الكثيرة لمن يأتي به ، وكان الجبل الذي فيه الغار قد امتلأ من الخلق يطلبون رسول الله (ص) فقال أبو بكر : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ وأنزل الله تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثلثين اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم) فهاجر إلى المدينة واستقر بها وأذن له في القتال بعدما كان قبل الهجرة ممنوعاً لحكمة مشاهدة ، فقال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) وجعل يرسل السرايا ، ولما كانت السنة الثانية فرض الله على العباد الزكاة والصيام ، فأيات الصيام والزكاة إنما نزلت في هذا العام وقت فرضها ، وأما قوله تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) فإن المراد زكاة القلب وطهارته بالتوحيد وترك الشرك .

وفي السنة الثانية أيضاً كانت وقعة بدر . وسيبها أن عهداً لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام ، خرج النبي ﷺ بمن خف من أصحابه لطلبها ، فخرجت قريش لحمايتها وتوافوا في بدر على غير ميعاد ، فالتبرنحت والنفير التقوا مع الرسول وأصحابه ، وكانوا ألفاً كاملاً العدد والخيول ، والمسلمون ثلثمائة وبضعة عشر على سبعين بغيراً يعتقبونها ، فهزم الله المشركين هزيمة عظيمة ، قتلت سرواتهم وصناديدهم ، وأسر من أسر منهم ، وأصاب المشركين مصيبة ما أصيبوا بمثلاً ، وهذه الغزوة أنزل الله فيها وفي تفاصيلها سورة الأنفال . وبعدما رجع إلى المدينة منها مظفراً منصوراً ذل من بقي ممن لم يسلم من الأوس والخزرج ، ودخل بعضهم في الإسلام نفاقاً ، ولذلك جميع الآيات التي نزلت في المنافقين إنما كانت بعد غزوة بدر .

ثم في السنة الثالثة كانت غزوة أحد . غزا المشركون وجيشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة ، وخرج إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه وعبأهم ورتبهم والتفوا في أحد عند الجبل المعروف شمالي المدينة ، وكانت الدائرة في أول الأمر على المشركين ، ثم لما ترك الرماة من كرم الذي رتبهم فيه رسول الله ﷺ وقال لهم لا تبرحوا عنه ظهرنا أو غلبنا ، وجاءت الخيل مع تلك الثفرة وكان ما كان ، حصل على المسلمين في أحد مقتلة أكرمهم الله بالشهادة في سبيله ، وذكر الله تفصيل هذه الغزاة في سورة آل عمران ، وبسط متعلقاتها ، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يعين على فهم الآيات الكثيرة التي نزلت فيها كبقية الغزوات

ثم في السنة الرابعة تواعد المسلمون والمشركون فيها . في بدر . فجاء المسلمون لذلك الموعد وتخلف المشركون معتذرين أن السنة مجدية ، فكاتبها الله غزوة للمسلمين ، واقتلبوا بنعمة من الله وفضل لم يسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم

ثم في سنة خمس كانت غزوة الخندق . اتفق أهل الحجاز وأهل نجد وظاهرهم بنو قريظة من اليهود على غزو النبي ﷺ وجموا ما يقدرون عليه من الجنود ، فاجتمع نحو عشرة آلاف مقاتل وقصدوا المدينة ، ولما سمع بهم النبي (ص) خندق على المدينة ، وخرج المسلمون نحو الخندق ، وجاء المشركون كما وصفهم الله بقوله (إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ومكثوا محاصرين المدينة عدة أيام ، وحال الخندق بينهم وبين اصطدام الجيوش ، وحصل مناوشات يسيرة بين أفراد من الخيل . وسبب الله عدة أسباب لانخذال المشركين ، ثم انشعروا إلى ديارهم ، فلما رجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا جازمين على حصوله تفرغ النبي (ص) لبني قريظة الذين ظاهروا المشركين بقولهم وتشجيعهم على قصد المدينة ومظاهرتهم الفعلية ونقضهم ما كان بينهم وبين النبي (ص) فحاصرهم فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، وفي هذه الغزوة أنزل الله صدر سورة الأحزاب من قوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تزوها إلى قوله - وأورثكم أرضهم وديارهم وأرضا لم تطأوها ، وكان الله على كل شيء قديراً)

ثم في سنة ست من الهجرة اعتمر (ص) وأصحابه حرة الحديبية ، وكان البيت لا يصد عنه أحد ، فعزم المشركون على صد النبي (ص) عنه ، ولما بلغ الحديبية ورأى المشركين قد أخذتهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال دخل معهم في صلح لحقن الدماء في بيت الله الحرام ، ولما في ذلك من المصالح ، وصار الصلح هلى أن يرجع النبي (ص) عامه هذا ولا يدخل البيت ، ويكون القضاء من العام القابل ، وتضع الحرب أوزارها بينهم عشر سنين ، ففكره جمهور المسلمين هذا الصلح حين توهموا أن فيه فضاضة على المسلمين ولم يطلعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة ،

فرجع (ص) عامه ذلك وقضى هذه العمرة في عام سبع من الهجرة ، فأُنزل الله في هذه القضية سورة الفتح بأكملها (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) فكان هذا الفتح لما فيه من الصلح الذي تمكن فيه المسلمون من الدعوة إلى الاسلام ودخول الناس في دين الله حين شاهدوا ما فيه من الخير والصلاح والنور . وقد تقدم أن قصة بنى قريظة دخلت في ضمن قصة الخندق ، أما قبيلة بنى النضير من اليهود فأنها قبل ذلك ، حين هموا بالفتك بالنبي (ص) وكانوا على جانب المدينة غزاهم (ص) واحتسوا بحصونهم ووعدهم المناقون حلفاءهم بنصرتهم ، فألقى الله الرعب في قلوبهم ، وأنزلهم رسول الله (ص) - إلى أن يحلوا عن ديارهم ولهم ما حلت أبا لهم ، ويدعوا الأرض والعقار وما لم يحملهم إلا بنى للمسلمين ، فأُنزل الله في هذه القضية أول سورة الحشر (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) إلى آخر القصة .

وفي سنة ثمان من الهجرة ، وقد تقضى قريش العهد الذي بينهم وبين النبي (ص) غزاه مكة في جند كثيف من المسلمين يقارب عشرة آلاف ، فدخاها فأنجأها ، ثم نهبها بغزو حين على هو الزين وثقيف ، فتم بذلك نصر الله لرسوله وللمسلمين ، وأُنزل الله في ذلك أول سورة التوبة

وفي سنة تسع من الهجرة غزا تبوك وأوعب المسلمون معه ، ولم يتخلف إلا أهل الأعذار وأناس من المنافقين ، وثلاثة من صلحاء المؤمنين : كعب بن مالك وصاحبه . وكان الوقت شديداً والحر شديداً والعدو كثيراً والعسرة مشقة ، فوصل إلى تبوك ومكث عشرين يوماً ولم يحصل قتال فرجع إلى المدينة ، فأُنزل الله في هذه الغزوة آيات كثيرة من سورة التوبة ، يذكر تعالى تفاصيلها وشدها ، ويثنى على المؤمنين ، ويذم المنافقين وتخلفهم ، ويذكر توبته على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، ويدخل معهم الثلاثة الذين خلفوا بعد توبتهم وانابتهم . وفي مطاوى هذه الغزوات يذكر الله آيات الجهاد وفرضه وفضله وثواب أهله ، وما لنا كائناً عنه من الذل العاجل والعقاب الآجل ، كما أنه في أثناء هذه المدة ينزل الله الأحكام الشرعية شيئاً فشيئاً بحسب ما تقتضيه حكمته .

وفي سنة تسع من الهجرة أو سنة عشر فرض الله الحج على المسلمين ، وكان أبو بكر حج بالناس سنة تسع ونبذ إلى المشركين عهودهم ، وأنتم عبود الذين لم يتقضوا ، ثم حج النبي (ص) بالمسلمين سنة عشر واستوعب المسلمين معه ، وأعلمهم بمناسك الحج والعمرة بقوله وفعله ، وأُنزل الله الآيات التي في الحج وأحكامه ، وأُنزل الله يوم عرفة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بينه لهم ، فان القرآن تبيان لكل شيء ، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام ، وعلوم الأخلاق والآداب ، وعلوم الكون ، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم إلى أن تقوم الساعة ، ففي القرآن بيانه والإرشاد إليه

وهو الذى اليه المرجع فى جميع الحقائق الشرعية والعقلية ، ومحال وممتنع أن يأتى علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئاً مما جاء به القرآن ؛ فانه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، إن هذا القرآن يهتدى للتي هي أقوم (والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل) فهذه الآية جمعت بين نوعى العلوم ، فان العلوم وسائل ومقاصد ، وهو الحق الذى يقوله الله فى كتابه وعلى لسان رسوله ، ونوع وسائل ، وهو الهداية إلى السبيل إلى كل علم وعمل ، كما أن قوله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) جمعت الكمال فى ألفاظه ومعانيه ؛ فألفاظه أوضح الألفاظ وأبلغها وأحسنها تفسيراً لكل ما تفسره من الحقائق ، بوضوحها وأحكامها وقوائمها ، ومعانيه كلها حق ، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، صدقاً فى أخبارها ؛ وعدلاً فى أحكامها وأوامرها ونواهيها (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) فأحكامه على الإطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد ، فهذا فى شرعه ودينه ونظيره فى خلقه ، الذى أحسن كل شئ خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين .

وقد جمع الله فى كتابه بين المتقابلات العامة ، وذلك لكمال هذا الكتاب وأحكامه كالأمثلة السابقة ، وكما فى قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) فان البر اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد والأخلاق والأعمال ، والتقوى اسم جامع لما يجب اتقاؤه من جميع المآثم والمضار ، ولهذا قال (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) فالإثم المعاصى المتعلقة بحقوق الله ، والعدوان البغى على الخلق فى الدماء والأموال والأعراض والحقوق وكذلك قوله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فجمع بين زاد سفر الدنيا ، وزاد سفر الآخرة بالتقوى .

وكذلك قوله تعالى (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وديناً) فهذا اللباس الحسى الضرورى والكمالى ، ثم قال : ولباس التقوى ذلك خير ، فهذا اللباس المعنوى ، وإن شئت قلت عن الأول إنه لباس البدن ، وعن لباس التقوى أنها لباس القلب والروح وكذلك قوله تعالى (ولقاهم نضرة وسروراً) جمع لهم بين نعم الظاهر بالنضرة والحسن والبهاء ونعيم الباطن بكمال الفرح والسرور .

وكذلك قوله فى صفة نساء الجنة (فيهن خيرات حسان) فوصفهن بجمال الباطن بحسن الخلق الكامل ، وجمال الظاهر بأنهن حسان الوجوه وجميع الظاهر . ولما ذكر السبر الحسى ذكر السبر المعنوى ، فقال (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائز)

وكذلك قوله (فانفروا ثبات) أى أفراداً بدليل قوله (أو انفروا جميعاً)
وكذلك قوله (لا يصلها إلا الأشتى الذى كذب وتولى) كذب الخبير وتولى عن الطاعة
« التكذيب » انحراف الباطن « والتولى » انحراف الظاهر ، ونظيره قوله (إنا قد أوحى اليما
أن العذاب على من كذب وتولى)

وضد ذلك ما رتب الله على الإيمان والعمل الصالح من خير الدنيا والآخرة ؛ فان الإيمان ضد
التكذيب ، والتولى ضده الاستقامة والعمل الصالح

وكذلك قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) فاعبده وتوكل عليه فجمع جميع ما يراد من العبد ،
فالعبادة حق الله على العبد ، والاعانة من ربه اسعافه بما استعان عليه من عبودية ربه وغيرها من
منافعه ؛ فالعبد فى عبادة الله واستعانة به .

وكذلك قوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حية طيبة
ولنجزيهم أجراً أحسن مما كانوا يعملون) فجمع للمؤمن العامل للصالحات بين طيب الحياة فى
الدنيا والآخرة ، ونظيره (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر - ربنا
آتينا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة)

وكذلك قوله (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فى مواضع ، نفى جميع المكروه الماضى بنفى
الحزن والمستقبل بنفى الخوف .

وكذلك قوله تعالى (فروح وريحان وجنة نعيم) فالروح اسم جامع لنعيم القلب ، والريحان
اسم جامع لنعيم الأبدان ؛ وجنة نعيم تجمع الأمرين

وكذلك قوله (ومن أعرض عن ذكرى) أى القرآن الذى أنزل (فان له معيشة ضنكاً ،
ونحشره يوم القيامة أعمى) جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ وعذاب دار القرار .

وكذلك قوله (إن الله لا يهدي من هو متكبر جبار) أى متكبر على الحق جبار على الخلق .
ومثله (معتد أثيم) أى معتد فى البغى على عباد الله (أثيم) أى متجرب ، على محارم الله

وكذلك قوله فى مواضع (من ولى ولا نصير) فالولى الذى يجلب لمولاه المنافع (والنصير)
الذى يدفع عنه المضار

﴿ فوائد منشورة متنوعة غير مرتبة ﴾

الأمّة : جاء فى القرآن لعدة معانى ، جاء بمعنى الامام الجامع لخصال الخبير ، مثل قوله (إن
ابراهيم كان أمة) وبمعنى الطائفة (وان من أمة إلا خلا فيها نذير) وهذا المعنى كثير ، وبمعنى الملة
والدين (وأن هذه أمتكم أمة واحدة) وبمعنى المدة الطويلة (وادّكر بعد أمة)

السلطان : أكثر استعمالاً في القرآن بمعنى الحجة ، مثل قوله (إن عندكم من سلطان - فاءتوا بسلطان مدين) ويأتى بمعنى الملك ، مثل قوله (هلك عنى سلطانيه) ويأتى بمعنى التسلط والسيطرة مثل قوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)

اللسان : ورد في القرآن لعدة معاني ، ورد بمعنى الجراحة (لا تحرك به لسانك .. ويقولون بألسنتهم) وهو كثير ، وبمعنى اللغة (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه - بلسان عربي مبين) وبمعنى الثناء الحسن (واجعل لى لسان صدق في الآخرين) - « استوى » وردت في القرآن على ثلاثة أوجه ، تارة تُعدى بلى فتدل على العلو والارتفاع ؛ مثل « ثم استوى على العرش . لتستوا على ظهوره » وتعدى بالى فتدل على القصد مثل (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) وتأتى بلا تعدية بحرف فتدل على الكمال ، ومنه قوله (ولما بلغ أشده واستوى) أى كمل فى عقله وأحواله كلها التأويل : أكثر وروده في القرآن بمعنى عاقبة الشيء وما يؤول اليه وقت وقوعه ، مثل قوله (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل) أى وقوع الخبر به من العذاب (هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا ما آلت اليه وهذا وقوعها ، وقد يأتى بمعنى التفسير وهو قليل ، ومنه على أحد التفسيرين (وما يعلم تأويله إلا الله) أى تفسيره ، وعلى القول الآخر يكون من المعنى الأول ، أى وما يعلم حقيقة الخبر عنه إلا الله وحده ، فعلى هذا المعنى يتبين الوقوف على الله وعلى المعنى الأول الذى بمعنى التفسير يعطف عليه (أولو العلم) أى ما يعلم تفسير المتشابه الذى يتشابه فهمه على أذهان أكثر الناس إلا الله وإلا أهل العلم فانهم يعلمون تأويله بهذا المعنى الغافل : ورد في القرآن بمعنى الجاهل ، مثل قوله (لتنذر قوماً ما أنذرا أباًؤهم فهم غافلون) وبمعنى النسيان لذكر الله ونسيان طاعته ، كقوله (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالندو والآصال ولا تسكن من الغافلين - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا)
فائدة : اخبار الله أنه مع عباده يرد فى القرآن على أحد معنيين .

أحدهما : المعية العامة ، كقوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) أى هو معهم بهمة واحاطته .

الثانى : المعية الخاصة ، وهى أكثر وروداً فى القرآن ، وعلامتها أن يقرنها الله بالتصاف بالوصاف التى يحبها والأعمال التى يرخصها ، مثل قوله (إن الله مع المتقين) مع المحسنين مع الصابرين (لا تحزن إن الله معنا - لا تخافا إني معكما أسمع وأرى) وهذه المعية تقتضى العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذى تدب عليه المعية

ونظير هذا التفسير وصف العباد بأنهم عبيد لله يرد فى القرآن على نوعين : نوع عام ، مثل

قوله (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) أى معبداً مملوكاً لله . والنوع الثانى العبودية الخاصة ، وهى تقتضى أن العبد بمعنى العابد المتعبد لربه القائم بمعبوديته ، وذلك مثل قوله (وعباد الرحمن - تبارك الذى نزل الفرقان على عبده - أليس الله بكاف عبده) فبحسب قيام العبد بعبودية ربه تحصل له كفاية الله

ونظير هذا القنوت يرد فى القرآن على قسمين : قنوت عام ، مثل قوله (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) أى الكل عبيد خاضعون لربوبيته وتدبيره . النوع الثانى : وهو الأكثر فى القرآن القنوت الخاص ، وهو دوام الطاعة لله على وجه الخشوع ، مثل قوله (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً - وقوموا لله قانتين - يا مريم اقنتى لربك واسجدى - والقانتين والقانتات) ونحوها .

فائدة : طغيان الرئاسة وطغيان المال يحملان صاحبهما على الكبر والبطر والبغى على الحق وعلى الخلق ، برهان ذلك قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك) وقوله (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) فعمل هذا التجرد والطغيان بحصول الملك ورؤيته لنفسه الاستغناء ، أما الموفقون الأصفياء فانهم فى هذه الأحوال يخضعون لله ويعترفون له بالنعمة ويزداد تواضعهم ؛ ولهذا لما رأى سليمان عليه السلام من ملكه ملكاً كبيراً ، ورأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده لم يطع ويقل هذا من حولى وقوى ونحوه ، بل قال : هذا من فضل ربي ليبلونى أشكر أم أكفر . وقال قبل ذلك : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

فائدة : من الحكمة استعمال اللين فى معاشرة المؤمنين ، وفى مقام الدعوة للكافرين ، كما قال تعالى : فما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . وقال : فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى . فأمر باللين فى هذه المواضع ، وذكر ما يترتب عليه من لمصالح ؛ كما أن من الحكمة استعمال الغلظة فى موضعها . قال تعالى : يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم . لأن المقام هنا مقام لا تفيد فيه الدعوة ، بل قد تعين فيه القتال فالغلظة فيه من تمام القتال وقد جمع الله بين الأمرين فى قوله فى وصف خواص الأمة (أشداء على الكفار رحماء بينهم) والفرق بين قوله : إنك لا تهدى من أحببت . وبين قوله : وإنك لا تهدى إلى صراط مستقيم . أن هداية الارشاد والتعليم والبيان هى التى أمتها الرسول ، بل ولكل من له تعليم وارشاد للخلق كما قال : وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا . وقال : ولكل قوم هاد . وأما هداية الترفيق ووضع الإيمان فى القلوب ، فانها مختصة بالله ، فكما لا يخلق ولا يرزق ولا يحى ويميت إلا الله ، فلا يهتدى إلا الله .

والفرق بين التبصرة والتذكرة في مثل قوله (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) أن التبصرة هي العلم بالشيء والتبصر فيه ، والتذكرة هي العمل بالعلم اعتقاداً وعملاً ، وتوضح هذا أن العلم التام النافع يقتدر إلى ثلاثة أمور : التفكير أولاً في آيات الله المنلوّة والمشهودة ، فإذا تفكر أدرك ما تفكر فيه بحسب فهمه وذكائه فعرف ما تفكر فيه وفهمه ، وهذا هو التبصر ، فإذا علمه عمل به ، فإن كان اعتقاداً وإيماناً صدقه بقلبه وأقرّ به واعترف . وإن اقتضى عملاً قليلاً أو قولياً أو بدنياً عمل به . وهذا هو التذكر وهو التذكرة ، وحاصل ذلك هو معرفة الحق واتباعه ، ومعرفة الباطل واجتنابه .

والفرق بين المواضع التي ورد في القرآن أن الناس لا يتساءلون ولا يتكلمون ، والمواضع التي ذكر فيها احتجاجهم وتكلمهم وخطاب بعضهم لبعض من وجهين أوجهها تقييد هذه المواضع بقوله (لا يتكلمون ، إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) فاثبات الكلام المتعمد من الخلق يوم القيامة تبع لأذن الله لهم في ذلك ، ونفى التساؤل والكلام في الحالة التي لم يؤذن لهم . الوجه الثاني : ما قاله كثير من المفسرين إن القيامة لها أحوال ومقامات ، ففي بعض الأحوال والمقامات يتكلمون وفي بعضها لا يتكلمون ، وهذا الوجه لا ينافي الأول ، فيقال هذه الأحوال والمقامات تبع لأذن الله لهم أو عدمه

والفرق بين إثبات الله في القرآن الانساب بين الناس في مواضع كثيرة ، ونفيها في مواضع إن المواضع المنفية المراد بها أن الانساب لا تنفع ، كما أن جميع الأسباب لا تنفع يوم القيامة إلا سبب واحد ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، كما ذكره في كتابه في مواضع ، وأما المواضع المثبتة فهو المطابق للحقيقة ، ويذكر في كل مقام بحسبه

ففي مقامات الفضل والثواب يذكر الله فضله على الجميع بالحق الناقص من المؤمنين بالكامل من غير نقص لدرجة السكامل ، مثل قوله (والذين آمنوا واتبعتم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء) أي ما نقصناهم ؛ ومثل (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) ونحوها

وفي مقامات العدل والعقوبة ، يذكر الانساب وأنها لا تنفع ؛ وأن الأمر أعظم من أن يلتفت الانسان إلى أقرب الناس إليه ، مثل قوله ايود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه) ومثل (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)

ونظير هذا الإخبار عن المجرمين أنهم يسئلون عن أعمالهم ، وذلك على وجه اظهار العدل والتوبيخ والتقريع لهم والفضيحة ، وفي بعض المواضع مثل (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انسي

ولا جان) أى لا يحتاج فى علم ذلك وجزائه عليه إلى سؤاله سؤال استعمال ، لأنها مسطرة عليهم قد حفظت بالشهود من الملائكة والجوارح والأرض وغيرها .

فائدة : النفى المحض لا يكون كمالا ، ولهذا فى مقامات المدح كل نفى فى القرآن فانه يفيد فائدتين نفى ذلك النقص المصرح به وإثبات ضده وتقيضه ، فيدخل فى هذا أشياء كثيرة أعظمها أنه أنفى على نفسه بنفى أمور كثيرة تنافى كماله ، نفى الشريك فى مواضع متعددة فيقتضى توحيده بالكمال المطلق ، وأنه لا شريك له فى ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته ، وصبح نفسه فى مواضع ، وأخبر فى مواضع عن تسبيح المخلوقات ، والتسبيح تنزيه الله عن كل نقص وعن أن يماثله أحد ، وذلك يدل على كماله . ونفى عن نفسه صاحبة الولد ومكافأة أحد ومماثلته ، وذلك يدل على كماله المطلق وتفرد بالوحدانية والغنى المطلق والملك المطلق . ونفى عن نفسه السنة والنوم والموت ، لكمال حياته وقيوميته ، ونفى كذلك الظلم فى مواضع كثيرة وذلك يدل على كمال عدله وسعة فضله . ونفى أن يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء أو يعجزه شئ ، وذلك لاحاطة علمه وكمال قدرته ونفى العبث فى مخلوقاته وفى شرعه ، وذلك لكمال حكمته ، وهذه فائدة عظيمة فاحفظها فى خزانة قلبك ؛ فانها خير الكنوز وأنفعها .

وكذلك نفى عن كتابه القرآن الربوب والعوج والشك ونحوها ؛ وذلك يدل على أنه الحق فى أخباره وأحكامه ، فأخباره أصدق الأخبار وأحكامها وأنفعها للعباد ، وأحكامه كلها محكمة فى كمال العدل والحسن والاستقامة على الصراط المستقيم

وقال عن نبيه ﷺ (ما ضل صاحبكم وما غوى) فنفى عنه الضلال من جميع الوجوه ، وهو عدم العلم أو قلته أو نقصه أو عدم جودته (والغنى) وهو سوء القصد ، فيدل ذلك أنه أعلم الخلق على الإطلاق ، وأهداهم وأعظمهم علما وقيمتا وإيمانا ، وأنه أنصح الخلق للحق ، وأعظمهم اخلاصا لله وطلباً لما عنده ، وأبعدهم عن الأغراض الرديئة ، وكذلك نفى عنه كل نقص قاله أعداؤه فيه وأنه فى الذروة العليا من الكمال المضاد لذلك النقص

وكذلك نفى الله عن أهل الجنة الحزن والكدر والنصب واللغوب والموت وغيرها من الآفات ، فيدل ذلك على كمال سرورهم وفرحهم واتصال نعيمهم وكماله ، وكال حمايتهم وقوة شبابهم وكال صحتهم وتنام نعيمهم الروحى والقلبى والبدنى من كل وجه ؛ وأنه لا أعلى منه حتى يطلب عنه حولا

وعكس هذا ما نفى القرآن عنه صفات الكمال ، فانه يثبت له ضد ذلك من النقص ، كما نفى عن آلهة المشركين جميع الكمالات القولية والفعلية والذاتية ، وذلك يدل على نقصها من كل وجه وأنها لا تستحق من العبادة مثقال ذرة

فائدة : قوله تعالى (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) أى القوة والشجاعة في هذه الآية ، على أن الملك إذا اجتمعت فيه هاتان الخصلتان : العلم بالولاية والسياسة وحسن التدبير والشجاعة والقوة ، فهو الذى يصلح للولاية والملك ، وإن لم يكن من بيت الملك ولا ذا مال ، فإن العبرة بجميع الولايات امكان اقامتها والنهوض بها على أكمل الحالات ، وولاية الملك لانتم إلا بالعلم والشجاعة القلبية والبدنية .

فائدة : قوله تعالى (واءتوا البيوت من أبوابها) يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغى أن يؤتى من بابه ، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها اليه ، وذلك يقتضى معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة ليسلك الأحسن منها والأقرب والأسهل ، والأقرب نجاحاً ، لافرق بين الأمور العملية والعملية ، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية ، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة ، وهذا من الحكمة

فائدة : لما ذكر الله الأنبياء وأتى عليهم قال (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) تدل على اتباع جميع الأنبياء في جميع هداهم ، والله هداهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم فكل أمر أئنى الله فيه على أحد من أنبيائه من عقد أو خلق أو عمل ، فأننا مأمورون بالاعتداء بهم ، وذلك من هداهم وهو أيضاً من شريعتنا ، فإن الله أمرنا بذلك ، كما أمرنا بالوصاف العامة التى تدخل فيها مفردات كثيرة

فائدة : إذا أمرنا الله فى كتابه بأمر كان آمراً بذلك ؛ وبكل أمر لا يتم إلا به . فالأمر مثلاً بالصلاة أمر بالطهارة وستر العورة واجتناب النجاسة واستقبال القبلة وبجميع شروطها وأركانها ، وكذلك هو أمر بمعرفتها ومعرفة مالاتم إلا به ، وهذا من أعظم الأدلة على وجوب طلب العلم ، فإن المأمورات يتوقف تكميلها على معرفتها ؛ وكذلك إذا نهانا الله عن شيء كان نهياً عن كل وسيلة توصل اليه ، والأمر بالجهاد أمر به وبكل ما يتوقف عليه فى كل زمان ومكان ؛ والأمر بتبليغ الشريعة أمر بكل ما يحصل به التبليغ ويتم ويكمل ويشمل ؛ ويدخل فى هذا إيصال الأحكام الشرعية وتبليغها للناس بجميع المقربات الحادثة

فائدة : قد أخبر الله فى عدة آيات بهدايقه الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم ، وتوبته على كل مجرم ، وأخبر فى آيات أخر (أنه لا يهدي القوم الظالمين - لا يهدي القوم الفاسقين) فما الجمع بينهما ؟ فيقال قوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم) هى الفاصلة بين من هداهم الله ومن لم يهدهم ، فمن حقت عليهم كلمة العذاب ؛ لعنادهم ولعلم الله أنهم لا يصاحون للهداية ، بحيث صار الظلم والفسق وصفاً لهم ملازماً غير قابل للزوال ويعلم ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق ، فهو لا يطع الله على قلوبهم فلا يدخلها

خير أبدأ ، والجرم جرمهم ، فانهم رأوا سبيل الرشـد فزهـدوا فيه ، ورأوا سبيل النـى فرغبوا فيه واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله

فائدة : ورد في كثير من الآيات اضافة الامور إلى قدرة الله ومشيئته وعموم خلقه ، وفي آيات كثيرة اضاقتها إلى عاملها وفاعلها ، وهذه الآيات المتنوعة تنزل على الأصل العظيم المتفق عليه بين سلف الأمة ، والذي دل عليه العقل والنقل ، وهو أن جميع الامور واقعة بقضاء الله وقدره أعيانها وأوصافها وأفعالها وجميع ما حدث ويحدث ، لا يخرج شئ منه عن قضائه وقدره . ومع ذلك فقد جعل الله الحوادث تبعاً لأسبابها ولارادة الفاعلين لها وقدرتهم عليها ، فالآيات المتعددة المضافة إلى عموم قدره تدل على الأصل الأول ، والآيات المتعددة المضافة إلى فاعليها تدل على الأصل الثاني ، ولامنافاة بينهما ، فان أعمال العباد مثلاً تقع بفعلهم وإرادتهم وقدرتهم ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وارادتهم وخالق السبب القام خالق للسبب ، ومع ذلك فقد جعلهم في أفعالهم ونزوكهم مختارين غير مجبورين .

فائدة : يختم الله كثيراً من الآيات عندما يبين للعباد الاصول والاحكام النافعة بقوله (لعلمكم تعقلون) وهذا يدل على أمور :

منها أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه وارشاداته وتعليماته ، فنحفظها ونفهمها ونعقلها بقلوبنا ونؤيد هذا العقل ونثبتته بالعمل بها

ومنها أنه كما يحب منا أن نعقل هذا الحكم الذي بينه بيانا خاصا ، فانه يحب أن نعقل بقية ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة ، وأن نعقل آياته المسموعة وآياته المشهودة ومنها أن في هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله اليها من أعظم ما يربى عقولنا ويجعلها عقولا تفهم الحقائق النافعة والضارة ، وترجع هذه على هذه ، ولا تنهل بها الاهواء والاغراض والخيالات والخرافات الضارة المفسدة لعقول

وإذا أردت معرفة مقادير عقول الخلق على الحقيقة ، فانظر إلى عقول المهتدين بهداية القرآن والسنة ، وإلى عقول المنحرفين عن ذلك تجد الفرق العظيم ، ولا تحسبن العقل هو الذكاء وقوة الفطنة والفصاحة اللفظية وكثرة القيل والقال ، وإنما العقل الصحيح أن يعقل العبد في قلبه الحقائق النافعة ، عقلا يحيط بمعقها ويميز بينها وبين ضدها ، ويعرف الراجح من الامور فيؤثره ، والمرجوح أو الضار فيتركه ، وبعبارة أخرى مختصرة قول : العقل هو الذي يعقل به العلوم النافعة ويعقل صاحبه ويمنعه من الامور الضارة .

فائدة : ورد في القرآن آيات عامة هتف هاتيه بعض أفرادها الداخلة فيها ، وذلك يدل على فضيلة الخصوص وأكديته ، وأن له من المزايا ما أوجب النص عليه ؛ مثل قوله (من كان عدواً

الله وملائكته وجبريل وميكائيل ، فان الله عدو للكافرين - تنزل الملائكة والروح فيها) وهو جبريل (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى - والذين يمسون بالكتاب) دخل فيه الدين كله ثم قال (وأقاموا الصلاة) ومثله (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) أى اتبعه ، ويدخل فى ذلك جميع الشرائع ، ثم قال (وأقم الصلاة) وذكر المعبود فى ذلك ، إلى غير ذلك من الآيات التى إذا تأملت المخصوص من العام علمت أن ذلك لشرفه وآكديته وما يترتب عليه من الثمرات الطيبة .

فائدة لطيفة : فى عدة آيات من القرآن إذا ذكر الله الحكم لم ينص على نفس الحكم عليه ، بل يذكر من أسمائه الحسنى ما إذا علم ذلك الاسم وعلمت آثاره ، علم أن ذلك الحكم من آثار ذلك الاسم ، وهذا انتباه من الله لعباده أن يعرفوا أسمائه حق المعرفة ، وأن يعلموا أنها الأصل فى الخلق والأمر ، وأن الخلق والأمر من آثار أسمائه الحسنى ، وذلك مثل قوله (فان قاموا فان الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فان الله سميع عليم) فيستفاد أن الفيئة يحبها الله وأنه يغفر لمن قام ويرحمه ، وأن الطلاق كرهه إلى الله ، وأما المؤلى إذا طلق فان الله تعالى سيجازيه على ما فعل من السبب ، وهو الإيلاء ، والمسبب ، وهو ما ترتب عليه ، ومثل هذا قوله تعالى « إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » أى فانكم إذا علمتم ذلك رفعت عنه العقوبة المتعلقة بحق الله ، وهذا كثير ، وقد يصرح الله بالحكم ويعلمه بذكر الأسماء الحسنى المناسبة له .

فائدة : قوله تعالى « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » جمع الله فيها أموراً كثيرة نافعة فى الدين والبدن والحال والمآل ، فالأمر بالاكل والشرب يدل على الوجوب ، وأن العبد لا يحل له ترك ذلك شرعاً ، كما لا يتمكن من ذلك قدراً ما دام عقله معه ، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر الله يكون عبادة ، وأن الأصل فى جميع المأكولات والمشروبات الإباحة ، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لاطلاق ذلك ، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به ويوافق لغذائه وقره ، ويوافق لصحته ومرضه ولعاداته وعدمها ، لأنه حذف المأكول ، والآية ساقها الله لإرشاد العباد إلى منافعهم ، وهى تدل على ذلك كله ، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب ما ينفعه ويقم صحته وقوته ، وعلى الأمر بالاعتصاف فى الغذاء والتدبير الحسن ، لأنه لما أمر بالاكل والشرب نهى عن السرف ، وعلى أن السرف منهى عنه ، وخصوصاً فى الأطعمة والاشربة ، فإن السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال .

أما ضرره الدينى ، فكل من ارتكب ما نهى الله ورسوله عنه فقد انجرح دينه ، وعليه أن يداوى هذا الجرح بالتوبة والرجوع .

وأما ضرره العقلي ، فإن العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي ، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه ، ولهذا كان حسن التدبير في المعاش من أبلغ ما يدل على عقل صاحبه ، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الاسراف الضار ، فلا ريب أن ذلك لنقص عقله ، فانه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير .

وأما ضرره البدني ، فإن من أسرف بكثرة الماء كولات والمشروبات انضر بدنه واعتراه أمراض خطيرة ، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الاسراف في الغذاء ، ثم إنه ينضر أيضاً من وجه آخر ، فإن من عود بدنه شيئاً اعتاده ، فاذا عوده كثرة الأكل أو أكل الأطعمة المتنوعة فربما تعذرت في بعض الأحوال لفقر أو غيره ، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً له فتتحرف صحته .
وأما ضرره المالي فظاهر ، فإن الاسراف يستدعي كثرة النفقات ، ولهذا قال تعالى (ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) أي تلام على ما فعلت ، لأنه في خير طريقه (محسوراً) فارغ اليد ، وإخباره أنه لا يحب المسرفين ، دليل على أنه يحب المقتصدين ، ففي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله ، وأنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأحوال كلها ، فسبحان من جعل كتابه كنزاً للعلوم النافعة المتنوعة .

فائدة : ذكر الله في كتابه عدة آيات فيها وصف القلوب بالمرض وبالعمى وبالقسوة ، وبجمل الموانع عليها من الران ، والاكنة والحجاب ، وبهوتها وبجبرتها ، فاعلم أن القلب يكون صحيحاً ويكون مريضاً ، ويجمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة ، وقد يكون ليناً وقد يكون قاسياً فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع هذه الآفات ، وهو القلب الذي صحت وتويت قوته العلمية ، وقوته العملية الإرادية ، وهو الذي عرف الحق فاتبعه بلا تردد ، وعرف الباطل فاجتنبه بلا توقف ، فهذا هو القلب الصحيح الحلي السليم ، وصاحبه من أولى النهى وأولى الحجى وأولى الآليات وأولى الابصار ، والخبت لله والمنيب اليه

وأما القلب المريض فهو الذي انحرفت أحد قوتينه العلمية أو العملية أو كليهما
فرض الشبهات والشكوك الذي هو مرض المناقنين لما اختلفت عليهم وبقيت قلوبهم في شكوك واضطراب ولم تتوجه إلى الخير ، كان مرضها مهلكاً

ومرض الشهوات الذي هو ميل القلب إلى المعاصي مغل بقوة القلب العلمية ، فإن القلب الصحيح لا يريد ولا يميل إلا إلى الخير أو إلى ما أباحه الله له ، ففتى رأيت القلب ميلاً إلى المعاصي سريع الاقبياد لها ، فهو مريض وهو سريع الافتتان عند وجود أسباب الفتنة ، كما قال تعالى (فيقطع الذي في قلبه مرض)

وأما القلب القاسي ، فهو الذي لا يبلين لمعرفة الحق ، وإن عرفه لا يابن للاقبياد له ، فتأنيه

المواظظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك ، اما لقسوته الاصلية أو لعقائد منحرفة اعتقدها ورسخ قلبه عليها وصعب عليه الانقياد للحق إذا خالفها ، وقد يجتمع الامران ، وأما الرآن والا كنة والاعطية التي تكون على القلوب ، فانها من آثار كذب العبد وجرائمه ، فاذا أعرض عن الحق وعارض الحق ، وجاء الحق فردّه وفتح الله له أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه ، عاقبه الله بهذا العمل بأن سد عنه طرق الهداية التي كانت مفتوحة له وتميسرة فتكبر عنها وردّها ، فطبع على قلبه وختم عليه وأحاطت به الجرائم ورائت عليه الذنوب وغطت قلبه وجعلت بينه وبين الحق حجاباً وأقفلت القلب ، فهذه المعاني التي أكثر الله من ذكرها في كتابه ، إذا عرفت هذه الضوابط المذكورة في هذه الفائدة انضحت لك معانيها وعرفت بذلك حكمة الله وعدله في عقوبة هذه القلوب ، وأن الله ولاهم ما تولوه لأنفسهم ورضوه لها .

فائدة : قوله تعالى (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) جمع الله فيها الحقوق الثلاثة : الحق المختص بالله الذي لا يصلح لغيره ، وهو العبادة في قوله (وتسبحوه بكرة وأصيلاً) والحق المختص بالرسول ، وهو التوقير والتعزير ، والحق المشترك ، وهو الايمان بالله ورسوله .

فائدة : ذكر الله اليقين في مواضع كثيرة من القرآن في المحل العالي من الثناء ، أخبر أن اليقين هو غاية الرسل لقوله (وليكون من الموقنين) وأنه بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين وأن الآيات إنما ينفع بها الانتفاع الكامل (الموقنون) لتحقيق اليقين هو العلم الثابت الراسخ التام المثمر للعمل القلبي والعمل البدني .

أما آثار اليقين العلمية فتلاث مراتب : علم اليقين . وهي العلوم الناتجة عن الادلة والبراهين الصادقة الخبرية ، كجميع علوم أهل اليقين الحاصلة عن خبر الله وخبر رسوله وأخبار الصادقين . وعين اليقين وهي مشاهدة المعلومات بالدين حقيقة ، كما طلب الخليل ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، فأراه الله ذلك بعينه ، وغرضه عليه السلام الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ؛ -وحق اليقين : وهي المعلومات التي تحقق بالذوق ، كذوق القلب لطعم الايمان ، والذوق باللسان للأشياء الحسة .

وأما آثاره القلبية ، فسكون القلب وطماننته ، كما قال ابراهيم (ولكن ليطمئن قلبي) وقال ﷺ : الهر ما اطمأن اليه القلب . وفي لفظ : الصدق ما اطمأن اليه القلب . فان العبد إذا وصل إلى درجة اليقين في ماومه اطمأن قلبه لعقائد الايمان كلها ، واطمأن قلبه لحقائق الايمان وأحواله التي تدور على محبة الله وذكره ، وهما متلازمان ، قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فتسكن القلوب عند الاخبار فلا يبقى في القلب شك ولا ريب في كل خبر أخبر الله به في كتابه وعلى لسان رسوله ، بل

يفرح بذلك مطمئناً عالماً أن هذا أعظم فائدة حصلت لها القلوب . ويطمئن عند الأوامر والنواهي مكملاً للأموارات تاركاً للمنهيات راجياً لثواب الله واثقاً بوعده .

ويطمئن أيضاً عند المصائب والمكاره فيبتلقاها بانشرح صدر واحتساب ، ويعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فيخف عليه حملها ويهون عليه ثقلها ، وقد علم بذلك آثارها البدنية ، فإن الأعمال البدنية مبنية على أعمال القلوب ، فأهل اليقين هم أكمل الخلق في جميع صفات الكمال ، فإن اليقين روح الأعمال والأخلاق وحاملها ، والله هو الموفق الواهب له ولأسبابه

فائدة : الظن ورد في القرآن على وجهين ، وجه محمود ووجه مذموم :

أما المحمود ففي كل مقام مدح وجزاء بالخير والثواب ، فانه بمعنى العلم واليقين مثل قوله تعالى (الذين يظنون انهم ملائكة ربهم) أى يتيقنون ذلك ، ومثل قوله (انى ظننت انى ملائكة حسابه) وأما المذموم ، ففي أغلب الآيات الواردة في الظن ، مثل (ان يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، وإن هم إلا يظنون) وهو كثير ، فهذا وما أشبهه فيمن قدم الظنون الكاذبة على الاخبار الصادقة ، لأن الظن في الاصل يحتمل الصدق والكذب ، ولكنه إذا ناقض الصدق قطعنا بكذبه .

فائدة : قوله تعالى (يمحى الله الربا ويربى الصدقات) وقوله (وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون) تدل الآيتان على أن الزيادة من المحرمات ، وخصوصاً المكاسب المحرمة ، نقص في البركة ، وقد ينسحت المال بذاته عاجلاً أو آجلاً ، وعلى أن من أخرج شيئاً لله أو فعل شيئاً لله ، فإن الله يزيده وينزل له البركة فإن المال وإن نقص حساً بما يخرج منه لله ، فانه يزداد معنى ووصفاً ، وقد يفتح للعبد بسبب ذلك أبواب من الرزق أو يدفع عن العبد من أسباب النقص ما كان يصدد أن يصيبه .

فائدة : الفرح ورد في القرآن محموداً مأثوراً به في مثل قوله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فهذا فرح بالعلم والعمل بالقرآن والاسلام ، وكذلك قوله (فرحين بما آتاهم الله من فضله) فهذا فرح بثواب الله .

وورد منهياً عنه مذموماً ، مثل الفرح بالباطل وبالرياسات والدنيا المشغلة عن الدين في مثل قوله تعالى (إنه لفرح فخور) وقوله عن قارون (قل له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) وما أشبه ذلك ، فصار الفرح تبعاً لما تعلق به ، إن تعلق بالخير ونمراته فهو محمود ، وإلا فهو مذموم

فائدة : ورد السعي في القرآن في آيات كثيرة ، والمراد به الاهتمام والجهد في العمل ، مثل قوله (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً) وقوله (إذا نودى

للصلاة من يوم الجمعة فاسمعوا إلى ذكر الله) وقوله (إن سعيكم لثتى) وآيات كثيرة كلها بمعنى الاهتمام للعمل ، إلا فى مثل قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى - وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) فالمراد بذلك العدو ؛ وهو يتضمن الأول وزيادة

فائدة : أمر الله بالصدق وأثنى على الصادقين ، وذكر جزاء الصادقين فى آيات كثيرة ، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقاً فى عقيدته ، صادقاً فى خلقه ، صادقاً فى قوله وعمله ، فهو الذى يحبى بالصدق فى ظاهره وباطنه ، ويصدق بالصدق لمن جاء به ، كما قال تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق فى كل حالة ، ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله فقال (لهم ما يشاءون هند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويمجزهم أجراً بأحسن الذى كانوا يعملون) وخواص أهل هذا الوصف هم الصديقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم ، قال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون) والمراد بالإيمان الكامل ، كما قال النبي ﷺ لما ذكر لأصحابه الغرف العالية التى يترأها أهل الجنة من علوها وارتفاعها ونورها كالسكوك الدرى فى الأفق الشرقى أو الغربى ، فقالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ فقال بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وهؤلاء هم الهداة المهديون ، كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

فالصدقية شجرة أصلها العلوم الصحيحة والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله وقوامها وروحها الإخلاص الكامل لله والانابة إليه ، والرجوع إليه فى جميع الأحوال رغبة ورهبة ومحبة وتعظيماً وخضوعاً وذلاً لله ، وثمراتها الأخلاق الحميدة والأقوال السديدة والأعمال الصالحة والاحسان فى عبادة الخالق ، والاحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الاحسان ، وجهاد جميع أصناف المنحرفين ؛ فهى فى الحقيقة القيام بالدين ظاهراً وباطناً وحلاً ودعوة إلى الله ، والله هو الموفق وهو المعين لكل من استعان به صدقاً .

فائدة : قوله تعالى فى المصطفين الذين أورثهم الله الكتاب (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقصد ومنهم سابق بالخيرات) اشترك هؤلاء الثلاثة فى أصل الإيمان ، وفى اختيار الله لهم من بين الخليقة وفى أنه من عليهم بالكتاب ، وفى دخول الجنة ، وافترقوا فى تكميل مراتب الإيمان ، وفى مقدار الاصطفاء من الله وميراث الكتاب ، وفى منازل الجنة ودرجاتها بحسب أوصافهم

أما الظالم لنفسه ، فهو المؤمن الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ؛ وترك من واجبات الإيمان ما لا يزول معه الإيمان بالكافية ، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : من يرد القسامة وقد كفر عنه السيئات كلها . إما بدهاء أو شفاعة أو آثار خيرية

ينتفع بها في الدنيا أو عذب في البرزخ بقدر ذنوبه ، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله ، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه .

القسم الثاني : من ورد القيامة وعليه سيئات ، فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع .

أحدها : من ترجح حسناته على سيئاته فهذا لا يدخل النار ، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته ، وهي من رحمة الله .

ثانيها : من تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء هم أصحاب الأعراف ، وهي موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه ، وفيه ما شاء الله ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة ، كما وصف ذلك في القرآن .

ثالثها : من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار ، إلا أن يمنع من ذلك مانع ، من شفاعته الرسول له ، أو شفاعته أحد من أقاربه أو معارفه من يجعل الله لهم في القيامة شفاعته لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه ، أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة وإلا فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه ، ثم ماله إلى الجنة ، ولا يبقى في النار أحد في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان ، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها .

وأما المقتصد فهو الذي أدى الواجبات وترك المحرمات ، ولم يكثر من نوافل العبادات ، وإذا صدر منه بعض المفوات بادر إلى التوبة فعاد إلى مرتبته ، فهؤلاء أهل اليمين ، وأما من كان من أصحاب اليمين (فسلام لك من أصحاب اليمين) فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ وعذاب النار وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم فأدخلهم بها الجنة ، كل على حسب مرتبته .

وأما السابق إلى الخيرات فهو الذي كل مراتب الاسلام وقام بمرتبة الاحسان ، فعبد الله كأنه يراه ، فان لم يكن يراه فانه يراه ، وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله ، فكان قلبه ملاً ناً من محبة الله والنصح لعباد الله ، فأدى الواجبات والمستحبات ، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنتقصة لدرجته ، فهؤلاء هم صفوة الصفوة ، وهم المقربون في جنات النعيم إلى الله ، وهم أهل الفردوس الاعلى ، فان الله كما أنه رحيم واسع الرحمة ، فانه حكيم ينزل الأمور منازلها ويعطي كل أحد بحسب حاله ومقامه ، فكما كانوا هم السابقين في الدنيا إلى كل خير ، كانوا في الآخرة في أعلى المنازل ، وكما نجيروا من الأعمال أحسنها ، جعل الله لهم من الثواب أحسنه ، ولهذا كانت عين التسليم أعلى أشربة أهل الجنة ، يشرب منها هؤلاء المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجافى بقية أشربة الجنة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، كما قال تعالى (ومزاجه من تسنيم عينا

يشرب بها المقربون) وهكذا بقية ألوان وأصناف نعيم الجنة لهؤلاء السابقين منه أعلاه وأكمله وأنفسه ، وإن كان ليس في نعيم الجنة دنى ولا نقص ولا كدر بوجه من الوجوه ، بل كل من تنعم بأى نعيم من نعيمها لم يكن في قلبه شئ أعلى منه ، فإن الله أعطاهم وأرضاهم ، وخيار هؤلاء الأنبياء على مراتبهم ، ثم الصديقون على مراتبهم ، ولكل درجات مما عملوا ، فسبحان من تفاوت بين عباده هذا التفاوت العظيم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

فائدة : ورد في القرآن (الظلم) بمعنى الكفر والشرك الأكبر ، كما قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) وقال (إن الشرك لظلم عظيم) ونحوهما . وورد كثيراً بمعنى الجرائم التي دون الشرك كما سبق في الظالم لنفسه ؛ ومثل (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) وورد أيضاً عدة آيات يدخل فيها هذا وهذا ، ومثل هذا (الفسق) والمعصية والذنوب والسيئة والجرم والخطيئة ونحوها ، فلما وردت في القرآن لكل واحد من هذه الثلاثة ، فتصرف في كل مقام بما يناسب ذلك المقام .

فائدة : قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) جمعت السعادة وجميع الأسباب التي تنال بها السعادة ، وهي ثلاثة أشياء : فعل المأمور ، واجتناب المحذور ، وتصديق خبر الله ورسوله . فهذه الثلاثة يدخل فيها الدين كله ، وذلك أن قوله (أعطى) أى جميع ما أمر به من قول وعمل ونية (واتقى) جميع ما نهى عنه من كفر وفسوق وعصيان (وصدق بالحسنى) بما أخبر الله به ورسوله من الجزاء ، فصدق بالتوحيد وحقوقه وجزاء أهله ، فمن جمع ثلاثة الأمور يسره الله لليسرى ، أى لكل حالة فيها تيسير أموره وأحواله كلها ، ومقابل هذا قوله (وأما من بخل) أى ترك ما أمر به - ليس خاصاً بالنفقة - بل معنى البخل المنع ، فإذا منع الواجبات المتوجهة إليه ، القولية أو الفعلية أو المالية ، فقد بخل (واستغنى) أى رأى نفسه غير مفتقر إلى ربه ، وذلك عنوان الكبر والتجبر ، على محارم الله (وكذب بالحسنى) أى بلا إله إلا الله وحقوقها وجزاء المقيمين لها والتاركين لها (فسنيسره لليسرى) أى لكل حالة عسرة في معاشه ومعاده .

فائدة : خطابات القرآن للناس خبراً وأمرأً ونهيأً قسمان :

أحدهما : وهو الأكثر جداً خطاب عام يخاطب به جميع الناس ويتعلق الخبر أو الحكم فيهم في حالة واحدة ، مثل الخبر عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومثل الأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والبر والصلة والعدل والنهي عن ضد ذلك ، وهذا لأن القرآن هداية وبيان للناس ، وهم مستوون في تعلق تلك الأحكام فيهم ما لم يمنع مانع عجز عن بعض الواجبات فيرتب عليه حكمه .

القسم الثانى : الخطاب الدام من جهة ، والخاص من جهة أخرى ، وذلك كالخطاب المتعلق بالعبادات

المعلقة على أوقاتها ، كالأمر بالصلوات الخمس لأوقاتها ، كقوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر) وبالإمسك عن المفطرات ، مثل قوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخطيط الأبيض من الخطيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) فمن جهة أنه توجه إلى جميع المكافين فانه خطاب عام لجميع أهل المشرق والمغرب مخاطبون بذلك ، ومن جهة أن لكل موضع حكماً بنفسه ، فانه معلوم أن الوقت الذي تطلع فيه الشمس على هؤلاء أرتغرب ، أو يطلع الفجر أو نزول الشمس غير الوقت الذي توجد فيه هذه الأمور عند الآخرين ، فكل يخاطب بحسب حاله وحسب الموضع الذي فيه بلا ريب ، ونظير هذا الأمر باستقبال القبلة للصلاة توجه إلى جميع أهل الأرض ومع ذلك فكل قطر ومحل فلهم جهة يتوصلون بها إلى الكعبة ، ولهذا صرح الله بهذا المعنى بقوله (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فالمقصود واحد والطرق والوسائل إلى هذا المقصود متباينة وكل أحد مأمور بطريقه الخاص ، ونظير ذلك الاخبارات بطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبها لو تخذاق جاهل فقال إن مثل قوله (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) أى في البحر برؤية العين ، وقوله (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) ينافي المعلوم ، ان الشمس والقمر والكواكب لا تغرب عن الدنيا بالكيفية ، فيقال هذا من الجهل والعجمة ؛ كان سحيق عن الحقائق ، وذلك أن الله لم يقل وجدها تغرب عن جميع الأرض أو تطلع على جميع الأرض حتى يكون لهذا الجاهل اعتراض ، بل أخبر عن غروبها وطلوعها عن ذلك الموضع وذلك القطر ، كما يفهم الناس كلهم سابقاً ولاحقاً ، ولا فرق بين الاخبارات والاحكام بوجه ، ومن المعلوم أن لكل أهل قطر مطلعاً ومغرباً ، فهذه الخطابات في الاحكام والخبارات في غاية الاحكام التي لا يتطرق اليها اعتراضات المعارض ، ومن اعترض على شيء من ذلك عرف الناس أن ذلك من آثار جهله وحقه ؛ وهذا واضح لا يحتاج إلى كل هذا ، يفهمه الذكي والبليد ، وهذا مقتضى كون القرآن عربياً ، أنزله الله بما يعقله العباد .

فائدة : ورد في القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود في النار على ذنوب وكبائر ليست بكفر مثل قوله تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) - (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لا يدخل في النار إلا الكفار ، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصي التي دون الكفر فانهم لا بد أن يخرجوا منها ، فهذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردها إلى هذا الأصل المجمع عليه بين سلف الامة ، وأحسن ما يقال فيها إن ذكر الخلود على بعض الذنوب التي دون الشرك والكفر انها من باب ذكر السبب ، وأنها سبب للخلود في

النار لشناعتها ، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع ، ومعلوم بالضرورة من دين الاسلام أن الايمان مانع من الخلود ، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور ، وهو أنه لا تتم الاحكام إلا بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها ، وهذا واضح والله الحمد ، مع أن بعض الآيات المذكورة فيها ما يدل على أن الخطيئة المراد بها الكفر ، لأن قوله (وأحاطت به خطيئته) دليل على ذلك ، لأن المعاصي التي دون الكفر لا تحيط بصاحبها ، بل لا بد أن يكون معه إيمان يمنع من احاطتها ، وكذلك قوله (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) فالمعصية تطلق على الكفر وعلى الكبائر وعلى الصغائر ؛ ومن المعلوم أنه إذا دخل فيها الكفر زال الاشكال .

فائدة : ورد في القرآن آيات كثيرة فيها مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها ، وورد أيضاً آيات أخر فيها مضاعفة أكثر من ذلك ، فها وجه ذلك .

فيقال : أما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلا بد منها في كل عمل صالح كما قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) في عدة آيات

وأما مضاعفة العمل أكثر من ذلك فله أسباب ، إما متعلقة بنفس العامل أو بالعمل ومزيتها أو نتائجه وثمراته أو بزمانه أو مكانه

فمن أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد في عمله الاخلاص والعبود والامتابة للرسول مضاعفة الأعمال تبع لما يقوم بقلب العامل من قوة الاخلاص وقوة الايمان .

وكذلك من الأسباب إذا كان العمل ناشئاً عن عقيدة صحيحة سلفية خالصة متعلقة من الكتاب والسنة ، فهذا العبد يكون اليسير من عمله أبرك من الكثير من عمل من ليس كذلك ومن ذلك ترك ما تهواه النفوس من الفواحش ، مع قوة الداعي اليها لبرهان الايمان والتوكل والاخلاص .

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العمل فيه نفع للمسلمين وغناء ، وذلك كالجهاد في سبيل الله ، الجهاد بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، كما قال تعالى في نفقات أهل هذا الصنف (مثل الذين ينفقون أهوالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)

ويدخل في هذا سلوك طريق التعليم والتعلم للعلوم الشرعية وما يعين عليها ، وفي الحديث « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة »

ومن ذلك العمل والسعي في المشاريع الخيرية التي ينفع بها المسلمون في دينهم ودنياهم ويتسلسل نفعها ، ومن ذلك العمل الذي إذا عمله العبد كثر مشاركوه والمقتدون به فيه

ومن ذلك إذا كان العمل له وقع عظيم ونفع كبير ، كأنجباء المضطربين ، وكشف كربات المكرويين ، فكم من عمل من هذا النوع هدم الله به ذنوب العبد كلها وأوصله به إلى رضوانه وقصة البغي التي سقت الكلب الذي كاد يموت من العطش شاهدة بذلك

ومن ذلك علو مقام العامل عند الله ورفعة درجته ، كما قال تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) وقوله قبلها (ومن يفتن منكن الله ورسوله وتعمل صالحاً فأتوئنها أجرها مرتين) ومن ذلك الصدقة من كسب طيب وقوة إخلاص

ومن ذلك العمل الواقع في زمان فاضل أو مكان فاضل .

ومن أهم وأعظم ما يضاعف به العمل لتحقيق مقام الاحسان في القيام بعبودية الله ، وفي الحديث « ليس لك من صلاتك إلا ما عملت منها » فالصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل ، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المطى .

وأسباب مضاعفة الثواب كثيرة ، ولكن نبهنا على أصولها .

ومما هو كالمتمنى عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف في جميع الأوقات بقوة الاخلاص لله والنصح لعباد الله ، ومحبة الخير للمسلمين مع التهج بذكر الله لا يلحقها شيء من الأعمال ، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب ، وبقية الأعمال تبع لها ، فأهل الاخلاص والاحسان والذكر هم السابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم .

فائدة : قد أمر الله في كتابه بالتفكير والتدبر والنظر والتبصر وغيرها من الطرق التي تنال بها العلوم ، وأثنى على أهلها ، وأخبر أن كتابه أنزل لهذه الحكم ، وأثنى على العلم واليتمين ومدح أهلها ونرج جميع طريق يوصل إليها .

فاعلم أن الذي يجمع أشقات هذه الطرق وأنواعها وأجناسها ثلاثة طرق كلية . أحدها طريق الاخبارات الصادقة . والثاني طريق الحس . والثالث طريق العقل ، ووجه الحصر أن المعلومات إما أن تدرك بحاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الذوق ، وإما أن تدرك بالعقل ، وإما أن تنال بالاخبار وكل واحد من هذه الثلاثة قد يقارن الآخر ، وخصوصاً العقل والأخبار الصادقة فاهما لا يتفارقان وقد يكون العلم ضرورياً بديهياً يضطر الانسان الى علمه والتصديق به من غير حاجة إلى زيادة نظر وتفكير . وقد يكون نظرياً يحتاج إلى ذلك .

ثم العلم بهذه الأمور مراتب متفاوتة .

وأعلى درجات العلم واليتمين وأوضحها وأنفعها للعباد خبر الله وخبر رسوله ، فانه لا أصدق من الله قبلاً ، ولا أصدق منه حديثاً (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) فكل ما قاله الله وقاله رسوله

فهو الحق والصدق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، وهو يهدي إلى كل دليل عقلى ونقلى ، وفي خبر الله وخبر رسله من البيان العظيم والتفصيلات لجميع أجناس العلوم النافعة مالا تصل اليه علوم الخلائق كلهم أولهم وآخرهم .

وإذا أردت أن تعرف أن الحق الصحيح هو ما قاله الله وقاله رسوله ، وأن ما ناقضه ونافاه فهو باطل بلا ريب مبنى على جهالات ومواد فاسدة .

فانظر إلى أصول الدين وقواعده وأسه كيف اتفقت عليها الأدلة النقلية والعقلية والحسية انظر إلى توحيد الله ووجوب تفرده وإفراده بالوحدانية وتوحده بصفات الكمال ، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة منها ، بل هي المقصود الأعظم منها ، وخصوصاً القرآن الذى هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذى هو أكبر الأصول وأعظمها

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ على تقرير توحيد الله وتفرده بالوحدانية وسعة الصفات وعظمها من سعة العلم والحكمة وعموم القدرة والارادة وشمول الحمد والملك والمجد والجلال والجمال والحسن والاحسان فى أسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم انظر إلى هذا الأصل العظيم فى قلوب سادات الخلق أولى الالباب الكاملة والعقول الثامة كيف تجده أعظم من كل شيء ، وأقوى وأكبر من كل شيء ، وأوضح من كل شيء ، وأنه مقدم عندهم على الحقائق كلها ، وأنهم يعلمونه علماً ضرورياً بديها قبل الأدلة النظرية ، ويعلمون أن كل ما عارضه فهو أبطل الباطل ، ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة والمحسوسة الشاهدة لله بالوحدانية

ففى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فوجود جميع الأشياء فى العالم العلوى والسفلى وبقاؤها وما هى عليه من الأوصاف المتنوعة كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها ومعدّها وممدها بكل ما تحتاج اليه ، ومن أنكر هذا فقد باهت وكاب. وأنكر أجلى الأمور وأعظم الحقائق .

ومن ههنا تعلم أن الماديين الملحدين أضل الخلق وأجهلهم وأعظمهم غروراً واغتراراً حيث اغتروا حين وقفوا على بعض علوم الكون الارضى المادى الطبيعى ، وقفت عقولهم القاصرة عندها واستولت عليهم الخيرة وتكبروا بمعارفهم الضئيلة وقالوا : نشبت ما وصلت اليه معارفنا وتنفى ما سواه ، فتعرف بهذا أن نفهم هذا جهل وباطل باتفاق العقلاء ، فان من نفى مالا يعرفه فقد برهن على كذبه واقترائه ، فكما أن من أثبت شيئاً بلا علم فهو ضال غاوى ، فكذلك من نفى شيئاً بلا علم ، وتعرف أيضاً أن إثباتهم لعلوم الطبيعة التى عرفوها وانتهت اليها معارفهم أن هذا الاثبات منهم قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته ، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها ، ولم

يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها ؛ بل عرفوا ظاهراً منها وهم عن النافع غافلون ، فأنبتوا بعض السبب وعموا عن المقصود ، وهم في علمهم هذا حائرون ، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور ؛ ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة ، فهم دائماً في خلط وخطب وتناقض ، وكلما جاءهم من البراهين الحق ما يبطل قولهم قالوا : هذا من فلتات الطبيعة ، وكلما برز مبرز من فحولهم وأذكيائهم ابتكر له طريقة غير طريقة إخوانه ؛ فصدق عليهم قوله تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج) وقوله (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها ، ودل عليه الشرع المحكم والقدر العام المنظم ، ولم يقدح فيه إلا هؤلاء الضلال الذين كان قدحهم فيه أسقط اعتبارهم وبرهن على فساد عقولهم .

وانظر إلى الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة ، وأن الله قد أقام على صدق رسله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر ، وخصوصاً محمد ﷺ ، فإن آيات نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة : سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم ، وحشاه على كل خلق كريم وعمل صالح ونفع وإحسان وعدل ، ونهيته عن ضد ذلك ، وما جاء به من الوحي : الكتاب والسنة ، كله جملة وتفصيلاً براهين على نبوته وصدقه مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه على الأديان كلها ، ومن اجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تعد أنوعاً فضلاً عن أفرادها ، وهذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة ، وعن هجز المعارضين له في مقامات التحدى كلها وعجزهم عن نصر باطلهم ولا يزال الباطل بين يدي ما جاء به الرسول مخذولاً راهقاً ، بحيث أن القائمين بما جاء به الرسول القائمين بمعرفة دينه يتحدثون جميع أهل الأرض أن يتنوا بصلاح أو فلاح أو رقي حقيقي أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها ، وأنه محال أن يتوصل إلى شيء من ذلك بغير ما جاء به الرسول وأرشد إليه ودل الخلق عليه ، ولولا الجهل بما جاء به الرسول والتعصبات الشديدة من الأعداء والمقاومات العنيفة ، وإقامة الحواجز المتعددة العنيفة لمنع الجهاديين والدهاء من رؤية الحق الصريح والدين الصحيح ، لم يبق على وجه الأرض دين سوى دين محمد ﷺ لدعوته وإرشاده وحشاه على كل صلاح وإصلاح وخير ورشد ، ولكن مقاومات الأعداء ونصر القوة للباطل بالتزويرات والتزويرات وتقاعد أهل الدين عن القيام به ونصرته هي التي منعت ، أ كثر الخلق من الوقوف على حقيقته

نم انظر إلى الأصل الثالث وهو إثبات المعاد والجزاء كيف اتفقت الكتب السماوية والرسول العظام وأتباعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الإيمان به والاعتراف

الناس به ، وكم أقام الله عليه من الأدلة العقلية والعقلية . وكذلك الحسية المشاهدة ما يدل أكبر دلالة عليه ، وكم أشهد عباده في هذه الدار أنموذجاً من الثواب والعقاب ، وأراهم حلول المثلثات بالملكيين ، وأنواع العقوبات الدنيوية بالمجرمين ؛ كما أراهم نجاة الرسل ومن تبعهم من المؤمنين وإكرامهم في الدنيا قبل الآخرة ، وكم أبطل الله كل شبهة يقدر بها المكذبون بالمعاد ، كما أقام الأدلة على إبطال الشبه الموجهة من المكذبين إلى توحيد الله وصدق رسوله ، وبين سفاهتهم وفساد عقولهم ، وأنه ليس لهم من المستندات على إنكار ذلك إلا استبعادات مجردة ؛ وقياس قدرة رب العالمين على قدر المخلوقين .

والمقصود أن هذه الأصول العظيمة قد قامت البراهين القواطع عليها من كل وجه وبكل اعتبار ، وجميع الحقائق الصحيحة غيرها لم يبق على ثبوتها وعلمها عشر معشار ما قام على هذه الأصول من البراهين المتنوعة ؛ ففي هذا دليل على أن كل من أثبت معلوماً أو حقيقة من الحقائق بطريق عقلي أو خبري أو حسي ، ثم نفى مع ذلك واحداً من هذه الأصول الثلاثة التي هي أساس الدين ، فقد كابر عقله وحسه وعلمه ونادى على نفسه بالتناقض العظيم ، لأن الطرق التي دلت على اثبات معلوماته هي وأضعافها وأضعاف أضاعفها وما هو أقوى منها وأوضح قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد .

واعلم أن المعلومات بخبر الله وخبر رسوله عامة يدخل فيها الأخبار عن الله وعن ملائكته وعن الغيوب كلها وأمور الشرع والقدر ، وهي الأخبار المعصومة الصادقة التي يعلم كذب ماخالفها وبطلانها . ولنكتف بهذا الانموذج من الأمثلة ، والله أعلم .

وبعد هذا إخبار الصادقين عن المواضع والحوادث والوقائع التي شاهدوها ، وهذا النوع بحسب صدق المخبرين ، وتواتر خبرهم يفيد العلم القطعي . وكذلك إخبار الصادقين عن العلوم التي سمعوها والانفاذ التي نقلوها ، وأصدق الناقلين هنا حملة الشريعة الحميدة ، لشدة عنايتهم وكمال صدقهم وقوة دينهم ، وأنهم بالخصوص حفظوا عن الخطأ العمومي ، والاتفاق على غير الصواب

ومن الأمور التي تعلم بالعقل أن العقول الصحيحة التي لم تغير فطرتها ، ولم تفسد بالعقائد الفاسدة ، تعلم علماً يقيناً حسن التوحيد والاخلاص لله ، كما تعلم قبح الشرك ، وتعلم حسن الصدق والعدل والاحسان إلى المخلوقين ، كما تعلم قبح ضده ، وتعلم وجوب شكر المنعم ووجوب بر الوالدين وصلة الأقارب ، والقيام بحق من له حق عليك ، واستحسن كل صلاح وإصلاح ، وتستقبح كل فساد وضرر ، ومن أشرف ما يعلم بالعقل أنه مركز في العقول أن الكمال المطلق لله وحده ، وأن له الحكمة التامة في خلقه وشرعه ، وأنه لا يليق به أن يترك خلقه سدى

لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون . ومن المعلوم بالحس ما يدرك بالحواس ، كسمع الأصوات وإبصار الأعيان وهو من أتم المعارف ، فانه ليس الخبر كالمعاينة ، وبما يدرك بالحس ما يدرك بالشم ، كشم الروائح الطيبة والخبيثة ، وما يدرك باللمس ، كالحرارة والبرودة ، وما يدرك بتحليل الأشياء والوقوف على موادها وجواهرها وصفاتها ، كل هذا من مدركات الحس وبالجملة فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جداً ، وكلما كان الشيء أعظم ومعرفة أهم ، كانت الطرق الموصلة إليه أكثر وأوضح وأصح وأقوى ؛ كما تقدمت الإشارة إلى التوحيد والرسالة والمعاد ، والله أعلم .

فائدة : لما ذكر البارئ نعمته على العباد بتيسير الركوب والأنعام والفلك قال (لتستقوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ذكر فيها أركان الشكر الثلاثة : وهى الاعتراف والتذكر لنعمة الله ، والتحدث بها والثناء على الله بها ، والخضوع لله والاستغانة بها على عبادته ، لأن المقصود من قوله (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) الاعتراف بالجزاء والاستعداد له ، وأن المقصود من هذه النعم أن تكون عوناً للعبد على ما خلق له من طاعة الله ، وفى قوله (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) تبيهاً فى هذه الحالة وقت تبوء النعمة ، لأن كثيراً من الخلق تسكرهم النعم وتفعلهم من الله ، وتوجب لهم الأشر والبطر . فهذه الحالة التى أمر الله بها هى دواء هذا الداء المهلك ، فانه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله ، وأن أصولها وتيسيرها وتيسير أسبابها وبقائها ودفع ما يضاهاها أو ينقصها كله من فضل الله وإحسانه ليس من العبد شيء ، خضع لله وذلل وشكره وأثنى عليه وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها ، وتكون نعمة حقيقية ؛ فأما إذا قابلها بالأشر والبطر ونسى المنعم ، وربما تكبر بها على عباد الله ، فهذه نعمة فى صورة نعمة ، وهى استدراج من الله للعبد سريعة الزوال وشيكة بالعقاب عليها والنكال ، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه .

فائدة : بل فوائد عظيمة فى ذكر شيء من الاسباب التى ذكرها الله فى كتابه

موصلة إلى المطالب العالية

لا ريب أن من حكمة الله ورحمته أنه جعل العباد مفتقرين إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية وإلى دفع المضار الدينية والدنيوية ، فافتضت حكمته وسنته التى لا تبدل أن هذه المنافع المتنوعة وخصوصاً الأمور العظام لا تحصل إلا بالسمى بأسبابها الموصلة اليها ، وكذلك المضار لا تندفع إلا بالسمى بالأسباب التى تدفعها ، وقد بين فى كتابه غاية التبيين هذه الاسباب وأرشد العباد اليها فمن سلكها فاز بالمطلوب ونجا من كل مرهوب .

فأصل الأسباب كلها الايمان والعمل الصالح ، جعل الله خيرات الدنيا والآخرة وحصولها بحسب قيام العبد بهذين الأمرين ، وقد ذكر الله في القرآن من هذا شيئاً كثيراً جداً ، وقد تقدم في هذا الكتاب شيء من ذلك عند ذكر فوائد الايمان .

وجعل الله القيام بالعبودية والتوكل سبباً لكفاية الله للعبد جميع مطالبه ، شاهده قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، أليس الله بكاف عبده) أى بمن يقوم بعبوديته ظاهراً وباطناً وجعل الله التقوى والسعى والحركة سبباً للرزق ، شاهده قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقول (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه)

وجعل الله التقوى والايمان وتكرار دعوة ذى النون سبباً للخروج من كل كرب وضيق وشدة ، شاهده الآية السابقة ، وكذلك قوله (وإذا النون إذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك تنجى المؤمنين)

وجعل الله الدعاء والطمع فى فضله سبباً لحصول جميع المطالب ، دليله قوله تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) وقوله (وادهوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) وجعل الله الاحسان فى عبادة الخالق والاحسان إلى الخلق سبباً يدرك به فضله وإحسانه العاجل والآجل ، شاهده الآية السابقة (إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقوله (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان - وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) ومن أحبه الله نال جميع ما يطلب .

وجعل الله التوبة والاستغفار والايمان والحسنات والمصائب مع الصبر عليها أسباباً لحصول الذنوب والخطايا ، شاهده قوله تعالى (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى - إن الحسنات يذهبن السيئات - إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)

وجعل الله الصبر سبباً وآلة تدرك بها الخيرات ويستدفع بها الكريهات ، شاهده الآية السابقة وقوله (واستمينا بالصبر والصلاة) أى على جميع أموركم . ولما ذكر الله ما وصل اليه أهل الجنة من كمال النعيم وزوال كل محذور ، ذكر أن هذا أثر صبرهم ، فقال (سلام عليكم بما صبرتم - أولئك يجزون الغرفة بما صبروا)

ومنه أنه جعل الصبر واليقين تنال بهما أعلى المقامات ، وهى الامامة فى الدين ، دليله قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

وجعل الله مفتاح العلم حسن السؤال وحسن الانصات والتعلم والتقوى وحسن القصد ، شاهده قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إن

تقوا الله يجعل لكم فرقانا (أى نوراً وعلماً تفرقون به بين الحقائق كلها ، وقوله (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) الآية وجعل الله الاستعداد للاعداء ، بكل مستطاع من القوة ، وأخذ الحذر منهم سبباً لحصول النصر والسلامة من شرورهم ، شاهده قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

وجعل الله اليسر يتبع العسر ، والفرج عند اشتداد الكرب ، شاهده قوله تعالى (إن مع العسر يسرا - سيجعل الله بعد عسر يسرا - أم من يجيب المضطر إذا دعاه) وجعل الله الشكر سبباً للمزيد منها ومن غيرها ، وكفران النعم سبباً لزوالها ، شاهده قوله تعالى (لئن شكرتم لازيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) وجعل الله الصبر والتقوى سبباً للعواقب الحميدة والمنازل الرفيعة ؛ شاهده قوله تعالى (والعاقبة للمتقين - إنه من يثق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)

وجعل الله الجهاد سبباً للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوقاية من شرورهم شاهده قوله تعالى (قاتلوهم يذهبهم الله بأيديكم ويخزى وينصركم عليهم . فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرص المؤمنين . حتى الله أن يكف بأس الذين كفروا)

وجعل الله لمحبة التي هي أعلى ما ناله العباد أسباباً ، أهمها وأعظمها متابعة رسوله محمد ﷺ في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال ، قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ومن أسبابها ما ذكره بقوله (والله يحب الصابرين - يحب المحسنين - يحب المتقين - يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

وجعل الله النظر إلى النعم والفضل الذى أعطيه العبد وغيض النظر مما لم يعطه سبباً للقناعة شاهده قوله تعالى (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

وجعل الله القيام بالعدل فى الأمور كلها سبباً لصلاح الأحوال ، وضده سبباً لفسادها واختلافها شاهده قوله تعالى (والسماء رفعنا ووضع الميزان أن لا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

وجعل الله كمال إخلاص العبد له سبباً يدفع به عنه المعاصى وأسبابها وأنواع الفتن ، شاهده قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)

وجعل الله قوة التوكل عليه مع الايمان حصناً حصيناً يمنع العبد من تسلط الشيطان ؛ خصوصاً إذا انضم إلى ذلك الاكثار من ذكر الله والاستعاذة بالله من الشيطان ، شاهده قوله تعالى (إنه

ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (وقال (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) إلى آخرهما .

وجعل الله مفتاح الايمان واليقين التفكير في آيات الله المتلوة وآياته المشهودة والمقابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة ، شاهده قوله تعالى (ككتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب) والامر بالتفكير بالخلوقات في عدة آيات ، وقوله (إن في ذلك لآيات للمؤمنين) فهي سبب للايمان ، والايمان موجب للانتفاع بها .

وجعل الله القيام بأمور الدين سبباً لتيسير الأمور ، وعدم القيام بها سبباً للتعسير ، شاهده قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) .

وجعل الله العلم النافع سبباً للرفعة في الدنيا والآخرة ، شاهده قوله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)

وجعل الله كون العبد طيباً في عقيدته وخلقه وعمله سبباً لدخول الجنة وللبشارة عند الموت شاهده قوله تعالى (طيبتم فادخلوها خالدين) وقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)

وجعل الله مقابلة المسمى بالاحسان ، وحسن الخلق سبباً يكون به العدو صديقاً ، وتتمكن فيه صداقة الصديق ، دليله قوله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم - فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنتم فظا غليظ القلب لانقضوا من حولك) وبذلك تحصل الراحة للعبد وتيسر له كثير من أحواله

وجعل الله الاتفاق في محله سبباً للخلف العاجل والثواب الآجل ، شاهده قوله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين)

وجعل الله لِرزقه أبواباً وأسباباً متنوعة ، فتمتئق عن العبد باب منها فلا يحزن ، فإن الله يفتح له غيره ، وقد يكون أقوى منه وأحسن ، وقد يكون مثله ودونه ، شاهده قوله تعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن ختم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) الآية

وجعل الله التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقاً سهلاً هيناً لتركها شاهده قوله تعالى (تلك حدود الله) أي محارمه (فلا تقربوها) أي لا تفعلوها ولا تحوموا حولها فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإذا قيل . مثل هذه الآية (تلك حدود الله فلا تقربوها) كان المراد بالحدود المحارم ، وأما إذا قيل (تلك حدود الله فلا تعتدوها) فهذه الحدود التي حددها الله للمباحات فعلى العبد أن لا يتجاوزها ، لأنه إذا تجاوز المباح وقع في المحرم ، فافهم الفرق بين الأمرين

وجعل الله السبب الوحيد القوي الثمر للثمرات الجليلة للدعوة إلى سبيله هو ما تضمنته هذه الآية (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) فالحكمة وضع الدعوة في موضعها ، ودعاية كل أحد بحسب ما يليق بحاله ويناسبه ويكون أقرب لحصول المقصود منه (والموعظة الحسنة) البالغة في الحسنة مبلغاً ، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد ما يناسب مقتضى الحال ، فالموعظة ببيان الأحكام مع ذكر ما يقتدرن بها من الترغيب في ذكر مصلحتها ومنافعتها وخيراتها الحاملة عليها ، وذكر ما يقتدرن بها من التهريب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والخسرات وحرمان الخير العاجل والآجل

(والمجادلة بالتي هي أحسن) بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التي تحقق الحق وتبطل الباطل ، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشامة

وقد علم الله مع ذلك أن الناس ثلاثة أقسام ، كل يدعى بالطريق التي تناسبه :

القسم الأول : المتقادون الملتزمون الراغبون في الخير ، الراهبون من الشر ، فهمؤلاء لما عندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح ، فقط يكتبني ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض

والقسم الثاني : الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادة عن الحق ، فهمؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والتهريب ، لأن النفوس لا تلتفت إلى منافعتها ، ولا تترك أغراضها الصادة لها عن الحق علماً وعملاً إلا مع البيان لها أن ترغب وترهب بذلك ما يترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار ، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة

والقسم الثالث : المعارضون أو المعاندون المسكبرون المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل فهمؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتي هي أحسن بحسب ما يليق بالمجادل والمجادل وبذلك المقالة وما يقتدرن بها ، وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تماماً فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التي حكها الله في كتابه مع أممهم المستجيبين ، والمعرضين والمعارضين ، تجدها محتوية على غاية الحسن في كل أحوالها

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وما سلك من الطرق المتنوعة في دعاية الخلق عموماً وخصوصاً على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وبحسب أحوالهم ، وبحسب الأقوال والأحكام التي يدعو إليها ، تجده قد فاق في ذلك الأولين والآخرين ، والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر

وجعل الله السبب لفصل الخصام المرضي للمشاجرين المنصفين في جميع المقالات ، الذي هو خير في الحال وأحسن في المسأل ، ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله ، شاهده قوله تعالى (فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن

تأويلاً) وجعل الله صلة ما أمر به أن يوصل من البر وصلة الأرحام والقيام بحق من له حق عليك سبباً تنال به مكارم الأخلاق ويتبوء به المنازل العالية في جنات النعيم ، شاهده قوله تعالى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب - إلى - جنات هدى يدخلونها) وجعل الله السوابق الحميدة للعبد وتعرفه لربه في حال الرخاء سبباً للنجاة من الشدائد وحصول أعظم الفوائد ، شاهده قوله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) وقول أهل الجنة فيها (إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فنّ الله علينا ووةً ناعذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم)

وجعل الله لشرح الصدر ونعيمه وطأ نينته أسباباً متعددة : اليقين والايان والاكثر من ذكر الله وقوة الانابة اليه ، والقناعة بما اعطى من الرزق ، وحصول العلم النافع ، وترك الذنوب والمبادرة بالتوبة مما وقع منها ، وشواهد هذا كثيرة ، منها قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب - آمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - إن الأبرار لفي نعيم) وشمول هذا النعيم لنعيم القلوب في الدنيا ظاهر . من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون - كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون .

وجعل الله ضرب الأمثال في كتابه طريقاً عظيماً من طرق التعليم الذي تدبّر وتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة ، كما مثل كلمة التوحيد والعقيدة الحقّة الصحيحة (بشجرة طيبة أصلها ثابت) في قلب المؤمن (وفرعها) من الأعمال والأخلاق (في السماء تؤتى أكلها) أى منافعها (كل حين باذن ربها) ومثل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التي لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع . ومثل المشرك بربه كالعبد الذي يتنازعه شركاء متشاككون ، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه بغيره .

وكذلك مثل الشرك والمشرك واتخاذ ولياً من دون الله يعزز به وينقصر (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) ومثل وحيه بمنزلة الغيث النافع . وقلوب الخلق بمنزلة الأراضي الطيبة القابلة والخبيثة ، وبين ذلك ، وهي أمثلة محسوسة يوضح الله بها المطالب النافعة ، وهو يقسم تعالى على أصول الدين التي يحب على الخلق الايمان بها : كالتوحيد والرسالة والمعاد وما يتفرع عنها ، وضرب الأمثال من تصريف الله الآيات لعباده بأعلى أساليب الكلام المؤثرة الموضحة للحقائق ، فتأمل اقسامات القرآن تجدها كذلك ، ولذلك حث الله عليها وودح من يتفكر فيها ويعقلها ، فقال (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وفي الآية الأخرى (وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ فصل في ذكر حدود ألفاظ كثير مرورها في القرآن ﴾

﴿ أمراً بها أو نهيّاً عنها أو مدحاً لها أو ذمّاً لها ﴾

قاله تعالى أنبى على من عرف حدود ما أنزل على رسوله وذنم من جهلها ؛ وهذه الألفاظ جليمة يعين على طالب العلم معرفة حدودها ، ليعرف ما يدخل فيها وما يخرج منها ؛ وتنفق الألفاظ المأمور بها في كثير من الأمور ، وقد يكون بينها فروق ، وكذلك المنهيات ، وهذا من إحكام القرآن ، وأنه يصدق بعضه بعضاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)

الاسلام والايمان : أما الاسلام فهو استسلام القلب لله وإنابته ، والقيام بالشرائع الظاهرة والباطنة ، وأما الايمان فهو التصديق التام والاعتراف بأصوله التي أمر الله بالايمان بها ، ولا يتم ذلك إلا بالقيام بأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، ولهذا سمي الله كثيراً من الشرائع الظاهرة والباطنة إيماناً ، وبعض الآيات يذكر أنها من لوازم الايمان فلي هذا : الايمان عند الاطلاق يدخل فيه الاسلام ، وكذلك بالعكس ؛ وإذا جمع بين الايمان والاسلام ، فسر الايمان بما في القلب من التصديق والاعتراف وما يتبع ذلك ، وفسر الاسلام بالقيام بعبودية الله كلها ، الظاهرة والباطنة الاحسان : قسمان . احسان في عبادة الخالق ، وهو بذل الجهد في إكمالها وإتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة . وإحسان إلى المخلوقين بإيصال جميع ما يستطيعه العبد من نفع علمي وبدني ومالي للمخلوق ونصيحة دينية أو دنيوية ومساعدة وحض على الخير ؛ ولهذا كان المحسنون يتفاضلون تفاوتاً عظيماً بحسب قيامهم بالاحسان المتنوع إلى الخلق ، برّهم وطجرهم ، حتى الحيوان البهيمة ، كما قال ﷺ « إن الله كتب الاحسان على كل شيء » الحديث .

الهدى والهداية : نوعان . هداية العلم والارشاد والتعليم ، وهداية العوفيق وجعل الهدى في القلب ، وهذان يطلبان من الله تعالى ، إما على وجه الاطلاق كقول العبد : اللهم اهدني ، أو اللهم إني أسألك الهدى ، وإما على وجه التقييد بطريقة النافع ، كقول المصلي : اهدنا الصراط المستقيم ومن حصلت له الهداية سمي مهتدياً ، وأعظم ما تحصل به الهداية القرآن ، ولهذا سماه الله هدى مطلقاً ، وقال (هدى للمتقين) وقال (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ويشمل جميع الأمور الدينية والدنيوية النافعة .

العلم واليقين : فالعلم هو تصور المعلومات على ما هي عليه ، ولهذا يقال : العلم ما قام عليه الدليل والعلم النافع ما كان مأخوذاً عن الرسول ، واليقين أخص من العلم بأمرين . أحدهما : أنه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع ، ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر ، وعين يقين إذا شاهده العين والبصر ، ولهذا يقال ليس بالخبر كالمعينة ، وحق يقين إذا ذاقه العبد ونجح به .

الأمر الثاني : أن اليقين هو العلم الذي يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر الله ، والطمأنينة بذكر الله ، والصبر على المكروه ، والقوة في أمر الله ، والشجاعة القولية والفعلية ، والاستحلاء للطاعات وأن يهون على العبد في ذات الله المشتقات وتحمل الكريهات ، فهذه الآثار الجميلة التي هي أعلى وأحلى من كل شيء من آثار اليقين .

الصبر : حبس النفس على المشتقات طلباً لرضا الله ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام : صبر على طاعة الله ، وخصوصاً الطاعات الشاقة ، حتى يؤديها على وجه الكمال ، وصبر عن معصية الله ، خصوصاً المعصية التي تدعو النفس إليها دعاءً قوياً ، حتى يجاهد نفسه فيتركها لله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة ، خصوصاً إذا عظمت المصيبة ، حتى لا يتسخطها ، وربما وصلت به الحال إلى الرضا عن الله الشكر لله : هو الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة ، العامة والخاصة ، والتحدث بها ، والاستعانة بها على طاعة المنعم دون معصيته ، ولا بد أن يقترن هذا بالخضوع للنعم ومحبة ، فهذه الأركان الخمسة يكون الشكر تاماً :

البر والتقوى لله : إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر ، فانه اسم جامع للقيام بكل ما يحبه الله ورسوله ظاهراً وباطناً ، وترك ما يكرهه الله ورسوله ظاهراً وباطناً ، وإذا جمع بينهما نحو (وتعاونوا على البر والتقوى) فسر البر بالقيام بمقائد الإيمان وأخلاقه ، وأعمال البر كلها القاصرة والمتعدية وفسرت التقوى باتقاء ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان .

الصدق والكذب : الصدق هو استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم فالصدق في المقائد أن تكون عقيدة العبد صادقة سلفية متفقة عن كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم ، والصدق في الاخلاق أن يكون القلب ملائماً من الإيمان والاخلاص والرغبة والنصيحة لعباد الله ومحبة الخير لهم ، والصدق في الأقوال أن يكون قائلاً للصدق مصداقاً به ، والصدق في الأعمال الاجتهاد في تكميلها واتقانها ، والكذب ما ناقض ذلك كله ، ولذلك كان الصدق والكذب مراتب ، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً

العدل والظلم : العدل هو سلوك الطريق المستقيم المعتدل في المقائد والأخلاق والأقوال والأفعال كما يقال في الصدق ، والظلم ما ناقض ذلك ، ولهذا انقسم الظلم الى ثلاثة أقسام كلها منافية للعدل - الظلم في التوحيد بالاشراك بالله ؛ قال تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) وظلم الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم ، وظلم العبد نفسه فيما دون الشرك ، ولا يتم للعدل الكامل حتى يدع جميع هذه الاقسام ، ويتوب الى ربه مما وقع منه ، ويخرج من حق العباد اليهم ، ولهذا كان القيام بالدين كله من العدل والقسط .

« العباد والعبودية لله » اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة ، ولهذا كان تارك المعصية لله معصياً ، متقرباً إلى ربه بذلك ، ولا تتم العبادة إلا بالاخلاص « الاخلاص لله وحده » بأن يقصد العبد وجه الله ورضاه وثوابه في أعماله الظاهرة والباطنة ، وضده العمل للرياء والسمعة ولأجل عرض الدنيا وميزان هذا قوله تعالى عن خيار الخلق (يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً) وقوله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وجميع الأعمال على هذا النمط ، وقد براد بالمجرة هنا الهجرة العامة التي قال فيها النبي ﷺ : والمهاجر من هجر ما نهى الله ورسوله عنه « الخوف والخشية والخضوع والاختبات والوجل » معانيها مقاربة فالخوف يمنع العبد عن محارم الله ، وتشاركه الخشية في ذلك وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله . وأما الخضوع والاختبات والوجل : فاتها تنشأ عن الخوف والخشية لله فيخضع العبد لله ويخبت إلى ربه منيباً إليه بقلبه ويحدث له الوجل ، وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه ، فهذا خشوع خاص . وأما الخشوع الدائم الذي هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته فيستولى ذلك على القلب كما تستولى المحبة « القنوت » ورد في القرآن على أحد معنيين معنى خاص بمعنى الخشوع ، ومعنى عام وهو قنوت المخلوقات كلها لخلق الله وتدبيره وتصريفه « الذكر لله » الذي ورد في القرآن الأمر به والثناء على أهله ، وما رتب عليه من الجزاء يطلق على جميع الطاعات الظاهرة والباطنة ، القولية والفعلية ، فكلماته صورته القلب أو أرادته أو فعله العبد أو تكلم به مما يقرب إلى الله فهو ذكر لله ، والله تعالى شرع العبادات كلها لأقامة ذكره ، فهي ذكر لله ويطلق على ذكر الله باللسان بذكر أوصافه وأفعاله والثناء عليه بعمه وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل والصلاة على النبي ﷺ . ومن ذكره ذكر أحكامه تعلمها وتعليمها ، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها مجالس الذكر ، وأفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان « حدود الله » يراد بها ما حرمه ومنعه عباده ، فيقال فيها (تلك حدود الله فلا تقربوها) ويراد بها ما أباحه وأحل له لعباده وقدره وفرضه ، فيقال فيها (تلك حدود الله فلا تعتدوها) أي لا تتجاوزوا ما أحل الله إلى ما حرم الله ، ولا تتجاوزوا ما قدره الله للعباد إلى ما يخالف تقديره « الأمانة » هي الأمور التي يؤمن عليها العبد فيشمل الأمانة التي بينه وبين الله ، فانه اتقن عبده على إقامة الواجبات وترك المحرمات ، فالتقن بذلك أداء للأمانة ومراعاة لها ، وترك بعض الواجبات وخصوصاً السرية التي لا يطلع عليها إلا الله أو العجى . على بعض المحرمات ترك للأمانة واتصاف بالخيانة ؛ ويشمل أيضاً الأمانات التي بينك وبين الخلق في الدماء والأموال والحقوق

فمن قام بها فقد أدى الأمانة وحفظها ، ومن تصدى فيها أو فرط أو خان فقد نجراً على الحياة «العهد والعقد» يشمل اليهود والعقود التي بين العبد وبين ربه ، فإن الله عقد بينه وبين المكافين عقداً وعاهدكم عهداً باتامة ما خلقوا له من عبادته والقيام بحقوقه ، فاقامة ذلك وفاء لهذا العقد والعهد وإهماله نقض للعهد والعقد والثقة وكذلك اليهود والعقود التي بينه وبين الخلق يتعين الوفاء بها ، ويشمل ذلك عقود المعاملات كلها من دون استثناء « الشجاعة والجهن والتهور » أثنى الله في كتابه على الشجاعة ومدح أهلها وأمر بها ، وذم الجبن والتهور ، فالشجاعة قوة القلب وثباته وإقدامه على الأقوال والأفعال في موضع الاقدام بحكمة وحسكة ، فإن أقدم عليها في حال لا يحل له الاقدام قيل لذلك تهور وجراءة وحق وإلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وأما الجبن فهو ضد الشجاعة ضعف القلب وخوره ، ويتبع ذلك خور الاعمال والخوف مما لا يخاف وهيبة من لا بهاب ، فالشجاعة خلق فاضل جليل بين خلقين ذميين رذيلين ، بين التهور الذي هو غلو وزيادة عن الحد ، وبين الجبن الذي هو تفريط وتقصير وضعف وخور ، ونظير ذلك (القوام والبخل والتبذير) في تصريف الأموال بذلها فيما ينبغي من واجب ومستحب ونافع على الوجه الذي ينبغي ، يقال لذلك قوام واعتدال وتوسط واقتصاد ، فإن منع الواجبات فهو البخل وصاحبه بخيل ، وإن أسرف وزاد في النفقة عما ينبغي قيل لذلك إسراف وتبذير ، قال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) « الاستقامة » هي لزوم الصراط المستقيم بأن يستقيم العبد على الايمان بالله وأداء فرائضه وترك محارمه مداوماً لذلك تائباً مما أخل به من حقوقها ، ولهذا قال (فاستقيموا اليه واستغفروه) أى مما وقع منكم من الخلل في الاستقامة (التوبة والاستغفار) أما التوبة فهي الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ندماً على ما مضى وتركاً في الحال وعزماً على أن لا يعود ، والاستغفار طلب المغفرة من الله ، فإن اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذى زنت عليه المغفرة ، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له ، فقد يجاب دعاءه وقد لا يجاب ، وهو بنفسه عبادة من العبادات ، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة (التوكل على الله والاستعانة به) بمعنى واحد هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية الخاصة والعامة مع الثقة بالله في ذلك المطلوب (المحبة لله والانابة إلى الله) هي قوة الود لله لكماله ونعمه الظاهرة والباطنة ، وانجذاب القلب الى الله تالهاً ورغبة ورهبة في كل المطالب وطائفة القلب بذكره والتهج بدعائه والرجوع اليه في الامور الدينية والدنيوية الجليلة والحقيرة فمن كان قلبه منيباً إلى الله فهو محب لله ، والمنيب هو الأواه الرجاع إلى الله الأواب اليه (المعروف والمنكر) متقابلان ، فالعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعا وعقلا ، والمنكر ضده (الخبيث والطيب) متقابلان ، فالطيب ما كان طيب الصفات كثير المنافع ، والخبيث بالعكس

(حسن الخلق وسوء الخلق) يكون مع الله ومع خلقه ، فحسن الخلق مع الله القيام بمبوديته ظاهراً وباطناً مع قوة محبته والطأنينة اليه واللهج بذكره وقوة الثقة به ، ومع الخلق بذل الاحسان لهم ومنع الأذى لهم واحتمال الأذى منهم ، وسوء الخلق بعكس ذلك كله (الشرك والكفر) الكفر أعظم من الشرك ، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أى دين يكون ، سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلاً ضالاً ، والشرك نوعان : شرك في ربوبيته كشرك الثنوية الذين يثبتون خالفاً مع الله ، وشرك في ألوهيته كشرك سائر المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره ، ويشركون بينه وبين المخلوقين ؛ ويسوونهم في الله في شيء من خصائص إلهيته . وقد يكون هذا الشرك أكبر جلياً ، كأن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله ، وقد يكون أصغر . كوسائل الشرك من الرياء والحلف بغير الله ونحو ذلك (النفاق) هو أن يظهر الخير ويبطن الشر . وهو نوعان : نفاق أكبر ، كأن يظهر الإيمان بالله ورسوله وقلبه منطو على الكفر ونفاق أصغر ، كالكذب وإخلاف المواعيد والفجور في الخصومة (الكبر والتواضع) فسر النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغطت الناس ، يعنى وضده التواضع للحق قبوله حيث كان ومع من كان ولين الجانب والتواضع للخلق .

فهذه الحدود ينبغي أن تعتبرها في كل ما يمر عليك من نصوص الكتاب والسنة لتتهدى إلى معرفة ما يدخل في الأمور التي حكم الله عليها بالأحكام المتنوعة ، وما لا يدخل فيحصل لك الفرقان والرشاد والبيان ، فنسأل الله أن يهدينا إلى الصراط المستقيم . وهو العلم بالحق والعمل به وبمجربنا الطرق المخالفة لذلك .

وقد يسر الله تكميم هذا التعليق المبارك في ثالث شوال من شهر سنة ثمان وستين . بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة النبوية ، فكان على اختصاره وإيجازه ووضوحه فيه معونة عظيمة على فهم كلام رب العالمين ، وإن كلام الله كنفيل ببيان كل شيء ينتفع به العباد في معاشهم ومعادهم وإرشادهم إلى كل ما فيه مصالحهم المتنوعة ومنافعهم المتعددة ، وأنه يتمم الصلاح والإصلاح للأحوال كلها إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها هذا القرآن في أصول الدين وفروعه ، وفي الأخلاق والآداب ، وفي الأمور الداخلية والخارجية ، والحمد لله الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً ، والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . بخط الفقير إلى الله من كافة الوجوه عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين ، ووقع الفراغ من نقله من خط المؤلف في سابع من الشهر المذكور والسنة المذكورة بقلم الفقير إلى ربه محمد السليمان العبد العزيز البسام ، غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين

(فهرس كتاب خلاصة التفسير)

٦	ذكر أوصاف القرآن العامة	٨٩	فصل في الابلاء والظهار واللعان
٨	علوم التوحيد والمقائد والاصول	٩٠	فصل في آيات الحدود
٩	بيان ما تشتمل عليه الفاتحة	٩٣	» في الأيمان ونحوها
١٣	آية الكرسي وبيان الشفاعة ولمن هي	٩٤	» في الاطعمة والصيد
١٥	الطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله	٩٦	» في الاحكام الشرعية والبينه
١٩	آيات كرنية تدل على وحدانية الله	١٠١	قصص الانبياء وما فيه من العبر
٢١	منة الله على الناس ببعثة محمد ﷺ	١٠٢	تفصيل قصة آدم
٢٣	دحض شبهات الكفار على الرسول	١٠٧	قصة نوح وما يستفاد منها
٢٦	وجوب الايمان بالآخرة ووصف ما فيها	١١٢	» هود وما فيها من الفوائد
٢٩	وجوب الايمان بالملائكة والرد على منكريهم	١١٤	» صالح وما يؤخذ منها
٣٤	تفسير آيات في حقوق الله وحقوق الناس	١١٦	» ابراهيم الخليل
٤٢	خذ العفو وامر بالمعرف الخ	١٢٦	» شعيب وما فيها
٤٣	الامر بالصلاة وتفسير إقامتها	١٢٩	» موسى
٤٦	الزكاة وما في إخراجها من الفوائد وأهلها	١٣٣	الرد على منكري الكرامات
٤٩	فصل في الطهارة بالماء والتيمم	١٣٦	أسباب حصول المغفرة
٥٢	فصل في صلاة الجمعة	١٣٧	قصة يونس
٥٤	بيان صلاة السفر والخوف	١٣٨	» داود وسليمان
٥٥	فصل في وجوب الصيام وفوائده	١٤٥	» أيوب — قصة الخضر
٥٧	قربه تعالى واستجابته لدعاء الداعي	١٤٩	» ذو القرنين
٥٩	وجوب الحج وتوابعه	١٥١	» عيسى وأمه وزكريا
٦٥	فصل في الجهاد وتوابعه	١٥٤	» يوسف ويعقوب
٧٠	فصل في البيوع وأنواع المعاملات	١٦٣	» أصحاب الكهف
٧١	فساد الربا والميسر والغرر	١٦٤	سيرة خاتم النبيين ومعاملته للكاذبين
٧٢	آية كتابة الديون وما فيها من الفوائد	١٧٠	غزوات الرسول وتواريخها وتفصيلاتها
٧٥	أحكام الموارث	١٧٢	كلام القرآن وأسلوبه وتأثيره
٧٧	فصول في النكاح وتوابعه	١٧٣	تفسير كلمات جاءت في القرآن لعدة معان
٨٢	طبقات النساء وتآديب المعوجة	الامه - السلطان ، اللسان ، استوى	
٨٣	إرسال الحكمين من الاهل عند النزاع	التأويل ، المعية	
٨٦	أحكام العلاق	١٩٣	الاسباب الموصلة الى المطالب العاليه
٨٧	اختلاف عدة المرأة باختلاف الاحوال	١٩٧	الدعوة الى الله وأقسام الناس عندها
		١٩٩	تحديد ألفاظ كثر مرورها بالقرآن